

جَيْتُمْ

الأنساب المختارة

وفاة

ALEXANDRA-AHLAMONTADA.COM

منتدى مكتبة الاسكندرية

ترجمة
الدكتور عبد الرحمن بدوي

دار الأندلس

جيتي

الأنساب المختارة

ترجمة
الدكتور عبد الرحمن بدوي

دار الأنجلو
للطباعة والنشر والتوزيع

المنوان الأصلي : Die Wahlverwandtschaften

ظهر لأول مرة : حرر جيته القسم الأول من القصة إبان صيف سنة ١٨٠٨

والقسم الثاني خلال شهر أغسطس سنة ١٨٠٩

ونشرت القصة كلها في أكتوبر سنة ١٨٠٩

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٩٨٠م

تصدير عام

« الناس سيبصرون في هذه القصة آثارُ جرح عميق يخاف أن يندمل ، وسيستشفون منها إلى قلب يهاب الشفاء » .

هذا الجرح الدامي الذي أصاب قلب جيته الجزوعَ في سن الكهولة كان من أثر سهم أصابه به كيوييدُ من قوس منّا هزّ تسليب ، هذه الفتاة المتوتبة الحاملة في مؤنّف الشبية التي عرفها عند آل فروثمان الذين تكفلوا بتلك اليتيمة العزيزة ذات العينين النجلاوين السوداوين النافذتين ، والوجه الرقيق المستدير ، والقبمات اللطيفة الدقيقة ، والشعر الكستنائي الجفال ، والنهود البيضاء الناعمة .

لقد أحبها الشيخ الذي ذرف على الحسين وهي لا تزال طفلة في العاشرة ، ونما هذا الحب حتى بلغ أوجه حينما أشرفت على الثامنة عشرة . أما هو فقد كان في الثامنة والحسين ، بيد أن هذا القلب العظيم « الذي يهاب الشفاء » على الرغم مما قام به من تجارب غرام لم تتوفر مثلها لغيره من العباقرة ، لا يزال يسمي إلى أن يصاب بهم حب جديد ، لأنه قلب حيّ أبداً ، شابّ أبداً ؛ ومثل هذه القلوب لا تخشى الشيخوخة ولا ترجو للسنّ المتقدمة وقاراً . وهكذا فلتسكن القلوب النبيلة العظيمة حقاً .

وكان الناشئ فروثمان — شأنه شأن كبار الناشئين في أوروبا وفي العالم العربي في عصره الزاهر — رجلاً واسع الاطلاع متعدد التواحي العسكرية ؛ وكان «ته ندياً» أدبياً من الطراز الأول في مدينة يينا — تلك المدينة ذات الشهرة الثقافية الكبرى بفضل جامعها الزاهرة التي قام بالتدريس فيها أمثال

هيجل وشلنج وهكل حتى كانت معبد الفلسفة المثالية والفلسفة الحيوية طوال القرن التاسع عشر - ؛ وكان جيته يتردد على هذا الندى باستمرار ومثارة غربية إبان إقامته في هذه المدينة ، ويلوح أن إعجابه بالندى قد كان يحمله على الإطالة في الإقامة الأشهر فضلاً عن الأسابيع . ولم يكن هذا الإعجاب مصدره ذلك الجو الروحي الذي كان يسود الندى بقدر ما كان ذلك الجمال الحالم الذي يشع من تلك الفتاة الرقيقة المدةلة .

ولم يكن في الفتاة ما يدعو إلى الإعجاب الفكري حتى تُنعت عاطفة جيته بنعت آخر غير الحب المشبوب . فقد كانت كما وصفها أخوها في الوصاية : « على الرغم من أنها كانت منذ شبابها سليمة موفورة الصحة ، فإن نموها الروحي كان بطيئاً ، حتى إنه لم يكن في الوسع أن يطلب إليها أن تقوم بأداء أى عمل عقلي يحتاج إلى شيء من الجهد والبذل . ولقد ظلت طوال حياتها على حال من الحلم الساجي ، مع أنه لم يكن يعوزها الذوق السليم والإحساس الطبيعي ؛ كما بقيت دائماً ذات نفس مُحسنة متواضعة رقيقة حريصة على الاحتفال برغبات الآخرين ، بل وبأمانهم الخفية المستورة » . ولعل هذا عينه هو الذي جذب جيته فيها : فالباقرة ورجال الفكر ينفضون دائماً المتحذلقات والمتظاهرات من النساء ، وبخاصة ذوات الثقافة الزائفة البراقة منهن ؛ بينما يميلون إلى الطبايع الحاملة الساجية والنفوس البسيطة الساذجة التي تتمثل فيها البراءة الأولى والطهارة والفطرة إلى أبد حد مستطاع . ولقد أصاب ريتان حينما قال : « كلما كان الرجل أنى بفكره كان أكثر حُلماً بالقطب المضاد ، أعنى باللامعقول ، وبالمرأة التي ليست إلا امرأة ، وبالسكائن الغريزي الفطري الذي لا يسلك في الحياة إلا وفق ما يمايه عليه دافع الشعور الغامض » .

(٥)

وَمِنَّا كَانَتْ مِنْ ذَلِكَ النُّوعِ ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ تَسْتَشِيرَ حُبَّ جِيتِهِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ صَغِيرَةً ، وَكَانَ هُوَ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ هَدَفَ نَظَرَاتِ النِّسَاءِ الْفَائِزَاتِ الْمُعْجَبَاتِ بِهِ ، حَتَّى كَانَ يَضْطَرُّ - وَهُوَ زِيرُ النِّسَاءِ - أَنْ يَفِرَّ مِنْهُنَّ . وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الصِّفَاتُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي جَذَبَتْهُ فِيهَا ، بَلْ كَانَتْ فِي مَسْلُكِهَا الْعَامِ فِي الْحَيَاةِ تَلَاثُ أَتِمَّاهُ جِيتِهِ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ . فَقَدْ كَانَتْ مُسْتَسْلِمَةً تَمِيلُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الزَّهْدِ وَالْمُزُوفِ عَنِ الْحَيَاةِ ، وَتِلْكَ كَانَتْ الْمَاطِفَةُ الَّتِي تَسُودُ فِكْرَ جِيتِهِ وَنَفْسِهِ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ ، حَتَّى كَانَتْ فِكْرَةَ الزَّهْدِ وَالْمُزُوفِ هِيَ الْمَحْوَرُ الَّذِي يَدُورُ مِنْ حَوْلِهِ إِنتَاجُهُ الْفَنَى فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ .

وَلَقَدْ بَدَأَتْ الْعِلَّةُ بَيْنَهُمَا تَأْخُذُ وَجْهَهَا الْجَدَى فِي نَوَفَرِ سَنَةِ ١٨٠٧ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مِنْ قَبْلِ نَوْعًا مِنَ الْحُبِّ الْأَبْوَى الرَّفِيقِ مِنْ جَانِبِ شَيْخٍ نَحْوِ طِفْلَةٍ لَمْ تَسْكُدْ تَشَارُفَ النُّهُودِ ؛ وَإِذَا كَانَ مَعَ هَذَا قَدْ أَحْسَنَ بِمَا تَنَقَّهَى إِلَيْهِ هَذِهِ الْمَاطِفَةُ ، فَقَدْ حَاوَلَ عِلَاجَهَا مِنْذُ الْبَدَايَةِ عَنْ طَرِيقِ دَوَائِهِ الْمَمْهُودِ ، وَهُوَ الْإِبْتِعَادُ وَالْفَرَارُ . فَقَلَّلَ مِنْ زِيَارَاتِهِ لِمَدِينَةِ بَيْنَا حَتَّى يَسْتَمِعَ إِلَى صَوْتِ الْحِكْمَةِ وَهُوَ يَدْعُوهُ إِلَى تَرْكِهَا وَالْمُزُوفِ عَنْ حُبِّهَا . بَيِّدَ أَنَّهُ اضْطَرَّ فِي ذَلِكَ الشَّهْرِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بَيْنَا لِلْقِيَامِ بِدِرَاسَاتِهِ الْخَاصَّةِ بِنَظَرِيَةِ الْأَلْوَانِ الَّتِي كَانَ فِي شُغْلِهَا إِبَانُ ذَلِكَ الْحَيْنِ ، كَمَا كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَفْرُغَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْهَادِئَةِ لِكِتَابَةِ مَسْرُوحِيَّتِهِ « بَنْدُورَا » الَّتِي كَانَ يَرِيدُ فِيهَا أَنْ يَمَثِّرَ عَنْ مَوْقِفِهِ مِنَ الْأَحْدَاثِ الضَّخَامِ الَّتِي كَانَتْ تَرْهَقُ كَاهِلَ أَوْرُبَا نَابِلْيُونِ فِي تِلْكَ السَّنِينَ ، وَعَنْ رَغْبَتِهِ الْحَارَةِ فِي أَنْ يَرَى الْإِنْسَانِيَّةَ تَسْلُكَ بِهِذِهِ الْأَعْمَالِ الْجَبَّارَةَ الَّتِي تَقُومُ بِهَا « نَحْوُ الْحَيْرِ الْأَبْدِيِّ وَالْجَمَالِ الْخَالِدِ » . فَكَانَ لَا مَنَاصَ لَهُ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَى نَدَى آلِ فَرُومَانَ . وَهَذَا أَحْسَنُ بِالْخَطَرِ الَّذِي يَسْتَهْدَفُ لَهُ مِنْ جَدِيدٍ ، وَبِصُورَةٍ أَعْنَفَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ خُصُوصًا الْآنَ وَقَدْ أَصْبَحَتْ الْفَتَاةُ فِي أَوْجِ فَتْنَتِهَا ، وَصَارَتْ تَتَقَنَّ

الفناء بحساسية مرهقة والرسم والتصوير بالألوان المائية . ومع هذا فقد
 أثر العزوف مرة أخرى لولا أن جاءه مُنافس قد أثار فِيعته وكانت بينهما
 معارك شعرية خاضها كلاهما من أجل الفتاة . فلقد وفد على بينا في ذلك
 الحين شاعر شاب كان يُعدُّ أروع شاعر بين « أبناء الوادي » ؛ ونعني به
 زَخرِياس قرتر ، فتعرف إلى جيته ، وحاول جيته أن يدرس فيه شعر الجيل
 الجديد . وبما عُهدَ في الشباب من حماسة واندفاع اشتغل قلب زخرِياس
 غراماً بالفتاة وراح يقول السوناتات الشعرية الواحدة تلو الأخرى في تدفق
 غريب ، فكان بينه وبين جيته تنافس مزدوج : فني وعاطفي معاً . وإذا
 بجيته هو الآخر يتدفق بالسوناتات على الرغم من أنه كان يكره من قبل هذا
 النوع من النظم ، حتى كان على حد تعبيره في « حمى سوناتات » متخذاً
 ها هنا مثله الأعلى عند زعيم السوناتات وهو يتركة ، فراح يصف تجربته
 الجديدة فيقول : « تدرت برداء طويل غطاني حتى وجهي ، وهبطت إلى
 السهول التي أشاع فيها الشتاء ظلمة وكآبة متخذاً شمعاً صخرياً ، رماديَّ
 اللون وعمراً ، وفي نفسي اضطراب وبى نزوع إلى الفرار . ونجاة بدا لي أن أجراً
 جديداً قد لاح في الأفق أضواؤه ، لاح في رؤية فتاة ناهد ، أجل ! لقد تبدى
 أمامي في كمالٍ يعدل كمال الماشقات الرقيقات اللاتي تفتن بهن الشعراء .
 هنالك تطامنت رغبتى الشبوبة . ثم انصرفت عنها وتجنبتها وتركتمنا تمر ،
 وشدت معطفي أكثر وأكثر وغصت في أعماق ثنياه ، وكأني - متحدياً -
 أردت اللواذ بحجارة نفسي . ومع هذا فقد تابعتها ، تابعت هذه الفتاة التي
 توقفت أمامي . آه ! لقد قضى الأمر ! لم يعد في وسعي بعد أن أظل
 منطوياً في داخل معطفي ، فألقيت به بعيداً عني ، وارتعت الفتاة بين ذراعي » .
 وهكذا قدر للشيوخ أن يخلع معطف وقاره وأن يشتمل فؤاده غراماً بهذه

(ز)

الفتاة الرائعة ، واندفعت العاطفة تملّ عليه سبع عشرة سونّنة من خير قصائده الغنائية ، ومضى يخترع الأفايصيص والتهاويل معبراً فيها عن آلام غرامه وأحزان وجدانه وشكاة مأسائه ، وإن لم يكن هنا في سخاء العاطفة وبساطة الإحساس واندفاع الوجدان المَرم بقدر ما كان إبان دور فرّز ومفاصرة زيرنْهيم . ثم تبلورت هذه الأحساس كلها التي ولّدتها تلك التجربة الغرامية في « بَندورا » ثم على وجه التخصيص في « الأنساب المختارة » .

« فالأنساب المختارة » قرينة « آلام الفتى فرّز » في أن كليهما قصد به التعبير الفنى عن تجربة غرامية عنيفة لم تستطع أن تجد منفذاً للإرضاء والإشباع إلا في الخيال الأدبى ، فجاءت كلٌّ منهما تنفيساً شعرياً لقلب مُشخّن بجراح الحب . بيد أن ثمت بينهما من الفارق الضرورى ما كان لا بد أن يقع بين جيته الشاب المتوثب المَرم الوجدان المنطلق في حركة « العاصفة والاندفاع » ، وبين جيته الكهل الذى خبر الدنيا وعرف أحوالها فامتلاّت نفسه من حكمة الحياة وطامن من حرارة روحه ومال إلى شئ من الزهد والعزوف ، وصار يقدّر العواطف بقدرها المترنّ ؛ جيته الذى صار يعنى بالوسائل العلمية قدر عنايته بالاتجاهات الفنية فلم يَمد شاعراً خالصاً كما كان في عهد فرّز ، بل صار إلى جانب هذا عالماً يبحث في النبات والمعادن ونظرية الألوان ، فكان لا بد له أن يتأثر كذلك بهذه الناحية العلمية في إنتاجه الفنّى ؛ ولذا جاءت قصة تجربة غرامه الجديدة جامعة بين هذا كله : بين الوجدان المتوثب المشبوب ، والحكمة الناضجة المترنة والزرعة العلمية الإنسانية معاً .

أجل ، لقد أراد جيته في هذه القصة أن يطبّق صيغة كيميائية مشهورة

(ح)

على الأحوال الإنسانية . فقد عرف من دراساته الكيميائية ، كما قال
في حديثه لكتابه ريمر ، عن طريق مؤلف ليميائي سويدي هو
توربرن برجن Torbern Bergman بعنوان « الأنساب المختارة »
De attractionibus electivis ترجم إلى الألمانية سنة ١٨٨٥ بنفس
العنوان *Die Wahlverwandschaften* ، وفيه عرض نظرية التجاذب بين
العناصر الكيميائية وما يؤدي إليه هذا من تركيبات جديدة وفقاً للعوامل
التي تدخلت في هذا التجاذب . بيد أن المؤلف السويدي لم يستخدم في
شرحه تلك المسألة الحروف ، إنما الذي استعان بها هو الفزيائي الألماني . س
جيلر Gehler في « معجمه الفزيائي » الذي ظهر بين سنة ١٧٨٧ —
١٧٩١ . وخلاصة هذه النظرية الكيميائية أن بين المواد الكيميائية أنواعاً
من النسب أو التجاذب الطبيعي أولاً فيما بين نفسها ، كما يشاهد في قطرات
الماء التي تميل إلى الاتحاد بعضها ببعض لتكوين السيول والأنهار ؛ وثانياً
فيما بين أنواعها المختلفة بعضها وبعض ، وهذا إما أن يتم بسهولة كما في اتحاد
الخرم مع الماء ، أو بمساعدة قلوبى كما في حالة امتزاج الزيت والماء ؛ وقد يكون
من شأن هذا الامتزاج ، إن كان قوياً بدرجة كافية ، أن يولد مادة جديدة
كل الجدة ، كما يحدث حينما يصب حمض الكبريت فوق الجير مُنتجاً
مادتين جديدتين هما حمض الكربون والجبس . كما أن ثمت نوعاً ثالثاً من
النسب يمكن أن يسمى التقاطع أو المزدوج : فقد يكون لدينا زوجان من
العناصر ، ا و ب م ح و د ، وكل عضو في كلا الزوجين مرتبط أوثق
ارتباطاً بأخيه ؛ لكن إذا وجدت الأعضاء الأربعة في حضرة واحدة ، فقد
يحدث أن يفضل ا الانفصال عن ب والاتحاد مع د بينما يميل ب إلى الانفصال
عن رفيقه مفضلاً الاتحاد مع ح ؛ وعلى هذا النحو يحدث تقاطع في النسب .

عرف حياته هذه الظاهرة التي تجري بين العناصر في عالم المادة من دراساته الكيميائية التي تعود إلى سنة ١٧٩٨ تقريباً ، فأراد أن يجد نظيراً لها في عالم الأحياء ؛ فاستبدل بالعناصر المادية أشخاصاً من الإنسانية وعرضهم أمامنا وهم : إدورد وشرلوت والكابتن وأوتيلي ؛ وقص علينا بلسان الكابتن ، وقد سألته شرلوت عن تلك الظاهرة ، نبأ هذه التجربة الكيميائية وما عسى أن تنطبق عليه في عالم الإنسان . وهكذا وضعنا المؤلف بإزاء موضوع القصة منذ الفصل الرابع : فسيحدث للكائنات الإنسانية ما يحدث تماماً لتلك العناصر الكيميائية ؛ إذ على الرغم من القانون الذي يربط بين هذه الشخصيات فإن الاتحاد ستنفصم عروته وفقاً لما تقتضيه الأنساب الطبيعية المختارة تخلياً السبيل لارتباطات جديدة . فالقانون الوضعي قد ربط بين إدورد ، هذا البارون الثرى المجتمع الأشد ، وبين شرلوت الأرملة العاقلة ، بعد أن فصل بينهما زواج غير موفق من كلا الجانبين على الرغم مما كان بينهما من غرام متبادل قبل هذا الزواج ؛ بيد أنه لم يكلل بالزواج إذ آثر إدورد أن يرضخ لمشينة أهله الذين رغبوا له في الاقتران بفتاة موسرة ، وشرلوت من جانبها تزوجت وأنسلت فتاة ذكية لمعوباً كلها فراهات شيطانية تدعى لوسيانه . ثم بعد حين يصبح كلاهما حرراً فيعودان إلى عاطفتي القديعة ، وينتهي الأمر بهما إلى الزواج . وهما يسلكان سبيل الحياة الهادئة في ضيعةهما حيث يفكران في إقامة منشآت جديدة وغرس مآثر في البستان . وكان لإدورد صديق منذ الطفولة يذكر دائماً بوصفه العسكري وهو الكابتن ، وقد كان في ذلك الحين متمطلا من كل عمل ؛ فرأى إدورد أن واجب الصداقة يدعوه إلى إيجاد عمل لتلك المواهب الوافرة المتعطلة ، ورأى من ناحية أخرى أنه في حاجة إلى معونته

(ى)

فيا استقر عليه من الإشراف على استغلال ضيعته على خير وجه . فاقترح على روجه أن يدعو الكابتن معها ، كيما يماونهما ويحبد مجالا لفشاط ملكانه . بيد أن شرلوت توجست خيفة من دخول شخص ثالث بين كليهما وأبدت هذه المخاوف لقرينها . وأخيراً تفاقاً على أن يتخذوا حلاً في تنفيذ رضا الجميع ، وذلك بأن يدعى كل من الكابتن وأوتيل ، تلك الفتاة اليتيمة التي كفلتها شرلوت بعد أن ماتت أختها وخلفت أوتيل . ومنذ هذه اللحظة يبدأ التفاعل الروحي الذي يكون نسج هذه القصة .

والبطلة الحقيقية لهذه الرواية هي أوتيل . كانت فتاة ساذجة متخلفة في المدرسة الداخلية التي أرسلت إليها مبكراً مع ابنة خالتها لوسيانه ؛ وكانت خجولاً لا تحب الظهور ولا تشارك في الحفلات ولا المجتمعات العامة ولا تضطرب فيما يضطرب فيه لِداتها من الفتيات مما كان يشبع لديهن الرغبة في التظاهر والإقبال على الحياة المادية في المجتمع الراق . وكانت حالة ساذجة ساذجة نعلو نفسها كآبة رقيقة ويشيع في قلبها استسلام راضٍ وإدعان رزين ، مما كان يُضفي على مظهرها شيئاً من الحكمة والتعقل سنرى أثره واضحاً في « يومياتها » التي تفيض بحكمة الحياة . ولهذا كله كانت أونيل المثل الأعلى للكانن الفريرى الفطرى ؛ للأنونة الخالدة البريئة الساذجة كما كان يتصوره جيته ، وكما رسم صورته من قبل في أشخاص جرتشن ومنيون وشرلوت . لكنها تفضل هؤلاء البطلات بمراحل عدة ، على الأقل من بعض النواحي : فهي تفرع جرتشن بما فيها من حكمة ورزانة على الرغم مما يبدو عليها من بساطة وسذاجة تكاد تصل حد الغفلة والبلة والحق ، وهي تبرز منيون بالبراءة الطفولية ، وإن كانت منيون تفوقها من ناحية سمة خيالها والتهاب وجدانها وانطلاق عاطفتها الغنائية ؛ وهي تفضل

(١٠)

تملوت « قُتر » بمعنى عواطفها ونفوذ إحساسها - وإذا كان النقاد يأخذون على أوتيل أنها « عاقلة أكثر مما يجب » ، ويمزقون هذا إلى سن جيته المتقدمة في ذلك الحين ، وكانت تميل إلى الحكمة والتعقل أكثر من البساطة والوجدان الساذج ، فإن رأيهم هذا إنما بنوه على أساس « يوميات أوتيل » ، وهي فعلاً محشوة بالحكمة الرزينة التي لا يُتصور صدورها عن فتاة ساذجة ، بيد أن الصورة الحقيقية لهذه الفتاة لا يجب أن تؤخذ من « اليوميات » ، بل من مجرى القصة نفسها ومن مسلك أوتيل ووصفها خلالها . إذ من الواضح أن جيته إنما أراد أن يضع خلاصة تجاربه وعصارة حكمته في الحياة في داخل هذه « اليوميات » ، لأنه لم يجد مجالاً آخر غيرها ؛ ثم أحس بما في هذا من تحميل لأوتيل ما هو فوق طاقتها فاعتذر عن هذا النوع من عدم التناسب بأن عنما كثيراً من الأقوال الحكيمة المسجلة في « اليوميات » إلى قراءات الفتاة ، وكل ما فعلته أن نقلت هذه الأقوال التي قرأتها وسجلتها في « اليوميات » ؛ ومعنى هذا بصريح العبارة أن جيته لم يطلب إلى الناس أن يتخذوا صورة أوتيل الحقيقية من هذه « اليوميات » ، وإنما من مجرى القصة كلها . إذاً نظن أن أولئك النقاد الذين لاموا جيته من هذه الناحية قد غالوا في الحكم واشتطوا في التقدير .

إنما تستمد صورة أوتيل الصافية من مسلكها البسيط الرائع إبان القصة كلها . هنالك سراها فتاة مرهفة الحساسة ، في غير مظاهر ولا انفجار سطحي ؛ مستسلمة للمصير في حب يدعو إلى الرثاء والحنان عليها ؛ صادقة الحكم بوجدانها الفطري وعيائها الغريزي ونوئتها الرقيق النفاذ ، دون ما تعقل وتفكير متحذلق ، تنزع نزعاً صوفية نجملها على اتصال مستمر بالطبيعة وما تنطوى عليه من أسرار نستشعرها هي في أعماق

(ب)

وجدانها ودخيلة لا شعورها ، فتصدر عن قاع هذا الباطن الخفى الرهيب دون أن يستطيع العقل النظرى والفكر المنطقى تبرير أحكامها ونظراتها وهواجسها ، مما يضفى على روحها نضاعة الفطرة وسذاجة الغريزة وصدق الطبيعة الصافية . لهذا كله لا يستطيع المرء بإزائها إلا أن نقف طويلاً مُفَكِّراً متأملاً فى صمت رهيب وخشوع ذاهل ، وكأنه أمام قوة خفية مستسيرة تنطق عن وحى علوى مجهول المصدر . والحق أن فى طبيعتها من طبائع القديسات - خصوصاً فى الدور الأخير من حياتها ، إبان عزوفها وزهدها المطلق - ما يحملنا على أن نسلُكها فى عداد التألهات القديسات . وإن هذه الصورة لتكمل فى المنظر الأخير حينما يحدث لخادمتها نانت من التصورات والإيهامات والتساويل ما يلقى بنا فى عالم القداسة والخوارق والكرامات . ولم يكن عبثاً أن أضاف جيته هذا الجانب الذى لم يقصد به إلى تصوير نانت بقدر ما قصد به إلى تصوير أوتيلى وقد ارتفعت فى موتها بين هالة من القداسة الزاهية إلى عالم نورانى من الخيال الصوفى والوجد النشوان ، حتى بدت لنا فى كل جلالتها كأنها المذراء وقد تجلّت فى عليين بين ملائكة النور فى عرشها البلورى ؛ ولقد كان تابوت أوتيلى بواجهته الزجاجية البراقة هو ذلك العرش البلورى الذى حملت عليه فى سماوات النعيم وطوبى القديسين .

لكن هذه القداسة الظاهرة قد أرغمها مصيرها القاسى على الدخول فى محنة بالغة حينما وجدت فى حضرة إدورد ، زوج خالتها التى أحسنت إليها وشملتها بكل حنانها وجميلها ، فاضطرتها الأنساب الطبيعية بمالها من قانون صارم على الخروج عن سبيلها المقدس بأن أمالت قلبها إلى إدورد وأمالت قلب هذا إليها ، مما ولد تنازعا رهيباً احتملت الفتاة مجراه فى

(ج)

استسلام كظيم . لقد كانت من البساطة بحيث اندفعت وراء غريزتها وميولها الفطرية فأحبّت الرجل الذي يحرم عليها القانون الأخلاق أن تحمل له عاطفة من مثل هذا النوع . أما القانون الطبيعي فقد كان يدعوها إلى هذا الحب : لأن الزواج بين إدورد وبين شرلوت لم يقم هذه المرة على الحب ، بل كان من قبيل المصادفة ، وكان نتيجة وهم من كلا الجانبين ما عبّدا أن اكتشفاه حيناً أظهرهما عليه القانون الطبيعي ، قانون الأنساب المختارة . ومن هنا وقعت أوتيل في مأزق بين ما يقضى به الواجب الأخلاقي والعرف الجاري وبين ما يدعو إليه الميل الطبيعي والنسب المختار . ولم يكن كفاحها متكافئاً في أول الأمر مع الطرفين المتنافرين : الواجب والم عاطفة ، لأنها كانت تفكر بغريزتها وقلبها ، إذ كان الظفر للمعاطفة في أول الأمر . غير أن القدر الصارم قد شاء أن ينهبها — في اللحظة التي انخرقت فيها عن الواجب وأسلمت نفسها للمعاطفة — إلى ضلالها وانحرافها ، بأن جعلها السبب في موت ابن شرلوت وإدورد ، بينما كانت تبرّض به في الزورق : إذ سقط من بين يديها في الماء فاقد الحياة .

ولقد كان لموت هذا الطفل معنيان متضاربان : فيمكن أن يفسّر على أنه كان من أجل إخلاء السبيل أمام القانون الطبيعي للأنساب المختارة ، إذ كان الطفل هو العقبة القائمة في سبيل الانفصال بين شرلوت وإدورد ، فكان في زوالها ما يسمح بالطلاق ، وبالتالي بالاتحاد فيما بين إدورد وأوتيل . كما يمكن أن يفسّر كذلك على النحو الآخر الذي أتينا على ذكره وهو أنه كان تحذيراً من القدر كما يتم نفاذ القانون الطبيعي ويحترم القانون الأخلاق الوضعي . وفي هذا الاشتراك في المعنى لمدلول ذلك الحادث قام التعارض الشائق الذي كوّن عقدة القصة ، تلك العقدة التي حلت في النهاية لصالح التفسير الثاني فذهبت أوتيل ضحية للمصير الذي لا يرحم .

(يد)

وهنا تبرز المشكلة الحقيقية في القصة : أهي تنحو منحى أخلاقياً وتريد أن تؤكد ظفر القانون الأخلاقي على القانون الطبيعى ، أم هي بمعزل عن كل هذه الاعتبارات الأخلاقية ؟

لقد حار النقاد والقراء منذ ظهور هذه القصة حتى اليوم في حل هذه المشكلة . فبعضهم نظر إليها بالنظرة الأولى وجعل منها تمجيذاً للرباط المقدس ، رباط الزوجية ؛ متخذاً هذا التفسير من مخرج القصة ومُسرد أحداثها وخاتمها ، دون أن يحفل بالآراء التي بثها جيته عن الزواج على لسان الكونت الذى كان يرى في الزواج أنه عقد كعقد الإيجار مدته خمس سنوات قابلة للتجديد إن رضى الطرفان ولإعادة التعاقد مدة أخرى بعد انقضاء فترة كافيته إن لذ للطرفين المودُ إلى ذلك التعاقد مرة أخرى !

وفريق آخر آثر أن يمزو إلى جيته آراء الكونت هذه ، ونعت القصة بأنها مُفسدة للأخلاق مخالفة لما يقضى به الواجب في المجتمع المستنير . ولعل هذا كان رأى الغالبية من معاصري جيته الذين حملوا على الكتاب حملة شواء من هذه الناحية .

أما نحن فلن نأخذ هذا الجانب ولا ذاك من حل تلك المشكلة . وجوابنا عنها أن القصة ، وإن تناثرت فيها الحكم الأخلاقية واتسمت بنزعة تعليمية في بعض مواضعها ، فإنها يجب أن تسعد بمعزل عن كل اعتبار أخلاقى . وإنما الصياغة الفنية والاعتبارات الأدبية هي وحدها التي أملت على جيته طريقته في تصوير الأشخاص وسرد الأحداث والإقضاء بها إلى خاتمها النهائية . فالفن القصصى قد قضى عليه أن يعرض الاعتبارات والأفكار من كلا الجانبين المتعارضين : جانب الأخلاق والقانون الوضعى الذى يشمله مقتل وتهفو إليه شرلوت ، وجانب العاطفة والزغات الطبيعية الذى يحمل لواء الكونت وهفو إليه إدورد ؛ فمل

(٥)

جيتته هذا دون أن يرجح طرفاً على طرفٍ شأنه شأن كل فنان خالص ممتاز : يظل دائماً عنأى وممزل عن كل تقويم أخلاقى ، لأن الفن يقوم بطبعه بممزل عن الأخلاق وعن كل تقويم أخلاقى . إنما الذى أوم الفقاد السطحيين فى هذا الباب وحملهم على إدخال ، بل لإقحام الاعتبارات الأخلاقية على قصة جيتته هو الظروف التى أحاطت بمؤلفها أثناء كتابة القصة أولاً ، وثانياً مارأوه فيها من سيادة الروح الفكرية وتناثر الحكمة فى كل أجزائها وما لها من تركيب عقلى بنأى محكم الفكرة . أما الظروف فعى أن سُمى الطلاق كانت قد انتشرت فى ألمانيا فى الوسط المحيط بجيتته فى ذلك الحين إلى درجة مريمة : فطلقت الكونتيسة إجلوفشتين وفراو بوجتش وفراو ليقتسوف وكارولين قولتسوجن وكارولين اشليجل وغيرهن كثيرات من علية القوم فى ثيار ؛ ولم يكن جيتته ، حين يسأل عن رأيه فى الطلاق ، ينصح بالعدل ، بل كان على العكس من هذا يحبذ به ويوافق عليه . وهذا هو السر فى سيادة التفسير الثانى للقصة عند معاصريه : فقد حكوا عليها وفق ما عرفوه من رأى جيتته الحقيقى عن الزواج . والاعتبار الآخر هو الإحكام العقلى فى صياغة القصة ودورانها على فكرة علمية مما حمل النقاد على افتراض ضرورة قيامها على أطروحة أو قضية يريد جيتته تأييدها أو تفنيدها ؛ ومن هنا عُدوا القصة من ذلك النوع من القصص الذى يسميه الفرنسيون القصة ذات الأطروحة أو القضية roman à thèse . والحق أن نسج القصة لم يكن يسمح للناقد المتفطن بهذا التفسير ؛ وإنما هى عناية جيتته بالمسائل العلمية فى تلك الفترة هى التى جعلته يتخذ فكرة الأنساب المختارة فى الكيمياء لتطبيقها على الأمور الإنسانية ، دون أن يقصد من وراء هذا إلى الدعوة إلى قضية وأطروحة معينة .

والرأى عندنا إذأ أن الاعتبارات الفنية هى وحدها التى تدخلت فى

(ب)

تركيب القصة والسير بمجراها والانهاء إلى نهايتها . وآية ذلك أن الحرمان الذي قضى به على أوتيل لم يقصد به إلى تعذيبها ككفارة عن خطيئة حبها ، إنما كان تكملة لصورتها الحقيقية التي عرفنا قسما منها وملاحظها منذ اللحظة الأولى ، سورة القديسة الشهيدة التي قنعت بالتسليم للقدر وجعلت من حب المصير مبدأها في السلوك والتفكير . ولهذا فإن القوة المحركة في القصة كلها هي قوة المصير بالمعنى اليوناني لهذا اللفظ (εἰμωμένον) . والواقع أن القصة قد صيغت على نموذج يوناني خالص مع ما تقتضيه روح العصر الحديث ؛ ولا عجب فقد كان جيته مشغولاً في ذلك الحين بالروح اليونانية التي أجاد التعبير عنها في توأم قصتنا هذه ، ونعني بها مسرحية « بَندورا » التي كتبت معها في وقت واحد .

وإن هذا المصير الرهيب لذو نيات عجيبة ؛ وعيشاً يحاول العقل والفضيلة والواجب وكل ما هو مقدس أن يعترض سبيله ؛ فإن إرادته لا بد نافذة وقضاءه لا مُعَقَّب له ولا رادّ ، ولا مناص من أن يحدث شيء لعله أن يبدو لنا ضاراً لكنه في نظر القدر أو المصير عادل ، شيء يستولى علينا ويمسك مُخَفَّفًا مهما حاولنا التخلص منه ، كما قالت شرلوت . بيد أن في حُبِّ هذا المصير نعمة المرء وواجبه الأسمى . فعلينا إذاً أن نعترف عن أغلى أمانيتنا ونزهد في أنبل عواطفنا ، ما دام المصير قد قَدَّرَ هذا علينا ؛ ولنسكن له ولأحكامه إذاً شهداء مخلصين ، ففي هذا ما يهب القداسة للنفوس البريئة التي استشهدت في سبيل حُبِّ المصير .

ولا نغير علينا من اتخاذ هذا الدرس في الحياة : فإن المصير يضعنا أحياناً في مأزق وجودية لا سبيل إلى الخلاص منها إلا بالزهد والعزوف والاستشهاد

جيتو

الأنساب المختارة

القسم الأول

جِئْتُمْ

الْأَنْسَابُ الْمُخْتَارَةُ

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

الفصل الأول

أمضى إدوَرْد - وهو بارون ترى في مُحْيَا الرجولة - أجمل ساعات الأصيل في يوم من أيام أبريل ، وهو يَأْبُرُ جذوعاً غضة بجَآبر تلقاها منذ حين . وها هو ذا قد فرغ من عمله بالمغرس ، فوضع أدواته في كِنْفِهَا ، وتأمل ما فعل في شيء من الرضا ؛ وإذا بالبستاني يقدم إليه ، فيُسرُّ برؤية سيده وهو يشارك في هذه الأعمال بحماسة وإقبال .

« ألم تر زوجتي ؟ » هكذا سأله إدوَرْد ، بينما هو يتأهب للرحيل . - بلى ، رأيتها في الناحية الأخرى وسط المنشآت الجديدة ، بهذا أجب البستاني . إن الكوخ الطحلي الذي أمرت بإنشائه على جدار الصخرة في مواجهة القصر سينتهي اليوم ، وكل شيء قد صار جميلاً حتى إنه ليسر سعادتك . فالمنظر رائع : هناك القرية ؛ وعن يمين تقوم الكنيسة ، ومن أعلى برجها يمتد النظر إلى أبعد الآفاق ؛ وفي المواجهة يتبدى القصر والحدايق . فأردف إدوَرْد قائلاً : « بخ بخ ! لقد كان في وسعي أن أرى العمال ، على قيد خطوات من هنا ، وهم على عملهم عاكفون ! » .

وتابع البستاني حديثه : « وعن يمين بنفراج الوادي ، ويتبدى من فوق الخمايل الغنية منظر ساجٍ طروب ؛ والشَّعْبُ الصاعد إلى الصخر قد شقَّ في روعة وجمال . حقا إن عصمة البارونة على حظ من الفهم في هذه المسائل حتى ليلد للمرء أن يعمل تحت إمرتها » .

- إذهب والتمس منها أن تنتظرنى ، وأخبرها أنى أود أن أرى هذه المنشأة الجديدة وأن أُعجب بها أنا الآخر .

فضى البستانى مسرعا ؛ وبعد قليل لحق به إدورد .

هبط إدورد الدَّرَجَ وتفقّد في طريقه مرابى النبات ومراقده ، إلى أن بلغ الجدول ، ثم مضى في طريقه إلى حيث يفترق الطريق المُفضى إلى المنشئات الجديدة إلى شعبتين . بيّئد أنه ترك الشجيرة التي تؤدى إلى الصخور مباشرة مارةً بالمقبرة ، واتخذ تلك الأخرى التي تدور عن شمال صاعدة إلى بعيد شيئا ، في انحدار رفيق خلال خيمة مونة . وعند ملتقى الشعبتين جلس برهةً على مقعد وثير ، ثم بدأ صعوده الجِدَى ؛ وبعد سلسلة من السلام والدارج رأى نفسه بإزاء طريق لزب ، وعُمر حيناً ، أقل وعورة حيناً آخر ؛ وأخيراً بلغ الكوخ الطحلي .

وهنا عند الباب استقبلت شرلوت زوجها ، وجعلته يجلس على نحو يهيئ له أن يرى بنظرة واحدة ، من خلال الباب والنافورة ، تلك المناظر العديدة التي تبدت كأنها صور ذوات أُطُر . فتأمل فيها بقلب طروب ، آملاً أن يأتي الربيع عما قليل فيشيع فيها كلها حياة جديدة . وقال : « ليست لدى غير ملاحظة واحدة ، ألا وهي أن الكوخ يبدو لي ضيقاً شيئاً » . فأجابت شرلوت : « وهو مع ذلك أوسع مما يحتاج إليه نحن الاثنين » . فقال إدورد : « أجل ! بل فيه مُتَّسع لثالث » .

— ولم لا ؟ بل ولرابع أيضاً . فإن زاد عددنا استطعنا أن نهيئ أماكن أخرى .

فأردف إدورد : « ما دمنا الآن وحدنا هادئين ، يملونا طائف الهدوء والشُّجُو ، فإنى أعترف لكِ بأنى أحمل في قلبي منذ زمن شيئاً أود أن أفضى إليك به ، بل أراه واجباً على ، دون أن يكون في وسعى أن أجد الظرف الملائم » .

قالت شرلوت : « وأنا قد لاحظت عليك شيئا من هذا القبيل » .
 — ولولا أن يريد صباح الغد يدفعني إلى هذا دفعا ، ولولا أن الضرورة
 تحملنا على البت في هذا الأمر اليوم ، فإنني أصرح لك بأنني كنت سأعتمد
 بالصمت إلى حين أطول .

— ما الأمر إذن ؟ هكذا تساءلت شرلوت ببشاشة رقيقة .
 — الأمر أمر صديقنا القائد . فأنت تعلمين إلى أي حد بلغت به سوء
 الحال ، هو وكثيرون غيره ، دون ذنب أناه . وكم يحز في نفس رجل مثله ،
 عنده ما عنده من معارف ومواهب وبجربة ، أن يرى نفسه متعطلا . ولست
 أريد أن أكتتمك بعد ما أنا راغب في عمله بالنسبة إليه : فإنني أود أن
 أضمه إلينا مدى حين .

فأجابت شرلوت : « هذه مسألة تستحق التفكير ، ويجب أن نتأملها
 من أكثر من ناحية » .

فرد عليها إدورد قائلا : « إنني على استعداد للاقتضاء إليك بما أراه .
 ففي رسالته الأخيرة تشيع روح يأس عميق ؛ وليس هذا لأنه غير قادر
 على القيام بحاجاته لأنه ممن يرضون بميسور العيش ، وأنا بدوري قد كفيته
 الضروري من حاجته . وهو أيضا لا يجد كبير غضاضة في أن يتلقى
 معونتي : لأننا تبادلنا في حياتنا من الخدمات ما لا نقدر على عده
 وتقديره . إنما عذابه الحقيقي هو أنه فارغ من الأعمال . وإن غاية آماله
 وأحروجدانه هو أن يستغل مواهبه العديدة التي تنمأها في نفسه من أجل
 الآخرين . أما الآن وقد أقوت ترائبه من مواهبه ، أو صار يعني بدراسات
 جديدة وتقوية ملكات عدة ، دون أن يكون في وسعه الانتفاع بما لديه
 بالفعل منها — فهذا كله ، يا طفلي العزيزة ، موقف أليم غليظ ، تريد
 الوُحدة في ترويعه » .

فقلت شرلوت : « لقد قام في نفسي أنه عرضت عليه عروض من مختلف الجهات . وأنا نفسي قد كتبت رسائل توصية به إلى نفر من أصدقائي وصديقاتي ممن تُرَجِّى عندهم الشفاعة ؛ وإذا لم تكذبني الظنون ، فإنه يخيَّل إليَّ أن هذه المسعاة لم تذهب سُدى .

— حقاً ! لكن هذه المساعي والعروض نفسها تزيد في شقائه وتمذيبه . فليس فيما عرض عليه ما يتلاءم ونفسه . فالناس لا يطلبون إليه أن يعمل ، بل أن يضحي بنفسه : بعواطفه وآرائه وأوقاته وطبيعته وجوده . وهذا أمر يستحيل عليه . وكلما أعمنت النظر في هذا كله ، ازدادت تأثراً بحاله ، ورغبة في رؤيته إلى جوارنا .

فأجابت شرلوت : « جميل منك أن تحتفل بمرکز صديقك كل هذا الاحتفال ؛ لكن اسمح أيضاً أن أحملك على التفكير في حالنا جميعاً » .
— لقد أفكرت فيه . وما لنا أن ننتظر من حضوره بينما غير اللذة والفائدة . وأنا لا أعنى النفقات ، التي لن تكون بالنسبة إليَّ إلا تافهة ، خصوصاً إذا قدرتُ أن حضوره لن يحدث لنا أية متاعب . فمن الممكن أن يسكن الجناح الأيمن من القصر ، وما عدا هذا فمن اليسير تنظيمه . وبإيادها من خدمة جليلة تلك التي نسديها إليه عن هذا الطريق ! وكَم من لذائذ وفوائد سنظفر بها من وجوده بين ظهرائنا ! ذلك أني أريد منذ زمن طويل أن أرفع مستوى ضيعتي وما حواليتها ؛ وسأكل إليه أمر هذا العمل وتنظيمه . وفي عزمي أن أستثمر ارضي بنفسي ، طالما تنتهي عقود المستأجرين . وهذا أمر ما أشدُّ عُسرهُ ! وكَم من اتجاهات سيعطيها إيانا ! إني لأشعر شعوراً قوياً مُلِحّاً بحاجتي إلى رجل على شاكلته . أجل إن الريفيين لهم أفكار صائبة ، ولكنهم يفضون بها مضطربة ، غامضة وبنية غير سليمة

ولا خالصة . والزراعيون من أبناء المدن والأكاديميات يتصفون بالوضوح والتنظيم في الأفكار ، لكن تموزهم الخبرة . وأنا آمُل أن أجد في صديق هذين الجانبين النافعين ، مما سيتولد عنه الكثير من النتائج التي يلذ لي تخيلها ؛ بل والتي تمنيك أنت أيضاً ؛ وأتوقع من ورائها الخير العميم . وإنني لأشكر لك حسن استماعك إليّ الآن . لكن تكلمي بدورك ، بكل حرية وتفصيل ؛ وأبثني بكل ما لديك أن تقويه ؛ فلست أريد أن أقطع عليك حديثك .

— فقلت شرلوت : سأبدأ حديثي بملاحظة عامة هي أن الرجال يشغلون خصوصاً بالحالة الجزئية المفردة ، بالحاضر ، ولهم الحق ، لأنهم مطالبون بالعمل والفعل ؛ أما النساء فإنهن على العكس من هذا ، يفكرن أكثر وأكثر في تسلسل الحياة واستمرارها ، وهذا صواب أيضاً ، لأن مصيرهن ، ومصير أسرهن ، معقود بهذا التسلسل ، ولأنهن مطالبات بهذا الاستمرار . ألا فلنُلْقِ نظرة إلى حياتنا الحاضرة ، وإلى حياتنا الماضية ؛ هنالك ستعترف بأننا إن دعونا إلينا القائد ، فإن هذا لن يتفق ومشروعاتنا وما قدرناه من أوضاع وترتيبات .

« وإنه ليحلو لي أن أذكر الآن علاقتنا الأولى . لقد ربط الحب لرفيق بين قلبي في غضارة الشباب . ثم فُصِّل ما بيننا ، وفُزِّق بين كليتنا : أما أنت ، فلأن أباك قد أولع بالثراء فقد شاء أن يزُفَّكَ إلى امرأة غنية ، وإن كانت متقدمة في السن ؛ أما أنا ، فلأني — لغير سبب خاص — قد أرغمت على أن أهب يدي لرجل مُوسر كريم ، وإن كنت لأحبه . ثم أصبحنا حُرَيْنَ بعد حين : أنت أولاً ، وقد خلقت لك أمك ثروة ظاهرة ونعمة وافرة ؛ ثم أنا من بعد ، في نفس الحين الذي عدت

فيه من أسفارك . وتلافينا وتبادلنا أطيب الذكريات ؛ وما كان أشهى تلك
الذكرى ! وكان في وسعنا أن نعيش سوياً دون عائق . وألححت أنت في
أن ترتبط : غير أنى لم أرافقك على هذا أول الأمر ، لتقارب أعمارنا ، وأنا
كأمرأة قد صرت اليوم أكبر منك سناً . وأخيراً لم أشأ أن أرفض لك
ما مُخِِّل إليك أنه سعادتك الوحيدة . أجل ، لقد رغبت في أن تسكن
إلى وتقياً ظلال الراحة إلى جوارى ، الراحة من عناء ما عانينا في البلاط
وفي الخدمة وإبان أسفارك ؛ ووَدِدْتُ أن تستنشى نسيم الراحة ، وأن تنعم
بالحياة ، لكن معى وحدى . فأرسلت بابنتى الوحيدة إلى مدرسة داخلية ،
حيث تنمو الآن وتترعرع على نحو فيه من التنوع ما لم يكن متيسراً في
مقام ريفي . بل لم تكن هى وحدها ، إنما أوتيلي كذلك ، ابنة أختي العزيزة ،
بعثت بها إلى المدرسة عينها ، وهى التى ربما كان من الأفضل تربيتها تحت
إشرافى من أجل معاونتى فى الشئون المنزلية . وكل هذا قد فعلته ، بموافقتك ،
لا لسبب إلا أن يكون فى وسعنا أن نعيش لأنفسنا ، وأن ننعم رافهين ،
دون ما شئء بمكر صفونا ، بهذه السعادة التى طالما تحرقنا شوقاً إليها منذ
نعومة أظفارنا ، ولم نظفر بها إلا متأخراً . وعلى هذا النحو دخلنا مقامنا
الريفى . فهضت أنا بأعباء المنزل ، ووفيت أنت بشئون الخارج وبالمسائل
العامة . وأعددت عدتى كيما أحقق كل رغباتك ولا أعيش إلا من أجلك :
فلتجرب ، ولو لمدة قليلة ، كيف وإلى أى حد يستطيع كلانا أن يكنى
أخاه حاجته .

فأجاب إدورد : « أجل ! إن التسلسل هو ، كما قلت ، جوهر المرأة
الحقيقى ؛ لهذا ليس لنا أن ندعك تعرضين أفكارك تباعاً ، أو أن نقنع
بالموافقة على ما تقولين . وفى الحق لقد كنت إلى اليوم على صواب . إن

ما هيأناه من أمور حتى الآن من أجل حياتنا مفهوم معقول ؛ لكن ، أفلا يخلق بنا أن نقيم شيئاً فوق هذه الأساس ، وأن نميها في اتجاه آخر ؟ هل ماقت به من أعمال في الحديقة ، وما فعلتبه أنت في المتنزه ، قد كان من أجل ناسكَيْن ؟»

— حسنًا ! هكذا قالت شرلوت ، حسنًا جدًا ! لكن حذار أن ندخل فيه ما هو ثقيل أو غريب ! قدّر أن مشروعاتنا ، حتى ما يتصل منها بالتسلية ، قد افترضت أننا لن نكون غير اثنين . لقد شئت أول الأمر أن تروى لى أنباء أسفارك متصلة متتابعة ؛ وأن تنظم في هذه المناسبة مختلف الأوراق التي تتصل بهذا الأمر ، ثم تنشئ بمعونتي واشتراكي من هذه الأوراق — الثمينة ، ولكنها مختلطة — كتاباً يسرنا ويسر الآخرين . ولقد وعدتكم بمساعدتك في النسخ ؛ وبدلنا من الميسور العذب الجميل أن نتجول في الذكرى في هذا العالم الذي لم نستطع أن نراه سويًا . بل نحن قد بدأنا هذا فعلاً . ثم أتى المساء فالتقطت نايلك ، وسائر بياني ؛ ولم تكن تموزنا الجيران ، ممن زورهم ويزوروننا . أما عن نفسي ، فقد أمّلت من هذا كله أول صيف عذب حقاً أمضيته في حياتي .

— فأردف إدورد قائلاً وهو يحك جبينه : على الرغم من كل ما نستطيع أن نقوليه بلباقة وحسن تعليل ، فإن فكرى يرى دائماً أن حضور القائد لا يفسد شيئاً ؛ بل بالعكس ، سيسهل كل شيء أكثر وأكثر ، وستتخذ حياتنا منه وجهاً جديداً . إنه قد أمضى شطراً من الأسفار ممي ؛ وحصل كثيراً من الملاحظات بروح مختلفة عن روحى : ففى وسعنا إذن أن نمزج هذا كله وأن نجعل منه مؤلفاً بديعاً .

فأجابت شرلوت : « دعنى أقول لك بصراحة بدافعها القلق وعدم

الصبر ، إني أشعر بنفور نحو هذا المشروع ، وإن استشعاراً مُستَسِرّاً
لِيُخَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ لَنْ يَفْضَى إِلَى خَيْرٍ .

— وهكذا يلح عليك العنادُ معشر النساء فلا يكون في الوسع
مقاومتكن : في البدء تلجأن إلى العقل والتدليل ، إلى حد ألا يكون
في المقدور مناقضتكن ؛ ثم تكنّ فائنات ، فيذعن المرء لَكُنَّ
في يسر وعن طيب خاطر ؛ ثم تصرن مرهفات الحس شديديات التأثير ،
فلا يود الإنسان أن يحزنكن ؛ أو تلجأن إلى الطَّيِّرة والتفاؤل ، فنتشعر
بحن الخوف بدورنا .

— لست ممن يؤمنون بالتطائر والتفاؤل ، ولا أعطى أدنى أهمية لهذه
الدوافع العمياء ، وإن كانت على هذا النحو ؛ لكنهما في الغالب ذكريات
غامضة ، ونتائج ، سعيدة أو ضارة ، رأيناها تنشأ عن أعمالنا ، أو أعمال
الآخرين . ولا شيء أعظم خطراً ، في أى موقف من المواقف ، من تدخل
ثالث فيه . فلقد رأيت أصدقاء وإخوة وعشاقاً وأزواجاً قد تغيرت علاقاتهم
كل التغير واضطربت أحوالهم أسمع اضطراب ، بسبب حضور شخص
ثالث ، إن بالصدفة أو بالاختيار .

قد يحدث هذا عند من يعيشون عُمياناً ، دون تبصر ؛ لا عند من
تبصرهم التجربة ، ويحسنون الشعور بأنفسهم .

— ليس الشعور سلاحاً كافياً ، يا صديقي ؛ بل هو أحياناً خطر على
من يستخدمه ؛ ونتيجة هذا كله أنه ليس يخلق بنا على الأقل أن نندفع
ونتمجّل . فهبني بعض أيام آخر ، قبل أن تصمم على شيء !

— فقال إدورد : لما كان الأمر على ما هو عليه ، فإن العمل بعد أيام
يعد إنديفاعاً ايضاً . لقد عرض كل منا الحجج المؤيدة وتلك المعارضة ؛

وعلينا الآن أن نستقر عند رأى ، والأفضل أن نكمل الفصل في هذا الأمر إلى المقارعة .

— فأجبت شرلوت : إننى أعلم أنك ، فى الأحوال المشكوك فيها ، تحب رهانا أو ضربة بالنرد ؛ ولكنى أرى أن مثل هذا ، فى مسألة خطيرة كهذه ، يعد تهوراً وغرراً .

— إذن ماذا يجب على أن أكتبه إلى القائد ؟ إذ يجب أن أكتب إليه حالا .

— اكتب إليه رسالة هادئة عاقلة مواسية .

— هذا وعدم الكتابة إليه سيان !

— ومع هذا فإن من الضرورى ، فى بعض الأحوال ، بل ومن الصداقة أن يكتب الإنسان شيئاً نافهاً ، أفضل من أن لا يكتب شيئاً إطلاقاً .

الفصل الثانى

ظل إدورد وحيداً فى غرفته بعد أن أثارت شرلوت فى قلبه المشبوب عواطف رقيقة بما روته من مختلف أحداث حياتهما وما عرضته من موقف كليهما بإزاء الآخر وما حلما به من أمان ومشروعات . حتى شعر بلذة فى حضرتها جعلته يتهيا لكتابة رسالة إلى القائد فيها عطف وحنان ، لكنها هادئة ليس بها أدنى إشارة إلى مشروعه . غير أنه ما كاد يجلس إلى مكتبه ويتناول رسالة صديقه كما يحيل نظره فيها مرة أخرى حتى غزت عليه هذه الحال الأسيفة التى يحيا عليها هذا الرجل الممتاز . فأحس بما شعر به نحوه من قبل ، واستيقظت من جديد كل العواطف التى عذبتة منذ أيام ، وبدل له من المستحيل أن يذر صديقه على هذا الوضع الحزين .

لم يتمود إدورد أن يرفض أمراً . فقد كان الابن الوحيد المدلل لأبوين
 ثرين استطاعا أن يقنعا بالزواج من امرأة تكبره سنًا بكثير ، حتى جاء
 زواجا غريباً وإن كان نافعاً كل النفع . وهذه المرأة قد زادت في تدليله
 بشتى الوسائل ، ساعية إلى مكافأته عن طيب مسلكه وإياها بأن تبذل له
 عن سعة عظمى . ثم ما لبثت هذه المرأة أن توفيت ، فصار أرمل حراً ،
 وجال في مختلف البقاع ، يحيا حياته الخاصة المستقلة ، يكتيفها كيفما شاء ،
 متنقلا من شيء إلى آخر ، غير مبالغ فيما يطمح إليه ، وإن كانت نفسه طامحة
 إلى الظفر بكثير من الأشياء المتنوعة . وعلى كل حال فقد كان ذا إخلاص
 وزاهة طعنة ، يسدى المعروف ويتجلى بالشجاعة ، بل وبالإقدام والروءة
 الواسمة حينما يقتضى الأمر . وأى شيء في الدنيا يقوى على مقاومة رغبانه !
 كل شيء سار حتى ذلك الحين وفقاً لما يهوى : فقد استطاع أن يظفر
 بشرلوت بعد أن ظل لها مخلصاً إخلاصاً راسخاً أقرب ما يكون إلى تصوير
 الخيال . لكن هاهو ذا الآن وللهرة الأولى يجد مقاومة لآرائه ومعارضة
 لمشروعاته ، ومتى ؟ في اللحظة التي أراد فيها أن يدعو صديقه في الطفولة ؛
 في تلك اللحظة التي شاء فيها أن يهيء حياته كلها من جديد . فانتابه
 الخوف وشخص به وتنازعت البلائل ، واستولى عليه من القلق ما جعله
 يمسك مراراً بالقلم ثم يرده إلى مكانه ، لأنه لم يستطع الاستقرار عند رأى
 يضح به ماذا عليه أن يكتب . فهو لم يشأ أن يعرض عن طاعة رغبات
 زوجه ، كما لم يستطع أن ينزل على أمرها . فظل قلقا مضطرباً ، وقد كان
 عليه أن يكتب رسالة هادئة ، حتى بدا له هذا مستحيلاً . ولعل أيسر حل
 حينذاك هو التأخير في البت . فكتب إلى صديقه بضع كلمات يستميحه
 فيها عذراً عن تأخره في الكتابة إليه ، وعن إيجازه فيما كتب ، ووعد

بإرسال كتاب آخر عاجل أكثر تفصيلاً وأدعى إلى طمأنته .
وفى القدر كان وزوجه يترضان فى نفس المكان ، فاهتبلت شرلوتُ
الفرصة لاستئناف المناقشة ، مقتنعة ، فيما يظهر ، بأن خير وسيلة للقضاء على
أى مشروع هى أن يُتحدث عنه كثيراً .

سردرد أن يعود إلى هذا الموضوع ؛ فتحدث ، كما هو ديدنه ،
على نحو فيه رقة ولطف . فإنه على الرغم من كونه متفتح النفس للتأثرات
حتى كان يتحمس بسهولة ، كما كانت فى إلحاحه الحاد شئ من الإرهاق ،
وحتى كان عناده يدعو إلى القلق وعدم الصبر - فإن تعبيراته كانت مع
ذلك رقيقة تسودها المجاملات الحارة ، إلى حد أنه كان يبدو لطيفاً حتى
فى أحوال إقحاله .

وعلى هذا النحو بدأ بأن أشاع الجدل والتبسط فى نفس شرلوت ؛
ثم استطاع من بعد ، بفضل حسن توجيهه الحديث ، أن يقتادها إلى درجة
صاحت فيها :

« إنك تريد من غير شك أن أسمح للحبيب بما لم أسمح به للزوج !
جدير بك أن تدرك أيها الصديق أن رغباتك وحرارة المسلك الذى اتخذته
فى التعبير عنها ، لا تدرنى غير متأثرة ولا مكترثة . فهذا يحملنى على أن
أفضى إليك باعتراف : ذلك أنى أجد نفسى فى موقف شبيه بموقفك هذا ؛
ثم أذعنت لنفس القسر والحرمان اللذين أنصح لك بإخضاع نفسك لهما .

— بلذلى أن أعرف هذا . ولا أرى ضيراً فى أن يقع تنازع أحيانا فى
داخل الأسرة ! لأن هذه هى الوسيلة لمعرفة الواحد بيمض أحوال الآخر .
— إذن أقول لك إن الحال بينى وبين أوتيلى هى كالحال بينك وبين
القائد . ويؤلمنى أشد الإيلام أن أرى هذه الفتاة العزيزة فى مدرسة داخلية

تجد نفسها فيها في مركز شديد الإحراج . فبينما ابنتي ، التي خلقت للمشاركة في الدنيا ، تُنَسِّشاً لشتون الدنيا وتتنقن اللغات والتاريخ وبقية العلوم التي تلقها ، كما تتقن الموسيقى والألحان ؛ ولها من التوثب الطبيعي والذاكرة القوية ما يجعلها تنسى كل شيء وتذكر كل شيء معاً ؛ وتتميز من بين لِداتها بما لها من سراوة في الأخلاق ورشاقة في الرقص ، وأناقة يسيرة في الحديث ، حتى إنها ، وهي المولعة بالسيطرة ، قد صارت ملكة في هذا العالم الصغير الذي تحيا به ؛ وبينما ناظرة المعهد تنظر إليها كاللهة صغيرة تنمو بين يديها وستكون مصدر فخار لديها ، موحية بكل ثقافتها بها ، وجاذبة إليها نقراً كبيراً من الفتيات ؛ وبينما الصفحات الأولى من رسائلها وتقريراتها الشهيرة عنها ليست إلا تمجيدات لمواهبها وفضائلها وإشادة بمناقب هذه الطفلة الممتازة ، أستطيع أنا أن أفهمها وأقدرها حقاً — بينما ابنتي على هذا النحو ، أرى على العكس من ذلك تقرير الناظرة عن أوتيلي في ختام رسائلها ينحل دائماً إلى اعتذارات وتأسفات لكون هذه الفتاة ، الجميلة مع هذا ، لا تريد أن تنمو ولا أن تبدى بعضاً من الاستعداد أو شيئاً من الموهبة . والقليل الذي تضيفه ليس لغزاً بالنسبة إليّ ، لأنني أنوسم في هذه الطفلة الرقيقة كل أخلاق أمها وطبعها ، أمها الصديقة والأخت العزيزة التي نشأت معي ، والتي ستصير ابنتها — لا يخالجنى في هذا شك ، — امرأة كاملة ، لو صار في وسمي أن احتفظ بها تحت رقابتي وإرشادي . ولكن لما كان هذا غير داخل في نطاق مشروعنا ، ولما لم يكن في وسع المرء أن يقلب حياته ويغير مجراها إلى حد كبير بأن يضيف إليها كل يوم شيئاً جديداً ، فقد فضلت الامتثال لهذه التوضيحية ؛ بل إنني لأقاوم الألم الذي أشعر به حينما أرى ابنتي ، التي تعلم حق العلم أن أوتيلي المسكينة تعتمد علينا

كل الاعتماد ، تبذخ عليها بمناقبها ، وبهذا تفسد نعمتنا عليها على نحو من الأنحاء . لكن ، مَنْ من الناس قد بلغ من الحكمة حدا ينأى به عن أن يتبجح أحيانا بقسوة بامتيازهِ على الآخرين ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يرتفع إلى مستوى يتحلل فيه من كل تأثير يمثل هذا التبجح بالتفوق والسيادة ؟ إن فضل أوتيل ليزكو ويزداد من هذا الامتحان . ومع هذا فنذا أن انضحت لى حالها البائسة هذه ، سميت لنقلها إلى مكان آخر ؛ وهأنذا فى انتظار إجابة هذا المسمى ، وحينئذ لن أتردد . تلك هى المسألة ، يا صديق العزيز . وها أنت ذا ترى أن كليتنا يحمل نفس الهموم فى قلوبنا المحسنين المخلصين : ألا فلنحملها شركة ، ما دامت لا تستطيع أن يخفف بعضها بعضا . فقال إدوارد مبتسما : نحن مخلوقان غريبان . إننا نُخَيِّل إلى أنفسنا أننا إذا استطعنا أن نُبعد من حضرتنا كلَّ ما يقلقنا ، فإننا نكون قد أدبنا كل شيء . وعلى العموم فنحن قادرون على القيام بتضحيات كبرى ؛ أما أن نقوم بتضحيات جزئية فهذا غالبا ما يكون فوق طاقتنا . وهكذا أيضا كانت أمى . فطالما كنت أحياء إلى جوارها : طفلا ، ثم شابا ، كانت هموم الساعة تشغلها على الدوام . فإذا عدت من رياضة على صهوة جواد متأخرا بعض الوقت ، كانت تتوهم أنه لا بد أن يكون قد وقع لى حادث ؛ وإذا بللنى المطر كانت توقن بأنى سأصاب بالحمى . حتى إذا ما ارتحلت وصرت عنها نائيا بدوت كأنى لا أكاد أُمْتُ إليها بصلة . وتابع البارون حديثه قائلا : إن أمننا النظر تبين لنا أننا نسلك مسلكا غير عادل ولا حكيم حينما ندع هكذا شخصين ذوى خلق نبيل ولهما فى قلوبنا إعزاز ومحبة ، ندعهما فريسة للأحزان والآلام ، لا لشيء إلا لكيما نكون نحن بمأمن من كل خطر . فإن لم يكن هذا هو الأثر ، فأى شيء آخر يمكن

أن يسمى بهذا الاسم ؟ خذى أوتيلى ، ودعى لى الكابتن ، ولفيسر
على بركة الله .

— كان فى وسعنا أن نجازف بهذا ، بهذا أجابت شرلوت فى شىء
من الجدة ، لو كان الخطر يتعلق بنا وحدنا . لكن ، أفقظن أن من السداد
أن نجتمع فى منزلنا بين أوتيلى والكابتن : بين رجل يناهزك فى السن ، فى
هذه السن (ولأصرح فى وجهك بهذا المديح !) التى بصير فيها الإنسان
محبوباً حقاً خليقاً بالحب ، وبين فتاة لها هذه الفتنة ؟

فأجاب إدورد : أعترف لك بأننى لا أعلم كيف تقدرين على أن ترفى
هكذا من قدر أوتيلى . الظاهر أن الفتاة قد ورثت شيئاً من الود الذى
تحضنته أمها . هى حقاً جميلة ، وإلى لأذكر كيف نهى الكابتن
إلى فتنتها ، حينما كنت عائداً منذ سنة فرأيناها معك عند خالتك . هى
حقاً جميلة ، ما فى ذلك من ريب ؟ ولها خصوصاً عيناں جميلتان ؛ لكنى
لا أستطيع أن أقول إنها تركت فى نفسى أقل أثر .

فقالت شرلوت : هذا من ممادحك ، لأننى كنت حاضرة ، وعلى الرغم
من أنها كانت أنصع منى شباباً بكثير ، فإن وجود الصديقة القديمة كان
له من السحر فى عينك ما جعلك تنصرف كل الانصراف عن كل ما شامه
جمالها من تخايل الرجاء . وهذا دأبك ، ولذا يلذلى أن أفضى حياتى وإياك .
لكن شرلوت ، على ما فى لغتها من إخلاص وصدق ، كانت تخفى
شيئاً . ذلك أنها تمدت حينذاك أن تظهر أوتيلى أمام أعين إدورد حين
عودته من أسفاره ، كىما تهى لتييمتها العزيزة زواجاً ممتازاً كهذا ، لأنها
لم تكن تفكر بعد فى إدورد لنفسها . وكانت أيضاً قد دعت الكابتن سراً
إلى لفت نظر صديقه إلى الفتاة ؛ غير أن إدورد ، وقد ظل على حبه القديم

لشرلوت ، لم يتلفت يمنة ولا يسرة ، سعيدا كل السعادة بالشعور بأنه قد صار في مقدوره أخيراً أن يظفر بهذه النعمة التي طالما استشرفت نفسه إليها ، لكن سلسلة من الأحداث قد خَيَّلَتْ إليه أنها حُرِّمَتْ عليه أبداً . وكان الزوجان بسبيل الانحدار إلى القصر خلال المزارع الجديدة ، حينما صعد نحوهما خادم أعلن بالضحك عن مَقْدَمِهِ وقال :

— هلمنا سريعا ، سيداي ! فقد وصل السيد ومُتَلِر على جواده ، وهو الآن في ساحة القصر ، وجعلنا نُهْرَع جميعا إلى ندائه . فكان لا بد من البحث عنكما ، ودعوتكما إلى الحضور إن كانت المسألة عاجلة . فسألناه فأجاب : إذا كانت المسألة عاجلة ؟ أصنع ! أسرع ، أسرع !

فصاح إدورد : يا له من رجل مضحك ! لكن ، ألم يأت في الفرصة المناسبة ، شرلوت ؟

وقال للخادم : عُد سريعا ! أجبه أن المسألة عاجلة ، عاجلة جداً . ولينزل عن صهوة جواده ؛ ولتُسَمِّنَ بهذا الأخير ؛ أما ومُتَلِر فأدخله في القصر ، ولتعدُّوا له الغداء . ونحن قادمان توا . ثم قال لزوجته : لنسلك أقرب طريق ! وسار على الدُّرْب السائر خلال المقبرة ، وهو دَرَبٌ تعود تجنبه . لكن كم كانت دهشته حينما وجد شرلوت تجمل للماطفة حظاً حتى في هذا المكان ! فقد أبقت ما وسمها على القبور القديمة ، واستطاعت أن تنظم كل شيء وتُعيدَه على نحو جمل المقبرة تبدو مقاما بديعا ترتاح لمرآة العيون كما يهواه الخيال .

لقد أبقت على كل شيء حتى أقدم الأحجار ، ورتبتها وفقا لتاريخها ، وأحاطها بالأُطُر أو على الأقل أسندتها إلى عرض السور ؛ وزينت بها قاعدة الكنيسة العليا في بعض المواضع . فاستولت الدهشة على إدورد ، حينما

دخل من الباب الصغير؛ وضغط على يد شرلوت، وفي عينيه عبرة تتألق .
غير أن الضيف الغريب سرعان ما انتشلها من هذا المكان ، إذ لم
يستطع البقاء في القصر ، فأحضر خلال القرية حتى بلغ باب المقبرة الكبير،
ثم توقف وصاح في أصدقائه :

— أنتم لا تسخران بي ، فيما أمّل ؟ إن كان الأمر عاجلا حقا ،
فسأظل هنا حتى الظهر . ألا لا تُبَطِّئَا بي ! فإنّ لدى الكثير الذي يجب
على فعله اليوم .

— ما دمت قد مكنت نفسك مشقة المجيء إلى هنا من بعيد ، بهذا أجابه
إدورد ، فاركب إلى هنا : فإنّا نلتقى هنا في مكان رهيب ، وتأمل كيف
زيفت شرلوت هذا المرقد الحزين !

فصاح الراكب : لن أدخل هناك راكبا ولا راجلا ، ولا في مركبة .
إن هؤلاء يرقدون في سلام ؛ وليس لدى ما اشتوره معهم . وكفى بالمرء داءً
أن يُحمّل إلى هنا يوما وقدماء إلى أمام . ماذا إذن ، الأمر جيد ؟
— نعم ، هكذا قالت شرلوت ؛ جد للغاية . هذه هي المرة الأولى التي
يشعر فيها الزوجان الجديدان بأنهما في مأزق لا يستطيعان الخروج منه .
فأجاب : لا يبدو هذا على مُحَيّا كما ؛ ومع هذا فإنّ أود أن أصدقته .
فإن دعوتاني في المستقبل ، فسأدعكما وشأنكما . أصرعا باقتفاء أثرى ؛ إن
في هذا التوقف استجماما لجوادي .

وبعد قليل كان ثالوثهم مجتمعاً في البهو . وأحضر الغداء . فقص مثله
حديث أعماله ومشروعاته في ذلك اليوم . لقد كان هذا الرجل الغريب
الأنوار من قبل قسيسا ، وبفضل نشاطه الدائم برّز في مهنته هذه ، من
حيث قدرته على حسم أسباب الخلاف في جميع الخصومات الأسرية أو بين

الجيران ؟ وكان يقوم بممله هذا في البدء بين الخواص ، ثم من بعد بين الأسر الكبيرة وأصحاب الثراء الواسع . وطوال المدة التي كان يمارس فيها مهنته ، لم يحدث أى طلاق ، ولم تشغل محاكم الإقليم بأى نزاع حاد ، ولا بأية قضية رفعها أحد أبناء أبروشيته . لكنه سرعان ما أدرك ضرورة العلم بالقانون لديه ؛ فقصّر نفسه على دراسته وأخلّى له ذرعاً ، وسرعان ما أصبح محامياً أليماً . ثم اتسعت دائرة نشاطه إلى حد عجيب ، حتى كان على وشك أن يُدعى إلى العاصمة كيما يتم من عمل ما بدأه من أسفل ، حينما ظفر بمكسب ضخم في اليانصيب ؛ فاشتري قطعة أرض قليلة المساحة ، أجراها وجعل منها مركز نشاطه ، مصمماً كل التصميم أو بالحرى متعباً ديدنه القديم ، وهو ألا يبلغ بيتاً ليست فيه مشكلة تحتاج إلى حل ، أو نزاع يراد حسمه . حتى إن المؤمنين بالخرافات من الناس ممن يحفلون بمعاني أسماء الأعلام ليزعمون أن اسمه ، متلر (أى : الوسيط) هو الذى قدر له أن يتخذ هذا المسلك الغريب وهذه المهمة العجيبة .

فلما أحضرت الفاكهة ، توسل متلر إلى مُضيفيه بكل جد ألا يدعاه ينتظر طويلاً ما يريدان الإفضاء به إليه ، لأنه لا بد مغادرهما بعد تناول القهوة . فاسترسل الزوجان في اعترافهما بإطباب . لكنه لم يكذبين موضوع نزاعهما حتى نهض من مقعده مغضباً وأهرع إلى النافذة حيث أمر بإسراج جواده . ثم صاح فيهما :

— إما أنكم لا تعرفوننى ولا تفهمون طبيعتى ، أو أنتم تسلكون سبيلاً ماكرة . أهذه مجلبة للنزاع ؟ وهل أنتم فى حاجة إلى أى عون ؟ أنحسبون أنى خلقت لإسداء النصائح ؟ لهذه أحمق مهنة يتخذها الإنسان ، ألا فليُنصح كل امرئ نفسه ، وليفعل ما ليس منه بد . فإن سارت الأمور

على ما يهوى ، فليمتدح حكمته وليُطَرِّجْ جده ؛ وإن أخفق ، فما أنذا على
استعداد . من يُرِدْ الخلاص من شر يعرف دائماً ماذا يريد ؛ ومن يرد
امتلاك أكثر مما وسعه يَسِرْ في ضلال ... نعم ، نعم ، ابتسما ما وسعكما
الابتسام ! ... إن مثله مثل من يلعب لعبة عصب العينين ، فلعله يمسك
بشيء ، لكن ما هو ؟ أعمالاً ما يبدو لكما : فهذا سواء . ادعوا صديقيكما
للسكنى معكما ، اودعوها بميدن : فهذا سيان . لقد رأيت أحكم العزائم
تفضى إلى أسوأ النتائج ، كما رأيت أسوأها تكلل بالنجاح . فلا تصدعاً
رأسيكما : إذا انتهى قراركم ، أيّاً ما كان هذا القرار ، إلى نتائج سيئة ،
فلا تحفلا كثيراً : بل إرسلا في طلي ، وأنا أخرجكما من المأزق . ولا زلت
لكم خادماً حتى ذلك الحين .

وما قال هذه الكلمات حتى خرج ووثب على صهوة جواده ، دون
انتظار للقهوة .

فقال شرلوت : « ها أنت ذا ترى كيف أن أى ثالث لا يمكن أن يفيد
كثيراً ، إذا كان اثنان وثيقا الارتباط لا يستطيعان أن يتفقا تمام الاتفاق .
وها نحن أولاء قد صرنا من أمرنا على عُقْمَةٍ تزيد عما كانت من قبل .
لقد كان الزوجان سيظلان على هذا الالتياث لولا أن وصلت رسالة من
الكاتب رداً على رسالة إدورد الأخيرة . وفيها أعلن أنه قرر قبول منصب
من المناصب التي عرضت عليه ، بالرغم من كونه لا يوافقه : إذ سيضطره
إلى المشاركة في ملال أناس آتراء نبلاء ، قصدوا منه أن يكون لهم سميلاً
يسرّي عنهم غشاوة السامة .

وبنظرة واحدة استنفذ إدورد الموقف كله وصوّره في أحد تصوير .

وصاح :

— أَدْعُ صديقنا في مثل هذا المركز ؟ لست قاسية إلى هذا الحد
يا شرلوت !

فأجبت : لعل صديقنا الغريب ، متلر ، على حق . فكل هذه المسائل
ضربات حظ ، وليس في استطاعة أحد أن يتنبأ بالنتائج . وهذه الصلات
الجديدة يمكن أن تكون غنية بالنعيم أو مليئة بالشقاء ، دون أن يكون
في وسعنا أن نمزو هذا إلى فضل لنا أو إلى خطأ ارتكبناه وإثم اقترفناه .
ولم يعد لي من القوة ما يسمح لي بالاستمرار في معارضةك . فلنحاول إذاً .
ورجائي الوحيد إليك هو أن تكون محاولة قصيرة المدى . ولتسمح لي بأن
أبدل للكاتبين من السمي أكثر مما فعلت حتى الآن ؛ وأن انتفع بما لي من
نفوذ وصلات شخصية ، كيما أحصل له على مركز يهيء له من أمره رَشَداً .
فقضاها إدورد حق الشكر على ما أولته من جميل . وأسرع ، مثلوج
الصدر مسرور الفؤاد ، يكتب إلى صديقه عما اعترمه . وشرلوت بدورها
قد أضافت حاشية حَبْرَتها بكلمات الاستحسان ، ضامّة رجاءها إلى رجاء
زوجها . لقد كتبت بقلم سيال فيه رقة ورشاقة وإحسان ، لكن في سرعة
لم تألفها ، ثم فعلت ما لم تفعله من قبل مطلقاً : أسقطت نقطة من الحِداد
على الورق ، مما أثار خيفتها ، ولما حاولت إزالتها لم تفعل إلا أن زادت سعة
على سعة . فازحها إدورد على هذا ، وأضاف حاشية ثانية ، لأن الفراغ كان
لا يزال موفوراً ، ذكر فيها أن هذه العلامة لا بد منبئة الصديق عن تلهفهما
إلى رؤياه ، وعن وجوب إسرعه في السفر وفقاً لسرعهما في كتابة
هذه الرسالة إليه !

مضى الرسول . ولم يجد إدورد شاهداً على شكرانه خيراً من أن يلج في
الإهابة بشرلوت أن تدعو أوتيل من مدرستها الداخلية كيما تقيم إلى جوارها .

فطلبت شرلوت إليه مهلة واستطاعت في ذلك المساء أن تحمله على عزف بعض المقطوعات الموسيقية . وهي قد كانت تحسن التوقيع على البيان بدرجة أعلى مما كان إدورد ينفخ بها في الناي ، لأنه على الرغم مما بذل من جهد في فترات مختلفة ، فإنه لم يتح له من الصبر والثابرة الضرورية ما يسمح له بإجادة هذه الملكة . فقام بدوره بطريقة غير مطردة في الإجادة : فبعض المواضع كان فيه بارعاً ، وإن كان بسرعة أكثر مما يجب ، وفي مواضع أخرى كان يبطل الميزان ، لأنه لم يكن في مقدوره أن يعزفها بانطلاق ، وكان من العسير على أى شخص آخر أن يصاحبه في ثنائى حتى النهاية . لكن شرلوت كانت تستطيع مسيرته : فكانت تبطل حيناً ، ثم تسرع ، وبهذا كانت تؤدي مهمة مزدوجة : مهمة رئيس ممتاز لفرقة موسيقية ، ومهمة زوج فطنة ، فاستطاعت الاحتفاظ بالميزان في المجموع ، وإن لم يراع دائماً في كل فقرة .

الفصل الثالث

وافى الكابتن . وكان قد أرسل قبل مجيئه كتاباً حكياً أشاع الطمأنينة كلها في رُوع شرلوت . فقد قدر نفسه فيه بكل وضوح ، وعبر بدقة عن موقفه وموقف صديقيه ، مما أنشأ أفقاً سعيداً باسمه .

وجرى الحديث في الساعات الأولى لوصوله حاراً يكاد يشيع الدوار ، كما هي الحال عادة بين أصدقاء ظلوا وقتاً طويلاً لم يَرَ بعضهم بعضاً . وقبيل المساء هيأت شرلوت نزهة إلى المنشئات الجديدة . فوجد الكابتن منطقة ساحرة ، وتلفت إلى كل جمال كشفت عنه المحارف الجديدة وبصّر به .

ولقد كانت له عين نافذة النظرة ومع هذا سهولة الإرضاء ؛ وبالرغم من أنه كان يعرف حقاً ما يمكن تطلبه ، فإنه لم يفعل ما يفعله الكثيرون من إثارة امتعاض هؤلاء الذين ارتاضوا به في عقارهم ، بتطلب ما لم تكن الظروف تسمح به ، أو بذكر أشياء أكبر كلاً رآها في أماكن أخرى .

وما بلغوا كوخ الطحلب حتى وجدوه موشى ، على أجل نحو وأبهاء ، بأزهار صناعية حقاً ، ونباتات خضر ، تماقها باقات جميلة من القمح ومن أزهار الحقول والبقول ، مما ولد منظرًا يَم عن سمو ذوق مَنْ هيأت هذا التزيين .
« على الرغم من كون زوجي لا يحب الاحتفال بعيد ميلاده أو عيد تسميته ، هكذا قالت شرلوت ، فإنه سيفقر لي إن أنا كرست هذه الأكاليل المتواضعة للعيد الثلاثي لهذا اليوم .

— العيد الثلاثي ؟ هكذا تساءل إدورد .

— فأجابت شرلوت : بلا ريب ! فوصول صديقنا عيد بالنسبة إلينا ؛ ثم إنه يظهر أنكما غير متنبهين إلى أن هذا اليوم عيدكما في التسمية . أو لا يسمى كل منكما أوتو ؟ »

فتضامح الصديقان فوق المنضدة الصغيرة .

« إنك لتذكرينني ، هكذا قال إدورد ، بِسِمة من سمات الصداقة في حدثائى عمرى . فقد كان هذا اسم كليتنا إبان الطفولة ؛ لكن لما أدخلنا مدرسة داخلية ، حدث عن هذا كثير من الخلط ، فتخلت لك عن هذا الاسم الموزن الجميل .

— ولم تكن في هذا كثير السخاء ، بهذا أجاب الكاتبين ؛ لأننى أذكر جيداً أن اسم إدورد كان عندك ألد مسمماً ؛ فمن الحق أن لهذا الاسم رنيناً بالغ العذوبة ، حينما ينطق به فم جميل .

وكان ثلاثهم يجلسون حول المائدة الصغيرة نفسها التي من حولها كانت شرلوت من قبل تعارض أشد المعارضة في مجيء ضيفهما . ولم يشأ إدورد ، وسط هذا السرور السابغ ، أن يعيد ذكر هذه اللحظات إلى زوجه ؛ بيد أنه لم يتمالك أن قال لها : « وثمت مكان أيضا لشخص رابع » .

وفي تلك اللحظة كانت أصوات أبواب العيد تتردد أصدائها في القصر ، وكأنها تؤكد هذه العواطف الطيبة والنوايا الجميلة التي يكنها هؤلاء الصّحاب وهم بالفراغ العذب ينعمون . فأقبلوا على هذه الأصوات بأسماعهم دون أن ينطقوا بنبرة ، وكلٌّ منطوٍ في نفسه جامع لشتات أفكاره ، شاعر أقوى شعور بسعادة كبرى في هذا الاجتماع الجميل .

وقطع إدورد هذا الصمت أول من قطع ، بأن نهض وخرج من الكوخ ، قائلاً لشرلوت : « لرافق صديقنا إلى قبة الرابية ، كيلا يقع في ظنه أن هذا الوادي الضيق هو كل تراثنا ومقامنا . فهناك في الأعلى تكون النظرة أوسع مدى ، والتنفس أكثر انطلاقا » .

فقالت شرلوت : « يجب علينا إذاً في هذه المرة أيضا أن نصعد في الشعب العتيق الذي وإن كان شاقاً بعض المشقة فإني آمل أن تعيننا الدرجات والمصاعد التي عملناها فيه على تسهيل صعودنا إلى القمة » .

عسلوا الصخور واخترقوا الأشواك والطحائل حتى بلغوا القمة العليا التي لم تكن سهلاً منبسطة ، بل سلسلة من الآكام الخصبية . ومن خلفها غابت القرية وغار القصر . وفي الأعماق البعيدة كانت الغيران الواسعة تتراعى للعيون ؛ وعبرها ترامت الروابي ذات الأيك والغاب تحجبها تلك الغيران ؛ وفي النهاية تبدى صخور وعرة عاتية كانت حوائلها العمودية إطاراً أخيراً لمرآة الماء ، تعكس على صفحاته صورها الرائعة . وفي الأفاصي وادي كان

يرى منه نهر واسع يجري نحو النيران ، وتكاد تختفي فيه طاحونة تقبدي بما حولها كمُستراح فتان . وفي هذه الدائرة التي كان يشملها النظر توالى صفوف من الأودية والروابي ، والغابات والحمائل التي كانت نَضرتها الناشئة تَمِدُّ بأبهى المناظر . وكانت زُمر من الأشجار المنعزلة تحول دون النظر في بعض المواضع . وعند أقدام الناظرين تجلت أدغال من الصُفصاف والدُّلب في وضوح بارز ، على حفاقي غدير الوسط . وقد كانت هذه الأشجار في ريعان نموها ، قوية سليمة مُشرعة الرأس ، بأسطة الأغصان . فعنى إدورد بلفت نظر صديقه إليها ، قائلاً :

— لقد غرستها بنفسى إبان شبابه . وكانت آنذاك فسائل غضة ، استنقذتها من والدى حينما انتزعها في معمعان الصيف وهو يعمل في توسيع حديقة القصر . وليس من شك في أنها ستستمر في عرقانها الجليل ، حتى هذا العام ، بإرسال غصون جديدة .

وعاد المراتضون مغمورين بالرضا والحبور . ثم عُيِّنت للكاتبين حجرة حسنة فسيحة تقوم في الجناح الأيمن من القصر ، ما لبث أن نقل إليها كتبه وأوراقه وأدواته ، كما يوالى الحياة النشيطة التي اعتادها . غير أن إدورد لم يدع له في الأيام الأولى فسحة للراحة : فقد كان يأخذه معه في كل مكان ، حيناً سائراً وحيناً راكباً جواداً ، وجاس معه خلال ضيعته وهذه المنطقة . ثم إنه أفضى إليه برغبته التي كان يكتتمها من زمن طويل في أن يزداد معرفة بضياعه وأن يستثمرها على خير وجه مستطاع .

فأجاب الكاتب : أول ما ينبغي عمله هو أن أرفع مستوى الضياع بواسطة البوصلة . وهذه عملية ميسورة لذيدة ؛ وإذ لم تكن دقيقة كل الدقة ، فإنها مع هذا مفيدة كافية في البداية . وفي الوسع القيام بها بغير

كثير عناء ، ومن المؤكد إنجازها . فإن كنت تفكر في القيام بعملية مساحة أكثر دقة ، ففي مقدورنا أن نفعل هذا أيضا .

وقد كان الكابتن ماهراً كل المهارة في هذا النوع من رفع مستوى الأرض . وهو قد استحضر الأدوات اللازمة وما لبث أن شرع في العمل تَوَّلاً . فعلم إدورد بعضاً من القناصين والفلاحين الذين سيقومون بمعاونته . والزم من قد كان موالياً ؛ فكان الكابتن يرسم في الصباح والمساء ، وسرعان ما نظف الرسم ولونت أجزاؤه . ورأى إدورد بكل وضوح ضياعه تتبدى على الورق كأنها خلقت من جديد ، حتى خيل إليه أنه لم يبدأ يعرفها إلا الساعة ، وأنها قد صارت حقاً ملكاً خالصاً له .

فدعا هذا الصديقين إلى التحدث عن تلك الضياع ، وعن الأعمال التي يمكن أن تنجز بمعونة هذه النظرة الكلية خيراً من محاولة التأثير في الطبيعة وفقاً لخواطر عابرة ونزوات عارضة .

وهنا قال إدورد : « هذا هو ما ينبغي أن ترشد زوجتي إليه » . فأجابه الكابتن : « لا تحاول ذلك » ، راغباً في عدم مصادمة أفكار الآخرين ، لأن التجربة علمته أن نظرات الناس من الاختلاف بحيث لا تستطيع أحكام البراهين أن تجمعها على رأى واحد أبداً . وصاح به ثانية : « لا تحاول ! فقد يعجبها هذا كثيراً . إن المهم لديها ، كما هو لدى من يتدخلون في مثل هذه الأعمال كهواة ، أن يُشَفَّلوا بشيء ، لا أن يفعلوا شيئاً حقاً . إن المرء ليتحسس مع الطبيعة ؛ فيكون له ميل إلى هذا المركز الصغير أو ذاك ؛ أو لا يخاطر بإبعاد هذه أو تلك من العقبات ؛ أو لا يكون لديه من الجرأة ما يكفي للتضحية بشيء ؛ أو لا يكون في وسعه تصور النتيجة مقدما ، فيحاول مرة بعد مرة ، فتارة ينجح ، وطوراً يُخَفِّق . . . فيعدل ، ولعله

أن يعدل ما كان يجب أن يحافظ عليه . . . ثم يُبق على ما كان ينبغي تعديله ، ولا يبقى في النهاية إلا آثار السَّرمَة والإصلاح ، مما يلذ ويسر ؛ وإن كان لا يرضى ويُقنع » .

فقال إدورد : « اعترف بهذا صراحة : أنك لست راضيا عن أعمالها هاتيك » .

فأجاب : « لو كان التنفيذ قد جاء وفقا للفكرة ، وهى جيدة ، لم يك فى ذاك ذام . لقد أجهدت نفسها فى شق الصخور ، وإنها لتُجهد كل من تقوده إليها : إذ لا يستطيع المرء أن يسير إلى جوار أخيه ولا وراءه أو أمامه بحرية ، ذلك لأن إيقاع الخطئ يُقطع باستمرار . وكم غير هذا من معائب ؟ » فقال إدورد : « وهل كان من اليسور العمل على نحو آخر ؟ »

— من السهل جدا : فلم يكن على زوجتك إلا أن تشق زاوية فى الصخر لا تكاد تبدو ، لأنها ستكون مركبة من أجزاء صغيرة ؛ فهذا كانت تستطيع الحصول على منحني للصعود رشيق ، وفى الآن نفسه تظفر بأحجار وفيرة ، لبناء جدران تكون كقوائم تستند عليها المواضع التى يكون فيها الطريق ضيقا أو رديئا . ولكن ليكن هذا حديثا بيننا وحدنا ؛ وإلا فسيمروها القلق ويمتورها السخط . وعلينا أن نبقي على ما تم فعله . فإذا شئنا أن نبذل فيه من بعد مالنا وجهودنا ، فلا تزال نمت — من كوخ الطحلب حتى القمة ، وعلى الرابية — أعمال كثيرة نحتاج إلى الإنجاز ، ومجال واسع للتزيق والتجميل .

وإذا كان الصديقان قد وجدا فى الحاضر ما يشغلهما ، فقد هيا لهم الماضى وفرة من الذكريات الحية العذبة تمودت شرلوت أن تشارك فيها . واقترحوا فيها بينهم أن يبدأوا فى تحرير يوميات السفر بمجرد انتهاء الأعمال

العاجلة ، مُحْصِنِينَ ، عن هذا الطريق ، ذكريات الماضي العتيق .
وفضلاً عن هذا ، فإن دواعي الحديث بين إدورد وشرلوت وحدهما
قد قل مقدارها ، خصوصاً منذ أن صار ينزع إلى انتقاد الأعمال العاجلة التي
قامت بها في البستان ، وهو انتقاد كان في نظره صائباً . وهرقد ظل مدة طويلة
صامتاً لا يدلي إليها بملاحظات الكابتن ، ولكنه حينما رأى زوجته تأمر
ببناء مصاعد صغيرة وشعاباً ضيقة للصعود من الكوخ إلى الأعلى في شيء
من الإرهاق والجهد ، لم يستطع أن يستمر في صمته ، وبعد شيء من التقديم ،
أفضى إليها بأفكاره الجديدة .

ارتعدت شرلوت . إذ سرعان ما تبينت ، وهي الفطنة المتقدمة الذكاء ،
أنهما على صواب فيما يرتأيان . غير أن ما تم عمله لا يتفق مع التصميمات
الجديدة ؛ وفضلاً عن هذا فقد قُضى الأمر ووجدت ما فعلته حسناً ؛ بل
إن كل ما كان موضوعاً للوم كان في نظرها مدعاة للرضا من كل نواحيه .
فلم تنشأ الاقتناع ؛ بل راحت تدافع عن ضيعتها الصغيرة ؛ وأخذت على
الرجال أنهم ينزعون دائماً إلى ما هو ضخم ، ويريدون أن يصنعوا من المزاج
والمهارة عملاً جدياً ، دون أن يقدرُوا النفقات التي يقتضيها دائماً كل تصميم
واسع . وكان يغالبها التأثير والتعثر والسخط ؛ فهي لم تكن تقدر أن تتخلى
عن أفكارها القديمة ، كما لم يكن في وسعها أن ترفض كل الرفض الآراء
الجديدة . ولكنها ، وهي الماضية العزيمة بطبعها ، وقفت في الحال أعمالها ،
وروت في الأمر وانتظرت حتى تتضح أفكارها .

وبينما كانت بمعزل عن هذا الشغل اللذيذ ، كان الصديقان ، اللذان
ازدادا كل يوم ترافؤاً واتفاقاً ، يتابعان أعمالهما ويوجهان عناية خاصة إلى
حدائق الزهرة وإلى بيوت تربية النبات ؛ وبين الحين والحين ينصرفان إلى

هو إياهم المهددة : من قنص ومقايضة خيول أو شرائها ، وتمريضها على السروج والعربة ؛ مما جعل شرلوت تزداد بوحدها شعورا . فمكفت على الترسل (حتى من أجل فائدة الكابتن) بحماسة متجددة ؛ ومع هذا كانت تشعر بساعات فراغ طوال جعلت التقارير التي تتلقاها من المدرسة الداخلية تزداد في نظرها لذة وتشويقا .

ومن بينها رسالة متصلة بعثت بها الناظرة التي توسعت ، كما هو دأبها ، في ذكر تقدم لوسيان في نبذة يمازجها السرور ؛ وكانت الرسالة متلوّة بحاشية صغيرة تتبعها مذكرة حررها أحد المعلمين بالمدرسة . وها نحن أولاء نروى كليهما :

حاشية الناظرة

أما فيما يتصل بأوتيلي ، أي سيدتي البارونة ، فليس لدى ما أقوله غير ما ذكرته في تقريراتي السالفة . فما يسمنى أن أغليظ عليها اللائمة ، كما أنى لا قبيل لي بأن أرضى عنها . فهي كماداتها متواضعة رقيقة الحاشية للآخرين ؛ لكن هذا التحفظ وتلك الشمائل الرسمية التي تراءى منها لا تبعث الرضا في نفسى . ومنذ قليل أرسلت إليها ، أي سيدتى ، نقوداً وأنواعاً مختلفة من الثياب ؛ لكنها لم تمسّس النقود ، والثياب لا تزال كما هي لم تستعملها . وهى حريصة كل الحرص على ترتيب متاعها وتنظيفه ، وعلى هذا النحو وحده يبدو أنها تغير ملابسها . كما لا يسمنى أيضا أن أقرها على إفراط قناعتها : فليس على مائدتنا شيء يزيد عن الحاجة . لكن لا شيء أبعت إلى السرور في نفسى من رؤية الأولاد يأكلون بشهية أطعمة صحية حلوة المذاق . إذ ينبغى الفراغ من كل ما يقدم من طعام لأنه إنما

يُقدِّم عن فطنة في الاختيار وحسن في الخدمة . ومع هذا كله فلم أستطع إقناع أوتيلي وإغراءها به . ويسرها دائماً أن تفتقد خدمة تؤديها ، وتُغفّر تسدها (إذا أهمل الخدمات في شيء) ، لا شيء إلا لتتخلص من تداول صحفة أو فاكهة . وجدير بي ، يا سيدتي ، أن أضيف ملاحظة أخرى تنبهت إليها حديثاً ، هي أنها تشعر أحياناً بألم في الجانب الأيسر من رأسها ، ألم وإن يكن عابراً ، فإنه شديد حرى بالعناية . وهذا كل ما لدى أن أقوله عن هذه الطفلة اللطيفة الجميلة .

مذكرة المعلم

إن ناظرنا الممتازة تسمح لي كثيراً بقراءة الرسائل التي توجه فيها إلى الآباء وأولياء الأمر ملاحظات خاصة بالتلاميذ . وإنّي لأقرأ بمزيد الانتباه وفائق السرور ما يرسل إليك منها ، أي سيدتي البارونة . ذلك أنه إلى جانب ما لدينا من دواعٍ لتهنئتك على أن تكون لك بنت تجمع أروع الخصال التي تهيب للأنسان في الدنيا مركزاً كريماً ، فإنّي مع هذا لا أقلّ تقديرًا لك بأن يكون من حظك أن تلبي فتاة خلقت كما تكون مبعثاً للسرور والرضا في محيطها ، بالنسبة إلى غيرها ، ثم بالنسبة إلى نفسها كذلك . وإن أوتيلي لهي الوحيدة تقريباً من بين تلميذاتنا التي لا أستطيع أن أشارك ناظرنا المبجلة رأيها فيها . فأنا أفهم جيد الفهم أن هذه السيدة المليئة بالنشاط ترغب في أن ترى ثمار عنايتها واضحة أمامها ؛ غير أن ثمت ثماراً تظل مستترة ، وهي الثمار الحقيقية الممتازة ، ثم لا تلبث ، إن عاجلاً أو آجلاً ، أن تظفر بنماء رائع . وتلك هي من دون شك حال ابنتك اليتيمة . فنذ العهد الذي وكل إليّ فيه تعليمها ، وأنا لا أنفك أراها

تطرد في التقدم ، الذي وإن كان بطيئاً فإنه لا يتراجع أبداً . وإذا كان من الضروري أن يبدأ الإنسان مع الطفل منذ البداية ، فما أصدق هذا بالفلسفة إليها ! إنها لا تفهم من الأشياء ما لا تستنتج مباشرة مما سبق ؛ فتظل مضطربة ، حائرة كالغبية ، أمام فكرة سهلة الإدراك ، إذا كانت هذه الفكرة غير مرتبطة بشيء ؛ لكن إذا كشف المرء عن الحلقات المتوسطة ودلّها عليها ، فإنها تفهم أشد الأشياء صعوبة وعسرا .

وخضوعها لهذا التقدم المعتدل يجعلها تتخلف عن زميلاتها اللاتي يسرن بخطى واسعة ويتقدمن باستمرار ، بما لديهن من مواهب مختلفة عن مواهبها ؛ فإنهن يدركن كل شيء ويحفظنه يُسر ، حتى ما هو غير مُحكم ، ويحسنّ الانتفاع به . لهذا لا تفيد مطلقاً ولا تنتفع أبداً من التعليم السريع ، كما هي الحال في بعض الدروس التي يلقيا أساتذة أكفاء ، وإن كانوا مع هذا مسرعين متلهفين . ولطالما علت الشكاوى من سوء خطها ، ومن عجّزها عن فهم قواعد النحو : ففحصت هذه الشكاوى عن قرب . حقاً ، إن كتابتها بطيئة تعوزها الرونة ؛ لكنها مع هذا ليست مُثَبِّجة ولا مُعْجَمجة . وما لفتته إياها شيئاً فشيئاً من اللغة الفرنسية — التي لا أحسنها مع ذلك كثيراً — قد وعته بسهولة . ومن الغريب أنها كثيرة المحفوظ جيدة المعلوم ؛ لكنها حينما تُسأل يُرتجّ عليها وتبدو كأنها لا تعرف شيئاً .

فإن سمحت لي بأن أختم كلامي بملاحظة عامة ، فإني أُجرؤ على القول بأنها تتعلم ، لا كمن يرمى إلى التعليم فحسب ، لكن كمن يريد تعليم غيره ؛ لا كتلميذة ، بل كملكة في المستقبل . ولعله قد يبدو لك غريباً ، سيدتي البارونة ، أن لا أجد ، وأنا المعلم ، شيئاً أُطري به إنساناً خيراً من أن أساويه بنفسى .

وإن نظراتك الثاقبة ، ومعرفتك العميقة بشئون الحياة والناس ، ستختار ما عسى أن يكون حسناً في أقوالى المتواضعة المليئة بأطيب النوايا . وستقتنعين بأنه فى الوسع أن يأمل المرء من هذه البنت خيراً كثيراً . وختاماً أتقدم إليك ، يا سيدتى ، بأخلص آيات الولاء ، سائلاً منك الإذن لى بالكتابة إليك حينما أجد فى مقدورى أن أرسل إليك شيئاً يبعث إلى الرضا والتشويق .

لشدّ ما سرّرت هذه المذكرة نفسَ شلوت ! فقد اتفق مضمونها كل الاتفاق مع رأيها فى أوتيلى . لكنها لم تتمالك نفسها من الابتسام ، إذ رأت عطف المعلم يبدو أرق من ذلك العطف الذى تثيره عادةً مواهب تلميذة . غير أنها ، بما لها من طريقة فى التفكير خاصة ، رزينة متحررة من الوسوس ، لم تستوحش من هذه الناحية ، ولم يخامرها من هذه العلاقات ظن ولا ريب ، كما هو شأن كثير من العلاقات ؛ بل زادت قدر هذه العناية التى يوجهها هذا الرجل العاقل نحو أوتيلى ، لأنها تعاملت كثيراً من تجارب الحياة ما هنالك من قيمة كبرى لكل عطف صادق فى عالم ساد فيه عدم الاكتراث وفقدان التعاطف .

الفصل الرابع

تم انجاز التصميم الطبوغرافى للضيعة وما حولها فى وقت قصير . وقد عمل هذا التصميم على مقياس كبير ، وأضفت عليه الخطوط والألوان شيئاً من البروز والوضوح ، وازداد دقة بواسطة بعض عمليات حسب المثلثات التى أجراها الكابتن . ولقد كان من المسير الظفر بشخص أحرص على

السهر من هذا الرجل الثابر الذى كان يجمل يومه مخصصاً كله لعمل الساعة : ولهذا كان يتم جزء من العمل كل مساء .

قال لصديقه : « لننتقل إلى التالى : إلى وصف الأرض التى يجب أن تنهيا لها مواد كافية ؛ وسيفيد هذا الوصف فى أن يكون أساساً لشروعات الإيجار ولنافع أخرى . لكن لتتخذ مبدأ ثابتاً لا يتغير : افصل الأعمال عن الحياة . فإن الأعمال تحتاج إلى الجد والصرامة ، بينما الحياة تريد الهوى والنزاهة ؛ الأعمال تنشد الاستمرار والانتظام ، أما الحياة فكثيراً ما تتطلب الانقطاع والتناقض ، مما يؤد أيضاً نوعاً من السحر والإغراء . وكلما ازدادت دقة فى الأعمال ، استطعت الاستمتاع بالحرية فى الحياة ؛ أما إذا خلطت ، فالحرية تذهب بالدقة وتقضى عليها » .

شمر إدورد بما فى هذه النصائح من لوم رشيق . أجل ، إنه لم يكن غير منظم ، غير أنه لم يكن فى استطاعته تصنيف أوراقه وترتيبها ؛ ولم يكن يميز بين ما يتوقف على الغير وما لا يتوقف إلا على نفسه ؛ كما لم يفرق تفرقة كافية بين الأعمال والأشغال وبين الملامى والمسرات . لكن هذا كله قد صار له اليوم ميسوراً ، الآن وقد قام عنه صديق بأداء هذا الواجب ، صديق يعتبر صورة أخرى منه ، قام بعملية الفصل هذه التى لا قبل للإنسان دائماً القيام بها لو نُترك وحده .

لهذا وضعا فى جناح القصر حيث يقم الكابتن مكتبا للأعمال الجارية ، ومحفوظات للأعمال الماضية ؛ واستخرجا من مستودعات مختلفة : من غرف وخزائن ، الوثائق والأوراق والسفاحج من كل الأنواع ، ووضع هذا الخليط كله فى أماكن خاصة بنظام ملائم : فجعلت لكل شئ بطاقة ووضع فى خانة منفصلة . وما كانا يرغبان فيه وجداه أكل مما كان يظن ، واستعان

الصديقان خير العون بكتاب عجوز ظل طوال النهار وشطراً من الليل لا يفارق قطره ، بمد أن كان إدورد غير راضٍ عنه حتى ذلك الحين . حتى قال لصديقه : « إني لم أعد أتعرفه ؛ وإني لمعجب بما هو عليه من نشاط وبما يسديه من منفعة لنا » .

فأجاب الكاتب : « ذلك أننا لا نعرض عليه أى عمل جديد قبل أن يكون قد أتم على هواه العمل الذى يشتغل به . فملى هذا النحو تراه ينجز الكثير . أما إذا أُرهِقَ بعمل آخر ، فإنه لن يكون حينئذ مفيداً » .
وكان الصديقان ، بعد أن يمضيا النهار على هذا النحو ، يختلفان إلى شملوت كل مساء . فإذا لم يكن فى زيارتها أحد من الجيران — وهذا كان يحدث كثيراً — كان الحديث ، أو القراءة ، يدور عادة حول المسائل التى تزيد من رفاهية المجتمع المدنى وسعادته ومنافعه .

وشملوت بدورها ، وهى التى تعددت الانتفاع بوقتها ، لما رأت زوجها راضياً ، شعرت هى الأخرى بحماسة جديدة تشيع فى نفسها . وكثير من المنشآت المنزلية ، التى كانت تصبو إلى إقامتها منذ زمان طويل دون أن تظفر بتحقيق هذه الرغبة ، قد استطاع نشاط الكاتب أن ينظمها ويهيئها . فصيدلية المنزل ، التى لم تكن تشتمل حتى ذلك الحين إلا على مقدار من الأدوية قليل ، قد زودت بالكثير ؛ وبمض من الكتب السهلة والمحادثات الهينة هيات شملوت لإظهار إحسانها النشط أكثر مما كانت تفعل وأكبر تأثيراً من قبل .

ولما كان الحديث يمرّج على الحوادث ، المعتادة وإن فاجأت مراراً ، فقد أفكروا فيما يجب عمله فى هذه الأحوال ، ولذا أعدوا كل ما هو ضرورى لإنقاذ الفرق وإسعافهم ، خصوصاً أن كثرة القُدران والياه والأجهزة

المائية في هذه المنطقة قد جعل الحوادث من هذا النوع متعددة . وشغل هذا الموضوعُ الكاتبين طويلاً . وأطلق إدورد هذه الملاحظة وهي أن حادثاً مماثلاً قد كان له أكبر الخطر في حياة صديقه على نحوٍ يستنفد كل غرابة . لكن لما اعتمد بالصمت وكأنه يريد طرد ذكرى حزينة ، التزم إدورد هو الآخر الصمت ؛ وشرلوت ، وقد كانت تعرف أيضاً حقيقة هذه المسألة ، حوّلت مجرى الحديث .

وذات مساء قال الكاتبين : « كل هذه الاحتياطات جذيرة بالإطراء ؛ إنما الذي يعوزنا دائماً هو الرجل الماهر الذي يستطيع الانتفاع بهذا كله . غير أن في وسمى اقتراح جراح عسكري من معارفى ، يمكن الحصول عليه بشروط معتدلة ، وهو رجل ممتاز في فنه ، أسدى إلى خدمات جُلّى في علاج أمراض داخلية عنيفة ، لا يستطيع أن يؤدي مثلها طيب مشهور ؛ وإن أحوج ما يحتاج إليه في الريف هو الإسماع السريع » . وسرعان ما استدعى هذا الرجل ، واغتبط الزوجان للظفر بفرصة لاستخدام بعض المال في مسائل ضرورية ، وقد كان يُنفق لمجرد اللذة .

وعلى هذا النحو استطاعت شرلوت أن تفيد من معارف الكاتبين ونشاطها ، إفادة تتفق وذوقها ؛ حتى بدأت تقتبط لوجوده بينهم ، وتشيع في نفسها الطمأنينة من ناحية نتائج وجوده بين ظهرانيهم . وكان هجّيراً أن تهياً للإلقاء مختلف الأسئلة عليه ؛ ولما كانت تحب الحياة ، فقد كانت تحرص على استبعاد كل ما هو ضارٌّ خطر : فطلاء الرصاص الخاص بالأواني ، والزجاج الذى يغطى الأواني النحاسية ، كثيراً ما أثار مخاوفها ؛ فنشدت تفسيراً في هذا الصدد ، مما أفضى بطبعه إلى الخوض في أوليات الفزياء والكيمياء .

وكان إدورد يزوج في هذه الأحاديث بعناصر عارضة ، ولكنها مقبولة
دائمة ؛ كما كان يهوى القراءة بصوت مرتفع ، صوت متزن رنان . وكثيراً
ما كان يُمتدح من قبل لبراعته في الإلقاء الحى المتأثر وهو يقرأ كتب
الشعر والخطابة . أما اليوم فهو في شغل بموضوعات أخرى ، فكان يقرأ
لأصدقائه كتباً من نوع آخر ، كانت منذ زمن قليل في الغالب كتباً في
الغزياء والكيمياء والصناعة .

ومن غريب أحواله (ولعل غيره يشاركه في هذا) أنه لم يكن له قبل
برؤية إنسان يلقي بنظره في الكتاب الذى يقرأ فيه . وقبل ، حينما كانت
قراءته تدور حول الأشعار والمسرحيات والقصص ، كانت هذه الحالة
نتيجة طبيعية للرغبة الحارة التى يشعر بها القارئ ، كما يشعر بها الشاعر
والمسرحى والقصصاء ، فى إثارة الدهشة والتوقف عند بعض الواضع
وابتعاد حب الاستطلاع . وإنه لما يمترض هذه الرغبة كل الاعتراض أن
يعلم الإنسان أن شخصاً آخر يسابق نظراتنا بينما نحن نطالع . لهذا كان
من دأبه فى مثل هذه الأحوال أن يجلس بطريقة لا تجعل أحداً يقوم من
ورائه . أما الآن وقد صاروا ثلاثة ، فلم يكن لهذا الاحتياط فائدة ؛ وفضلاً
عن هذا لم يكن الأمر يستدعى الآن إثارة عاطفة أو إدهاش خيال ، لذا لم
يكثر إدورد ولم يفكر فى أن يحتاط ذلك الاحتياط .

لكن حدث ذات مساء حينما كان يجلس فى غير اكتراث أنه تبين
فى الحال أن شرلوت كانت تحديق بعينها فى الكتاب . فبعث هذا قلقه
القديم ، فلامها بطريقة لا تخلو من الجفاف ، قائلاً :

— ليت شعرى لماذا لا يترك الناس نهائياً هذه العادة السيئة ويقاموا
عنها وعن أمثالها مما لا يلائم المجتمعات ! فأنا حينما أقرأ شيئاً لإنسان ، أفليس

هذا كأنى أستعرض أمامه شيئاً شفاهاً ؟ إن الكتب والطبوع يشغلان مكان أفكارى وعواطفى الخاصة ، فهل أحمل نفسى عبء الحديث ، إذا كانت فى جبهتى أو صدرى نافذة صغيرة ، بحيث يتهيأ للشخص الذى أريد أن أعرض أفكاره أمامى واحدة تلو الأخرى ، وأبث إليه عواطفى عاطفة بعد عاطفة ، أن يعرف مقدماً إلى أين أريد الوصول ؟ حينما ينظر إنسان فى الكتاب الذى أقرأ فيه ، يتخيل إلى دائماً أننى قد شطرت شطرين . وشرلت ، التى امتازت فى المجتمعات صغيرها وكبيرها بمهارتها الفائقة فى استبعاد كل قول غير مرغوب فيه أو جارح أو حاد ، وفى قطع الحديث الطويل للدرجة الإملال ، وفى إشاعة الحياة فى الحديث المترخى ، شرلت وهذه صفاتها لم تخنها هذه المرة موهبتها هانىك . فقالت لزوجها : « ستغفر لى من غير شك خطأى ، حينما تدعى أنبك عما حدث لى فى هذه اللحظة . فالموضوع متصل بالأنساب ، فأفكرت فى الحال فى نسب الدم ؟ أفكرت فى ابنى عم يقلق بالى الآن . فاتجه انتباهى إلى القراءة ، وإذا بى أسمع أن الحديث يدور حول الأشياء الجمادية ، فألقيت بنظرى فى كتابك ، كيما أستعيد نفسى » .

— إنه تشبيه هذا الذى أفضى بك إلى الخطأ ، هكذا قال إدورد . فالحديث هنا يدور كله حول التربة والمعادن وحدها ، ولكن الإنسان نرجس حقاً : فهو يريد أن يرى نفسه منمكسة فى كل ما حوله ، ولا يرى فى الدنيا غير نفسه .

— أجل ! هكذا قال السكايتن . فهو يعامل كل ما يحيط به على هذا النحو ؛ ويمير عقله وجنونه ، لإرادته وهواه ، وكل ما يملك إلى الحيوان والنبات والعناصر والآلهة .

— ولكيلا نبتعد كثيراً عن موضوعنا ، هكذا قالت شرلوت ،
أفلا تود أن تخبرني في كلمات قلائل عما يقصد من « الأنساب » ؟

بكل ارتياح ، هكذا أجاب الكابتن ، وقد كانت شرلوت وجهت إليه الحديث . سأبذل غاية الوسع في إيضاحه لك كما تعلمته منذ عشر سنوات ، وكما علمتني الكتب إياه . أما أن يكون هذا لا يزال رأى العلماء اليوم ، وهل يتفق مع الآراء الجديدة ، فهذا ما لا أستطيع أن أثبتك به .
فصاح إدورد : ما أخلقنا بالرئاء لأننا لا نستطيع التعلم مرة واحدة لدى الحياة ! لقد كان أجدادنا يقتصرون على المعلومات التي كانوا يتلقونها في شبابهم ؛ أما نحن فيلزمنا أن نستأنف الدراسة والتعلم كل خمس سنوات ، إذا أردنا أن نكون عصريين .

— أما نحن معشر النساء ، هكذا قالت شرلوت ، فلا نطمح إلى مثل هذه الغاية ، وأقول بصراحة إن كل رغبتى تقتصر على معرفة معنى هذا اللفظ ، لأنه لا شيء أدى إلى السخرية من استخدام لفظة أجنبية أو مصطلح بمعنى غير مدلوله الصحيح . لهذا أود أن أعرف فقط بأى معنى يستخدم هذا التعبير في هذه المناسبة . أما عن السياق العلمى الذى يستخدم فيه ، فهذا ما أدعه للعلماء الذين سيجدون دائماً عناء كبيراً في التفاهم فيما بينهم ، كما تبين لى من ملاحظاتى .

— لكن ، من أين نبدأ ، كيما نصل إلى المطلوب بسرعة ؟ هكذا قال .
إدورد للكابتن بعد لحظة من الصمت . فأجاب الكابتن بعد شئىء من التردد :
— لو سمحتم لى بالبحث عنه بعيداً لوصلنا فى الواقع إلى الغرض بطريقة أسرع .

فقالت شرلوت : اعتمد على كامل انتباهى ! واطرحت شغلها جانبا .

فقال الكاتبين : لنلاحظ أولاً أن كل الكائنات في الطبيعة مما يقع تحت الحس لها جاذبيتها في نفسها . وقد يبدو من الغريب أن يسمع المرء ما هو مفهوم بنفسه ؛ غير أنه لا يمكن الإنسان أن يتقدم لمعرفة المجهول إلا إذا اتفق على المعلوم .

فقاطعه إدورد قائلاً : يبدو لي أننا نستطيع أن نوضح المسألة لشرلوت ولأنفسنا ، بواسطة الأمثلة . تأمل مثلاً الماء أو الزيت أو الزئبق : فستجد في أجزائها وحدة وتماسكاً . وهذه الوحدة لا يمكن أحدها أن يتخلى عنها إلا بالقوة أو بأى شيء آخر يرغمها عليه . حتى إذا ما أبعد هذا التأثير ، اتحدت عناصرها في الحال .

— أجل ، هكذا قالت شرلوت مؤمنة على كلامه ، إن قطرات المطر تتجمع على هيئة أنهار ؛ والزئبق ، ألم يكن إبان طفولتنا مصدراً للدهشة ، حينما كنا نفصل أجزائه على هيئة كريات ، ثم ندعه بعد هذا يتجمع ؟ فأضاف الكاتبين : وهذا يسمح لي بأن ألفت النظر بهذه المناسبة إلى نقطة رئيسية ، هي أن الجاذبية الصافية كل الصفاء ، التي تسمح بها السيولة ؛ تظهر دائماً على هيئة كروية . فالقطرة من الماء الساقطة مستديرة ؛ وأنت قد تحدثت عن كريات الزئبق ؛ بل إن الرصاص المنصهر المتساقط يصل إلى السطح على هيئة كرة ؛ إذا تسر له الوقت الكافي .

فقالت شرلوت : دعني أقود الحديث ، لعل أصل إلى النقطة التي تبني بلوغها . لما كان لكل كائن جاذبية نحو نفسه ، فيجب أن تكون له صلات أيضاً مع غيره .

فاستأنف إدورد بجملة : ويجب أن تكون هذه الصلات مختلفة وفقاً لاختلاف الكائنات . فحينئذ تتلاقى كأصدقاء قداماء ومعارف منذ زمان

طويل ، سرعان ما يتحدون ويختلطون ، دون أن يفسد الواحد طبيعة الآخر (كما يحدث للماء مع الخل) ، وحيناً آخر يُصرّ كل منهما على أن يظل غريباً عن الآخر وإن كان إلى جواره ، ولا يمكن أن يتحدا ، حتى بالاحتكاك وبمزيج آلى (كما هي حال الزيت والماء : فهما إذا مُزجا لا يلبثان أن ينفصلا) .

فقات شرلوت : لا يموزنا شيء كما نرى في هذه الصور البسيطة الناس الذين عرفناهم ؛ ولكنها تذكرنا خصوصاً بالجماعات التي عشنا بها . ومع هذا فلا شيء أشبه بهذه الكائنات الجمادية من الطبقات الموجودة في العالم : المراكز الاجتماعية ، السّهن ، النبالة والشعب ، الحربى والمدنى . — ومع هذا — هكذا استأنف إدورد — فكما أن هذه الطبقات يمكن أن تتحد بواسطة الأخلاق والقوانين ، فإن في عالمنا الكيميائى وسائط أيضاً لاتحاد ما ينفصل .

— فثلاً — هكذا قال الكابتن — يمكن اتحاد الزيت مع الماء بواسطة الملح القلوى .

فقات شرلوت : لا تسرع كما يكون فى مقدورى المتابعة . أفلم تبلغ الأنساب ؟

— فعلاً ، ياسيدتى ، وها نحن أولاء بسبيل معرفتها بكل قوتها ودقتها . إن المواد التى إذا تقابلت اتحدت وامتزجت أجزاءها بعضها ببعض ، يقال عنها إن بينها وبين بعض نَسَباً . وهذا النّسب مثير لكثير من العجب فى القلويات والأحماض ، التى ، على الرغم من تعارضها المتبادل ، أو بالأحرى بسبب هذا التعارض نفسه ، يسعى بعضها إلى بعض ويتحد بكل تماسك ، وتتمدل مكونة معاً جسماً جديداً . ولنذكر على سبيل المثال

الجبر الذى يميل جداً إلى الاتحاد بكل الأحماض ، وإلى الامتزاج التام بها .
 وحينما يكون لنا معمل كياوى ، سنطعمك على كثير من التجارب المتنوعة
 الشائقة كل التشويق ، مما يعطيك عن هذه المسائل فكرة أدق مما تعطيه
 الألفاظ والمصطلحات .

فأجابت شرلوت : اسمح لى بأن أعترف لك بأنك إذا كنت تسمى
 نسباً الملاقة القاعمة بين موادك هذه الغريبة ، فلست أرى فيها نسباً دموية ،
 بل بالأحرى نسباً روحياً . وعلى هذا النحو يمكن أن تقوم بين الناس
 صداقات جدية حقاً ، لأن الصفات المتعارضة تسمح بإيجاد اتحاد أتم . وإنى
 لمنتظرة ما ستطعننى عليه من هذه التأثيرات المستسرة . أما الآن — هكذا
 قالت موجهة الخطاب إلى إدورد — فلا أريد أن أستمّر فى قطع قراءتك ؛
 وهأنذا بعد أن علمت ما علمت أكثر إصغاء إليك وانتباها .

فأجاب إدورد : ما دمت قد استرثينا ، فلن ندعك تتخلصين بهذه
 السهولة ، لأن أعقد المسائل أكثرها تشويقاً . إذ بها وحدها يستطيع
 المرء أن يعلم درجات الأنساب ، وقريب الروابط وبعيدها ، وقويها وضعيفها :
 والأنساب لا تصير شائقة إلا حينما تقوم بالفصل .

فصاحت شرلوت : ماذا ! أهذه الكلمة الحزينة التى يسمعها الإنسان ،
 ويا للأسف ! كثيراً هذه الأيام بين الناس ، أفتوجد أيضاً فى التاريخ الطبيعى ؟
 فأجاب إدورد : من غير شك : بل لقد كانت كلمة تفاخر محبوبة عند
 الكيمائيين أن ينعتوا أنفسهم بأنهم الفنانون الفاصلون .

فقالت شرلوت : أما اليوم فلم يعد يطلق عليهم هذا اللقب ، وحسناً
 فعل الناس . فالربط فن أكبر ، وله فضل أوفر . «الفنان الرابط»
 سيكون فى كل مكان مرموق المكانة محبوباً لدى الجميع . لكن ما دمت

قد خُصَّت في هذا الشأن ، فلتذكر أُمَامِي بعض الأمثلة والشواهد .
 فقال الكابتن : إذن كنعمد إلى ما أسلفنا ذكره . إن حجر الجير
 أرض كلسية تتفاوت في النقاء ، متحدة مع حامض لطيف نستطيع
 استحضاره على هيئة غاز . فإذا غمسنا قطعة من هذا الحجر في حمض
 الكبريتيك المصبوب في الماء ، فإن الحمض يتحد بالجير ويظهر على صورة
 جبس ، بينما الحمض الآخر ، الحمض اللطيف ، الهوائى ، ينبخر ويتطاير .
 فهنا حدث انفصال واتحاد جديد ، وللمرء الحق بعد هذا في استخدام التعبير :
 نسب مختار ، لأنه يبدو أن رابطة قد فُضلت على أخرى ، واختيرت دونها .
 فقالت شرلوت : معذرة لى ، كما أنى أعذر العالم الطبيعى ؛ ليس في
 وسعى مطلقا أن أرى في هذا اختياراً ، بل أرى فيه بالأحرى ضرورة
 فزيائية ؛ وهذا ليس واضحاً كل الوضوح ، إذ يمكن أن يكون هذا أثرًا من
 آثار الصدفة وحدها والناسبة . فالصدفة تصنع الروابط ، كما أنها تخلق
 اللصوص ؛ وإذا كان الأمر متصلًا بمركباتك الطبيعية ، فيبدو لى أن
 الاختيار محصور في يد الكيمياء ، الذى يجمع بين هذه الأجسام . لكنها
 إذا ما صارت معا ، فليكن الله في عونها ! وفي هذا المثل الذى أمامنا ،
 لا أرئى إلا لحال الحمض الهوائى المسكين ، الذى أراه مضطراً إلى التحليق
 فى الفراغ .

فأجاب الكابتن : فى مقدوره أن يتحد بالماء ، وأن يفيد ، كينبوع
 معدنى ، فى تقوية المرضى والمُدَنِّفِينَ .

فقالت شرلوت : للجبس أن يفعل ما يشاء ؛ فقد تقرر مصيره وصار
 جسماً ، له كيانه ، أما هذا المنقى المسكين فيمكن أن يعانى بعدُ كثيراً من
 العلل والأمراض قبل أن يجد ملاذاً له آمناً .

فتبسم إدورد من قولها ضاحكا وقال : إما أن أكون مخدوعا أو يكون وراء ألفاظك سخرية رشيقة ! فهيا اعترفي بجنثك ! فأنا في نظرك الخير الذى استولى عليه الكابتن باعتباره حمض الكبريتيك ، وسلبك إياه ، وأحاله إلى جيس نافر .

فأجابت شرلوت : إذا كان ضميرك يلهمك مثل هذه الخواطر ، ففي وسعى أن أعري عن الخوف . فهذه التشبيهات جميلة مرفهة ، ومن ذا الذى لا يسره التلاعب بالنظائر والأشباه ؟ على أن الإنسان مع هذا فوق هذه العناصر ؛ وإذا كان قد بدا هنا سخيا فى منح الألفاظ الجميلة مثل : اختيار وأنساب مختارة ، فمن الخير له أن يؤوب إلى رشده ، وأن يجيد وزن هذه الكلمات فى هذه المناسبة . فأنا أعلم ويا للحسرة ! كثيرا من الأحوال التى فيها قضى على الارتباط الوثيق بين شخصين وثيقة تبنت أنها لا يمكن فصمها ، بواسطة ارتباطها عرضا بشخص ثالث ؛ وفيها رؤى أحد الكائنات المرتبطة بهذه الرابطة المحكمة قد استبعد وطُرد إلى نهاية الدنيا . فقال إدورد : فى هذه الحالة إذن يكون الكيميائيون أكثر مهارة ورشاقة : فهم يدخلون حينئذ عنصراً رابعا ، كيما لا يبقى أحد منعزلا وحيداً . فقال الكابتن : أجل ، من غير شك ؛ بل إن أشد الأحوال إثارة للدهشة والتشويق هى تلك التى يمكن أن يظهر فيها هذا التجاذب والنسب ، وهذا الترك وذلك الاتحاد ، بحسبانهما متقاطعين ، هى التى فيها أربع مواد كانت متحدة حتى الآن مثنى مثنى ، فلما صارت على اتصال تخلت عن اتحادها الأول ، وكونت اتحاداً جديداً . وفى هذا الترك والأخذ ، فى هذا الفرار والنشدان ، ينجيل إلى المرء حقا أن تمت مصيراً أعلى ؛ فيُعزى إلى هذه الكائنات نوع من الاختيار والإرادة ؛ ويرى المرء أن التعبير العلمى :

نسب مختار ، له ما يبرره كل التبرير .

— أتوسل إليك أن تصف لى حالة من هذا النوع !

فأجاب الكاتب : لا يمكن شرح هذا بالألفاظ . فكما قلت لكما ، حينما يكون فى مقدورى أن أجرى التجارب أمام عيونكما سيبدو كل شىء ألد وأوضح . أما الآن فساكون مضطراً إلى الإتيال عليكما بالمصطلحات العلمية المخيفة التى لا تعطىكم أية فكرة واضحة . إنما يجب على المرء أن يرى فعل هذه المواد وانفعالها أمام عينيه ، هذه المواد التى تبدو مجادية ، لكنها مع هذا متأهبة دائماً فى باطنها للعمل والنشاط ؛ ويجب أن نشاهد بتشويق كيف ينشد بعضها بعضاً ، وكيف تتجاذب وتماسك وتتفانى ويمتص أحدها الآخر ، ويقضى بعضها على بعض ، ثم تنتقل من أوثق اتحاد إلى صورة متجددة غير متوقعة : وحينئذ فقط تُعزى إليها حياة أبدية ، بل وحواس وعقل ، إذ نشعر بأن حواسنا لا تكاد تكفى لمشاهدتها بوضوح ، وأن عقلنا لا يكاد يقوى على فهمها .

فقال إدورد : أعترف بأن هذه التسميات الغريبة لابد أن تبدو متعبة ، بل ومضحكة فى نظر من ليس يألفها بواسطة المحسوسات والأفكار العيانية . وإلى أن يحين هذا ، نستطيع أن نعبر بالحروف عن النسبة التى كنا بصدد الحديث عنها .

فأجاب الكاتب : إذا كنت لا ترى فى هذا إذاً إفراطاً فى الخدافة ، فى وسمى أن أخلص رأيى بلفظة العلامات والرموز . فتصور أن أمتجد بكل وثاقة مع ب ، دون أن تستطيع المحاولات المديدة والمجهودات المتكررة أن تفصلهما ؛ وتصور أن أمتجد على نفس النحو مع د ؛ فضع الآن الزوجين على اتصال : فإن أ سيذهب للارتباط مع د ، و ح مع ب ، دون أن يكون

في وسع المرء أن يعرف من ذا الذي ترك الآخر أولاً ، ومن ذا الذي اتحد أولاً مع الآخر .

فقال إدورد بحماسة : إذن ! إلى أن يحين الوقت الذي نرى فيه هذا كله بميوننا ، سنعتبر هذه الصيغة مثلاً يعطينا درساً لمنفعتنا العاجلة . فأنت ا ، أى شرلوتى ؟ وأنا ب بالنسبة إليك ؛ ذلك لأنه والحق يقال ، أنا متعلق بك وحدك أتبعك ، كما تتبع الباء الألف . و ح هى من غير شك السابتن ، الذى يسلبنى منك على نحو ما فى هذه اللحظة . والآن ، فل斯基لا تتطارى فى الهواء ، فمن العدل أن نحضر إليك ، ولا شك فى أنها هى الأنسة الصغيرة أوتيلى ، التى لا ينبغي لك أن تعارضى فى مجيئها بعد طويلاً .

— حسناً جداً ، بهذا أجابت شرلوت ، وعلى الرغم من أن المثل لا يبدو لى أنه ينطبق تمام الانطباق على حالتنا ، فإنى أعتبر من السعادة أن نكون قد التقينا اليوم واتفقنا كل الاتفاق ، وأن تعجل هذه الأنساب المختارة الطبيعية فى زيادة التفاهم وعمقه فيما بين كلينا . وهأنذا أعترف لك بأنى قطعت عزمى منذ هذا اليوم على استحضار أوتيلى إلى جوارنا ، لأن قهرمانتى المخلصة ستفارقنى لأنها ستتزوج . وهذا ما يشوقنى فى هذا الأمر . أما ما يجعلنى أعزم هذا العزم لصالح أوتيلى ، فهذا ما ستقرأه علينا الآن . خذ هذه الرسائل . ولن أتبع قراءتك بعينى ؛ لكنى أعلم مضمونها مقدماً . خذ واقرأ . »

وما قالت هذه الكلمات حتى قدمت الرسائل إلى إدورد .

الفصل الخامس

رسالة ناظرة المدرسة

اغفرى لى ، سيدتى البارونة ، إن كنت سأقتصر اليوم على بضع كلمات أكتبها إليك . فبعد الانتهاء من الامتحان فيما علمناه تلميذاتنا فى العام الذى انقضى ، يخلق بى أن أبلغ النتائج إلى كل الآباء وأولياء الأمور . وقد تجاسرت على الإيجاز ، لأنى أستطيع أن أقول الكثير فى كلمات قصار . إن الآنسة ابنتك قد تبعت متفوقة فى كل ناحية بالشهادات المرفقة بهذا ، ورسالتها هى إليك ، وهى تتضمن تفاصيل الجوائز التى ظفرت بها ، كما تنطوى على الرضا الذى ألهمها إياه هذا النجاح الموفق ، كل هذا سيكون لك موضوع رضا واعتباط . أما الذى يقلل من سرورى ، فهو أننى أتوقع أن لا يكون فى وسعنا أن نحفظ طويلا بتلميذة مجتهدة كل هذا الاجتهاد . وهأنذا ، سيدتى البارونة ، أستفيضُ إحسانك وأستميحك فى أن أبلغك عما قريب رأى فى خير ما يجب أن تفعله الآنسة ابنتك . أما عن أوتيل ، فسيتحدث إليك زميلى الكريم .

رسالة المعلم

كلفتنى ناظرنا البجلة أن أكتب إليك عن أوتيل ، إما لأنها ، وفقاً لوجهة نظرها ، تجد حرجاً فى كتابة التقرير الذى ينبغى أن يقدم إليك ، أو لأنها تفضل أن أقوم أنا بتقديم الاعتذارات وألوان الأسف التى يجب أن تحملها إليك .

وإني لأعلم جيّد العلم إلى أى مدى أوتيت الطيبة قليلة القدرة على إظهار ما تعلم والكشف عن قيمة نفسها : ولهذا فإن الامتحان العام قد أثار في نفس الكثير من القلق ، خصوصاً أنه من المستحيل على وجه العموم الاستعداد له ؛ وحتى لو أمكن هذا لما شئت أوتيت أن تخوض في هذه المظاهر الكاذبة . ثم أتت النتيجة مبررة لمخاوفي كل التبشير : فلم تحظ بأية جائزة ، بل كانت من بين التلميذات اللاتي لم يظفرون بأية شهادة على الرضا والقبول . آه ، ماذا بقي أن أقوله بعد ؟ أما عن الخط ، فإن التلميذات الأخريات ، وإن كان خطهن ليس واضحاً كل هذا الوضوح ، كانت أيديهن أكثر خفة ورشاقة . وفي الحساب كن جميعاً أسرع منها ، والمسائل الصعبة التي تحسن هي حلّها ، لم توضع في الامتحان . والفرنسية قد كشفت عن طلاقة الكثيرات . وفي التاريخ كانت تستذكر بصعوبة الأسماء والتواريخ ، وفي الجغرافيا كان من المؤسف أنها أهملت التقسيم السياسي . ولم يكن نمت من الزمن ما يسمح بسماعها وهي تعزف مقطوعاتها النادرة البسيطة . أما عن الرسم ، فقد كان في وسعها قطعاً أن تنال الجائزة : فإن تخطيطها كان رائعاً والتبويض مليئاً بالفهم والعناية ، غير أنها وبالأسف قد حاولت شيئاً صعباً ، فلم تستطع إتمامه .

وحينما خرجت الطالبات ، عقد الممتحنون جلسة وسمحوا للمدرسين بإبداء ملاحظات : فرأيت في التوّ أنه لم يُقَلَّ شيء عن أوتيتي ، أو إذا تحدث عنها متحدث ، فإنما كان ذلك عرضاً أو على الأقل من غير اكتراث . فأملت أن أثير عطفهم عليها بإعطائي إياهم صورة صادقة عن طبيعتها وخلقها ، وحاولت هذا بحماسة خاصة ، أولاً لأنني كنت أستطيع أن أتحدث عنها مطمئن الضمير ، وثانياً لأنني كنت في مثل حالها البائسة هذه أيام شبابي

الأول . فأرعدوا أسماعهم إلى ؛ لكنني حينما انتهيت من حديثي ، أجابني الرئيس بلهجة وإن تكن عاطفة فهي قاسية :

— الميول مفروضة مقدما . إنما الواجب هو أن تستحيل إلى ملكات . فهذا هو موضوع كل تربية ؛ وتلك هي نية الآباء الصريحة ؛ والأولاد أنفسهم يسرون نحو هذه الناية ، دون أن يعلموا ، أو لا يعلمون إلا علما ناقصا . وهذا أيضا هو موضوع كل امتحان ، حيث يُحكّم فيه على الأساتذة والتلاميذ على السواء . وإن ما أخبرتنا به عن هذه الفتاة ليجعلنا نرّجى منها ، وإنك لتستحق المدخ على اهتمامك بمراعاة مواهب الطلاب . فاعمل في العام المقبل على أن تصير هذه المواهب ملكات ، ولن نبخل حينئذ بالثناء على الأستاذ ولا على التلميذ الذي يهتم به .

أسلمت أمري للنتائج ، لكن حدثت حادثة عنها أشد المآ ، ولم أكن أتوقعها . فإن ناظرنا الطيبة التي لا تريد ، مثلها مثل الراعي الصالح ، أن ترى إحدى النماذج تضلّ ، أو ، في حالتنا هذه ، تظل بدون غذاء ، لم تستطع كتمان سخطها ، بعد ارتحال المتحنيين ، وقالت لأوتيلي ، وكانت متكئة بهدوء عند النافذة ، بينما كانت صواحبها مغتبطات بالجوائز التي ظفرن بها :

— قولي لي بربك كيف يمكن المرء أن يقبدي غيباً كل هذا الغباء إذا لم يكن في حقيقته كذلك .

— مغفرة ، أمي العزيزة ! فإن صداع رأسي قد انتابني اليوم وبكل شدة . — من يدرى ؟ » هكذا أجابت هذه السيدة التي من دأبها العطف . ثم مضت مُفْتَضِبة . ومن الحق أنه لا يستطيع أن يعلم هذا إنسان ، لأن أوتيلي لا تفسّر من ملاحظها ، ولم ألاحظ مطلقاً أنها حملت مرةً يدها إلى صدغها . ولم يكن هذا كل شيء ، سيدتي البارونة . فإن الآنسة ابنتك ،

وهي التي ألفت الخفة والصرافة باستمرار ، قد استسلمت بكبرياء وازدهاء
لما طفة انتصارها . فكانت تجرى في كل الغرف ، ومعها جواثرها وشهادتها ،
وتلوح بها وهي مارة أمام عيون أوتيلي ، صائحة في وجهها :

— لقد أسأت قيادة عربتك اليوم !

فكانت أوتيلي تجيبها بكل هدوء : ليس هذا آخر يوم في الامتحان .
— وماذا يعني هذا ؟ ستظلين دائماً الأخيرة » ، بهذارت عليها الآنسة
ابنتك ، ومضت متواثية . وتبدت أوتيلي هادئة في نظر الآخرين ؛ لكنني لم
أخذع بهذا المظهر . فإن انفعالاً باطنياً ، حياً أليماً ، تحاول إخفاءه ومناهضته ،
تبدى في لون وجهها المتغير بدرجة غير متساوية . فالخد الأيسر يصير
أحمر حيناً ، بينما الأيمن يشحب . ولاحظت هذا العرّض ولم أستطع إخفاء
تأثيري لحالها . فالتحيت مع ناظرتنا جانباً ، وحدثتها في المسألة بجد .
فاعترفت هذه المرأة الفاضلة بخطأها . وكان لنا حديث طويل ؛ ولن أطيل
عليك ، وبكفيني أن أنهي إليك ، أي سيدتي ، قرارنا ورجاءنا . فهل
تتفضلين بدعوة أوتيلي إلى جوارك مدةً من الزمان . وإنك لتفهمين مقاصدنا
خيراً من كل إنسان آخر . فإن عزمنا على هذا فسأنبئك عن الطريقة
التي ينبغي اتخاذها مع هذه الطفلة المزينة . وحينما تغادرنا الآنسة ابنتك ،
كما نتوقع قطعاً ، فسندرج بمودة أوتيلي إلينا .

وملاحظة أخرى أخشى أن أنساها فيما بعد . لم أرها مطلقاً تطلب شيئاً
أو تسترشد حاجة بالحاج ؛ لكن تعرض أحوال ، نادرة مع هذا ، تحاول فيها
رفض ما يطلب إليها . وهي تفعل هذا بحركة لا يستطيع من يدركها ويفهم
معناها أن يعترض سبيلها . فهي تسند كفاً مفتوحة إلى أخرى مفتوحة
كذلك ، وترفعهما نحو السماء ، ثم تردهما من بعد إلى صدرها بانحناءة خفيفة ،

موجهة إلى السائل الثقيل نظرة فيها من التعبير ما يجعله يعزف بارتياح عن كل ما كان سألَهُ أو رجاه . فإذا حدث ورأيها ، سيدتي البارونة ، تؤدي هذه الحركة ، وهو ليس من المحتمل مع طرق سلوكك وإياها ، فاذكريني وارحمي أوتيلي .

ولما قرأ إدورد هذا الخطاب لم يتمالك نفسه من الابتسام أحياناً وإنفاض رأسه مراراً ؛ كما لم ينس أن يلقى بخواطره عن الأشخاص المشاركين في هذه المسألة وعن الأمر كله . وأخيراً صاح :

— كفى ! لقد فر القرار ، وستمود إلينا . وقد أخذنا أهبتنا فيما يتصل بك ، أي صديقتي العزيزة ، ولا نجد حرجاً الآن في أن نفضي إليك بما اقترحناه . فقد صار ضربة لازب أن أقيم في الجناح الأيمن إلى جوار الكابتن . وإن الصباح والمساء لهما الوقتان الأنسبان للعمل معاً . وهذا الاقتراح يسمح لك بأن تهنيئ الأمر فيما بينك وبين أوتيلي على خير ما ترتضيان . فراقاته شرلوت على كل شيء ، وأنشأ إدورد يصف حياتهم الجديدة ، وانتهى بأن صاح قائلاً :

— في الحق أنه من اللطيف أن تكون ابنة أختك مصابة ببعض الألم في الرأس في الجانب الأيسر ؛ فانا أتألم أحياناً في الجانب الأيمن : فإذا تلاقت نوبات ألما وكنا نجلس الواحد منا في مواجهة الآخر ، هي مستندة إلى ذراعها الأيسر وأنا إلى ذراعي الأيمن ، ورءوسنا في أيدينا ، وكلانا مائل جانباً ، فستكون عن هذا المنظر صورتان جميلتان تتلاقيان ! فتوسم الكابتن في هذا خطراً .

فقال إدورد له : فكّر في أمرك ، يا صديقي العزيز ، وخذ حذرك

من ؟ ! فإذا سيؤول إليه أمر الباء إذا سلبت منه الجيم ؟
 فقالت شرلوت : يبدو لي أن هذا شيء . بين بنفسه .
 فقال إدورد بحماسة : بدون شك سنعود إلى أليفا ، التي هي
 أملها ومأواها !
 وما قال هذه الكلمات حتى وثب فوق كرسيه وضم شرلوت بحماسة
 إلى قلبه .

الفصل السادس

وصلت العربة التي أقلت أوتيلي ، فاستقبلتها وحيثما شرلوت .
 فهيرعت الطفلة العزيزة نحوها ، وترامت عند قدميها وعانقت ساقها .
 — لماذا تتصاغرين على هذا النحو ؟ هكذا قالت شرلوت في شيء من
 الارتباك ، وهي تحاول النهوض بها .
 — ليس هذا ذلًا ولا تصاغرا ، بهذا أجابت أوتيلي ، وهي باقية على
 وضعها : ولكن يلزم أن أذكر العهد الذي لم أكن أستطيع أن أرتفع
 فيه إلى ما فوق ركبتك والذي كنت فيه موقنة من حبك لي .
 ثم نهضت وعانقتها شرلوت بحماسة . وقُدمت إلى البارون والسكابتين ،
 وسرعان ما قبلت بعطف خاص . فالجمال أينا حلّ في احتفال . وبدأت
 أوتيلي تنبه إلى الحديث دون أن تشارك فيه . وفي الغد ، قال إدورد لشرلوت :
 — هذه الفتاة تفيض عذوبة ورقة .
 — تفيض عذوبة ورقة ؟ هكذا قالت شرلوت باسمّة ، إنها لم تنه بكلمة بعد .
 — حقا ؟ أجاب إدورد ، وكأنه يراجع ذكرياته . سيكون هذا غريباً ! .

وكان يكفي شرلوت أن تعطى يتيمتها بمض الإرشادات الخاصة بطريقة إدارة المنزل كما تدرك في الحال أو بالأحرى تحدى كل نظامه . وسرعان ما فطنت يئسر إلى كل ما يجب عليها عمله نحو النكل ونحو كل فرد على حدة . فكانت تؤدي كل شيء بدقة وإحكام . وكانت تستطيع إعطاء الأوامر دون أن تبدو في لهجة الأمر ، وإذا أعمل أحد شيئاً ، فعلته بنفسها في الحال .

وبعد أن حسبت مقدار ما بقي لها من الزمان لتقضيه بين ظهرانيهم ، سألت شرلوت السماح لها بتوزيع أوقاتها ، ومن ثم استخدمتها بكل دقة . وسرت في عملها على المنهج الذي عرضه المعلم لشرلوت . ثم تركت وشأنها ، اللهم إلا أن البارونة كانت تسمى بين الحين والحين لأهداف عزمها . فمثلاً كانت أحياناً تضع في يدها أقلاماً طال استعمالها ، كما تيسر لها أن تكتب مَشَقاً . يئسد أن أوتيلي سرعان ما كانت تشحذها ، كما تصير أ أكثر قساوة .

وكان النسوة قد تعاهدن على التحدث بالفرنسية حينما يكنّ وحدهن ، وشرلوت ازداد حرصها على هذه العادة نظراً إلى زيادة قدرة بنت أختها على التحدث بهذه اللغة الأجنبية ، التي أوجبوا عليها التمرن بها ، وكانت حينئذ تقول أ أكثر مما كانت في الظاهر تريد . وكان يلذ لشرلوت أن تستمع إليها أحياناً وهي تصف مدرستها الداخلية وصفاً إن يكن صادقاً فهو لا يخلو من الإحسان . ومن ثم صارت أوتيلي بالنسبة إلى شرلوت رفيقة عذبة ، وراق البارونة أن تجد فيها يوماً صديقة لها وفيّة .

وراحت تقرأ التقارير القديمة التي كانت تكتب لها عن ابنتها ، كما تستحضر في ذاكرتها كل تلك الأحكام التي كانت ناظرة المدرسة والمعلم

يصدرانها على هذه الطفلة العزيزة ، وتقارنهما بما تراه من أحوال أوتيلي ؛ لأن شرلوت كانت ترى وجوب معرفة أخلاق الأشخاص الذين يضطر المرء للعيش معهم ، كما يكون على بصيرة بالذي يمكن أن يصدر عنهم ، وما عسى أن يتيسر إصلاحه فيهم ، وماذا يجب على المرء أن يعجز نفسه عنه منه ويطويه على غرّه .

يُبد أن هذا الامتحان لأحوالها لم يزدها معرفة بها ، اللهم إلا أن كثيراً من الأشياء التي كانت تعلمها عنها تبدت لها أكثر مثاراً للعجب والدهشة . فثلاً كانت قناعة أوتيلي المفرطة مثاراً لقلق حقيق لديها .

وكان أول موضوع عكى السيدتين هو الزينة . فاقتضت شرلوت من ابنة أختها أن تزيد في التأنيق في هندامها . وسرعان ما كانت الفتاة الطيبة الشبيطة تفصل القماش الذي أعطى لها من قبل بنفسها ، ومع قليل من المساعدة كانت تعرف كيف تلفقها على قدمها تماماً . وهذه الفساتين التي خيطنت وفقاً لأحدث الأزياء كانت تزيد من جمالها : لأن فتنة الشخص تنتشر على ملبسه ، ويخيل إلى المرء دائماً أنه أكثر جدة وحُسنًا ، حينما تنتقل مفاته إلى ملابس جديدة .

وبهذا ، ولكي نسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية ، كانت تردد كل يوم فتنة وسحراً في نظر البارون والكاتبين ؛ لأنه إذا كان يؤثر أيضاً في هذا الإحساس تأثيراً صحيحاً سليماً ، فكذلك الجمال الإنساني يؤثر بقوة أكبر كثيراً في الإحساس الباطن والظاهر . ومن يتأمله لا يمتسسه ضر ، ويشعر بأنه في وفاق مع نفسه ومع الدنيا بأسرها .

فكان جماعتهم إذن قد أفادت من وصول أوتيلي من أمحاء عدة . والصديقان المثاران أكثر من كلتيهما على حضور المجلس كأنهما يصلان دائماً

في اليماد المحدد ، ولم يكونا يتأخران مطلقاً عن وجبات الطعام أو الشاي أو الزهرة ، كما لم يكونا متمجّلين لفائدة المائدة ، خصوصاً في المساء . وأدركت شرلوت هذا تمام الإدراك ، ولم تكف عن ملاحظتهما كليهما ، محاولة أن تكتشف حدوث أى تغيير من جانب الواحد أكثر من الآخر ؛ لكنها لم تستطع أن تلاحظ أى اختلاف . وكلاهما كان يتبدى غالباً حسن المجاملة رقيق الحاشية . وفي أحاديثهما يتبديان كأنهما يركزان انتباههما من أجل تشويق أوتيلي ، ومسايرة معارفها ومستوى معلوماتها . وإذا قرأ أو قصّ ، كانا ينتظران عودتها لإكمال ما يقصان أو يقرآن . وهكذا صارت أحوالهم أكثر رقة وأيسر تبادلاً واتصالاً .

أما أوتيلي فقد صارت ، من ناحيتها ، أكثر حرصاً على المجاملة والمبادرة . وكلما ازدادت معرفتها بالقصر والأحياء والأشياء ، ازداد حرصها على العمل ، وفهمها للألفاظ وأنصاف الكلمات والإشارات والنظرات . وبقي انتباهها الهادى مستوياً دائماً ، كما هو شأن نشاطها الرفيق . فكانت ترى ' وهى تجلس أو تنهض أو تغدو أو تروح أو تخرج أو تدخل وتستعيد مكانها ، دون أن تتبدى على وجهها علامة القلق ؛ لقد كانت كتلة من النشاط المستمر والحركة التى لاتهدأ ومع هذا تسرّ ؛ أضف إلى هذا أن صوت وقع أقدامها لم يكن يُسمع مطلقاً ، لأن سيرها كان خَطَراناً .

وهذا التلطف الجميل قد أشاع الكثير من السرور في نفس شرلوت ، اللهم إلا أن نمت شيئاً واحداً بدا لها خارجاً عن الحدود ، ولم تشأ أن تخفيه عن أوتيلي ، فقالت لها ذات يوم :

« من كريم الشئائل أن ينحنى المرء بسرعة لالتقاط ما هوى من يد الآخرين ، لأن هذا إعلان منه بأنه مستعد لخدمته ؛ لكن يجب علينا

في المجتمع أن نأخذ حذرنا من هذا الذي نبين له عن هذا التوقيع . أما فيما يتصل بالنسوة ، فليست لدى قاعدة أريد أن أفرضا عليك . إنك شابة صغيرة : فنحو هؤلاء اللاتي يفتنك في المرتبة أو السن ، هذا واجب عليك أدائه ؛ ونحو قربانك هذا أدب ومجاملة ؛ ونحو الأصغر منك سنًا وفي مرتبته ، هذا إحسان وإجمال وإنسانية ؛ لكن لا يخلق بامرأة أن تقدم لرجل مثل هذه الخدمات والتبجيلات .

فأجابت أوتيل : « سأبذل جهدي كيما أنخلص من هذه المادة التي أرجو أن تفريها لي بما فيها من سوء ، حينما تسمعين مني كيفية اتخاذي لها . لقد علمونا التاريخ ، ولم أحفظ منه كما كان يجب ، لأنني لم أعرف ماذا عساه يفيدني . لكن بعض حوادثه قد انتعشت بعمق في ذاكرتي ، ومن بينها هذه :

حينما كان شارل الأول ، ملك إنجلترا ، في حضرة من ادّعوا أنهم قضائه ، سقطت العقافة الذهبية للمصا التي كانت في يده . ولما كان قد اعتاد ، في مثل هذه الأحوال ، أن يرى الناس متلهفين لخدمته ، بدا كأنه يلقي نظرة حواليه ، منتظرًا ، هذه المرة أيضًا ، أن يقدم له واحد من الحاضرين هذه الخدمة البسيطة . لكن أحداً لم يتحرك ؛ فأنحنى بنفسه لالتقاطها . ولست أدري هل كان في هذا مصيبا . لكن هذا قد أثر في نفسي إلى حد أني منذ ذلك الحين لا أستطيع أن أرى إنسانا يسقط منه شيء ، دون أن أنحنى لالتقاطه . لكن لما كان هذا غير ملائم في كل الأحوال ، ولما كنت لا أسمعني أن أقص هذه القصة في كل مرة ، هكذا تابعت حديثها باسمه ، فسأعمل ما وسعني كيما أملك نفسي في المستقبل » .

وفي تلك الأثناء كان الصديقان يميلان بجهد ومثابرة في المنشآت الجديدة

التي شعرا بأن عليهما أن يقيها . وفي كل حين كانا يجدان فرصة جديدة للتفكير في مشروع أو تنفيذه .

و ذات يوم كانا يخترقان القرية سوياً فلاحظا مع الأسف أنها بعيدة كل البعد — من ناحية النظام والنظافة — عن تلك القرى الجميلة الموقع مما يضطر أهلها إلى رعاية أنفسهم من مختلف النواحي .

قال الكاتبين : « إنك لتذكر أننا حينما كنا زور سويسرة ، عبرنا عن الأمل في تجميل بستان ريفي ، بأن نقيم في قرية ، مكانها كهذه ، لا العمارة ، لكن النظام والنظافة المتوفرين في القرى السويسرية التي لها في الاستقلال مزايا عدة » .

فأجاب إدورد : إن هذا ميسور التحقيق هنا مثلاً . فالراية التي تحمل قصرى تهبط وتنتهى بزاوية بارزة ؛ والقمرية قد بنيت قبالتها ، على هيئة نصف دائرة منتظم بعض الانتظام ؛ وبينهما يجري النهر ، الذي يُحتمى من أمواهه الكبيرة على أنحاء عدة : فهذا يريد الاحتماء بالحجارة ، والثاني بالخوازيق ، والثالث بجذوع الأشجار ، وجاره بالألواح الخشبية ؛ لكن لا يعين أحدهما الآخر ؛ بل يُضِرُّ كل منهما بنفسه ويجيرانه . والطريق هو الآخر سىء التعبيد : فحينما يصاعد ، وأخرى ينحدر ؛ وهنا يمر خلال النهر ، وهناك من فوق الصخور . ولو شاء الناس أن يبذلوا شيئاً من الجهد ، فلن يكلفهم إلا القليل كيما يبنوا هنا سوراً نصف دائري ، وأن يصمدوا ، من هناك ، بالطريق حتى المنازل ، وأن يستفيدوا من المكان ، ويجعلوا النظافة تسود ، وبعنشة كبيرة يلغون كل هذه الاحتياطات البسيطة غير الكافية .

فقال الكاتبين : فلنقم بتجربة ، بأن نقيس بالنظر ونحكم على الحالة .

فأجابه إدورد : لا يسرنى الاشتغال مع رجال الطبقة الوسطى والفلاحين ،
إلا إذا كانت لدى أواخر صريحة واضحة ألقيا إليهم .

— لك الحق : فكثير من الأعمال التى من هذا النوع قد أحدثت
لى فى حياتى كثيراً من المتاعب الكبيرة . وإنه لمن المسير على الناس أن
يحسنوا تقدير ما يجب عليهم التضحية به طمعاً فى الحصول على الفائدة التى
يرجونها ! وأن يريدوا الغاية ولا يحتقروا الوسائل المؤدية إلى تحقيقها ! إن
كثيراً من الناس ليخلطون حتى بين الغاية والوسيلة : فيتملقون بالواحد ،
دون أن يلتفتوا إلى الآخر . ويود الإنسان دائماً أن يكافح الشر أينما ظهر ،
لكنه لا يُعنى مطلقاً بالنقطة التى ابتداء منها ، وعنهما يصدر تأثيره . وتلك
هى العلة فى صعوبة التفاهم ، خصوصاً مع الجمهور ، الذى يحسن تقدير المسائل
اليومية الحاضرة ، لكنه نادراً ما يمتد ببصره إلى ما وراء الفد . وإذا حدث
أيضاً أن كان الواحد كاسباً والآخر خاسراً فى إقامة المنشئة العامة ، فمن
المستحيل تماماً عمل شيء عن طيب خاطر وانفاق . لهذا فإن كل عمل ذى
منفعة عامة لا بد له من معونة قوة السلطان غير المحدودة .

وبينما كنا يتوقفان ويتناقشان على هذا النحو ، أتاها رجل يدل مظهره
على الفحة أكثر مما يدل على الفقر ، وسألها صدقة . فنضب إدورد من
إقلاقه وقطع الحديث عليه ، فانهره ، بعد أن حاول رده بلطف مراراً ،
لكن عبثاً ؛ غير أنه لما كان هذا الرجل العجيب قد ابتعد بخطوات متشاقلة ،
وهو يدمدم ويهمهم ؛ ولما كان قد تبجح بحقوق السائل ، الذى يمكن رده ،
لكن لا يجب انتهاره ، لأنه كغيره من الناس فى حى الله والسلطان —
فقد عيل صبر إدورد . فقال له السكابتن ملاطفاً :

— لنأخذ من هذه الحادثة نصيحة لنا بأن نمتد بإدارتنا وإشرافنا

الريفى حتى إلى مثل هذه المسائل . فيجب التصديق على المحرومين ، لكن لا يجب أن يقوم بها صاحبها بنفسه ، خصوصاً فى منزله . إنما من الواجب استعمال العدالة والاطراد فى كل شىء حتى فى الإحسان . فإن صدقة زائدة تفرى زيادة السائلين بدلاً من التخلص منهم . ومن ناحية أخرى ، حينما يكون المرء فى سفر ماراً بسرعة فإنه يلذ له أن يتبدى للفقير فى الطريق على هيئة إلهة الحظ ، وأن يلقى إليه بصدقة غير منتظرة . وإن موقع القرية والقصر ليجمع مثل هذا الوضع ميسوراً : وهذا شىء طالما فكرت فيه من قبل . فعند إحدى نهايات القرية يقوم النُّزُل ؛ وفى الأخرى تقيم أسرة أبناءها طيبون : فلنضع فى كل من هذين المسكنين مقداراً صغيراً من المال . وسيعطى لا للداخل ، بل للخارج من القرية ، ولما كان البيتان على حافة الطرق المؤدية إلى القصر فإن جميع من يريدون سلوكها يتجهون إلى هذين المسكنين .

— نعم ، هكذا قال إدورد ، ولننفذ هذا حالا ؛ ومن بعد فلننظر إن شئنا فى التفاصيل .

وذهبوا إلى صاحب النُّزُل ، وعند الأسرة الهرمة ، ونفذوا ما أرادوا . فقال إدورد للمسكنين (وهو يصعد معه إلى القصر) : إنى أرى جيداً أن كل شىء فى المسالم يتوقف على فكرة صائبة وعزيمة راسخة . وهكذا أصبت فى الحكم على الأعمال التى أجرتها زوجتى فى البستان ، وألهمتى أفكاراً أفضل ، سرعان ما أفضيت بها إليها . أقول هذا كي لا أحنى عليك أمراً . — لقد وقع هذا فى خَلْدى ، لكننى لا أرافئك على ما فعلت . لقد أوقعت فى نفسها الاضطراب ، فتركت كل شىء معلقاً ، وفى هذه المسألة أثبرت حفيظتها ضدنا ، لأنها تتجنب الحديث عنها ، ولم تعد تقودنا إلى

كوخ الطحلب ، على الرغم من صعودها إليه مع أوتيلي حينما تختليان .
 - لكن لا نجعل هذا سبباً لانبثات جبل الرجاء ، هكذا أجاب
 إدروود . فحينما أقنع بأن شيئاً ما صواب ، وأنه يمكن ، بل يجب ، فعله ،
 فإني لا أرتاح حتى أراه قد نُفِّذَ وتم . وإني لأُرجى أن يكون في وسعنا
 الوصول إلى بغيقتنا برفق . ولنتخذ على سبيل التسلية في المساء كموضوع
 لحديثنا الموائد الإنجليزية ، ووضعها مرفقةً بالصور المحفورة ؛ ثم تتبع هذا
 بعرض مشروعات الخاص بتنظيم الضيعة ، ولنتناول أولاً الأمر على هيئة
 مسألة للحل وللمجرد التسلية ، وضرعان ما تصير أمراً جيداً » .

وبعد أن أفاضوا قِدادح الرأي على هذا النحو ، فتحوا الكتب التي
 يرى فيها تخطيط المنطقة ومنظرها الريفى ، في حالته الطبيعية الفطرية
 الوحشية ؛ وفي أوراق أخرى التغيرات التي استحدثتها الصناعة لاستثمار
 الفوائد القائمة بها . ومن هنا كان من السهل عليهما أن يعرجا على ضيعتهما
 الخاصة والبقاع المجاورة لها وما يمكن إحداثه من تزويق فيها وتجميل .

وكان مشغلة شائعة أن يتخذ مشروع الكابتن أساساً للبحث . لكن
 لم يكن في الوسع التخلص نهائياً من الأفكار الأولى التي انبعتها شرلوت
 حتى الآن في أعمالها . غير أنهم استطاعوا إيجاد وسيلة لبلوغ الرابية عن
 طريق مطلع أيسر ، ورغبوا في إقامة صُفَّة للترويح في أعلى على المنحدر ،
 قبالة خميلة جميلة ، صُفَّة يلزمها أن تكون على اتصال بالقصر ، ويمكن رؤيتها
 من خلال نوافذ هذا البناء ، ومن الصُفَّة يتنزه النظر في القصر والبساتين .
 والسكابتن ، بعد أن أفكر في كل شيء وقدره ، طرح على البحث
 طريق القرية والسور المصائب للنهر ، والأترية المخصصة للردم . . . وتابع
 حديثه قائلاً :

— ببناء طريق معبد يؤدي إلى أعلى ، يمكننا أن نظفر بما نحتاج إليه من الأحجار لبناء السور . وإذا ما مُزج مشروع بآخر نفذ كلاهما بطريقة أسرع وأقل نفقات .

— هاك ما يعنيني ؛ هكذا قالت شرلوت : يجب قطعاً تقديم شيء ثابت وحينما نعرف كم سيتكلف هذا العمل ، سنجزىء المبلغ على أشهر ، إن لم يكن على أسابيع . وسأكون أنا أمينة الصندوق ، فأدفع المطلوبات ، وأنظم الحسابات .

— يبدو أنك لا تتقين فينا كثيراً ، هكذا قال إدورد .
— كلا ، لا أثق فيكم فيما يتصل بالمسائل الخيالية . فنحن أقدر منكم على إحكامها .

وأعدوا الترتيبات اللازمة ؛ وبدأت الأعمال بهمة ، وكان السكابتن يُسهر لها قلبه ويرعاها باستمرار ، واستطاعت شرلوت ، كل يوم تقريباً ، أن تتحقق من صدق نظراته وحكمته . وهو بدوره قد ازداد معرفة بشرلوت ، وصار من الميسور لها أن يعملأ سويا ويصلا إلى غاية فيها فائدة .
إن مَثَل الأعمال مَثَل الرقص : فالأشخاص الذين يخطون خطوة واحدة يجب أن يعتمد كل منهما على الآخر ؛ ويجب أن يفشأ عن هذا بالضرورة إحسان متبادل ؛ والشاهد الصادق على أن شرلوت منذ أن عرفته حق معرفته أضمرت لضيئفها الخير حقاً ، هو أنها تركته ، بكل هدوء وبلا أدنى تملل ، يهدم مستراحاً جميلاً عنيت هي باختياره خاصة وزينته في أعمالها الأولى ، وقد كان لا يتفق مع مشروع السكابتن .

الفصل السابع

ولما كانت شرلوت قد وجدت مع صديق المنزل شاغلا مشتركا ، فقد حدث عن هذا أن ازداد تقرب إدورد من أوتيلي . وهذا قد شعر فعلا منذ حين بميل سرى رقيق . ولقد كانت أوتيلي بارعة المجاملة رقيقة حواشي الطبع لينة المهتصر بالنسبة إلى الجميع ، لكن غرور إدورد خيل إليه أنها أكثر مجاملة له منها للآخرين . والشئ الذى لا شك فيه هو أنها لاحظت بدقة أى ألوان الطعام آثر عنده وكيف يتشهاها ؛ ولم يَفُتْها أن تراعى ما يتناوله من السكر للشاى ، ومثل هذه اللوازم ؛ وسهرت بعناية ظاهرة على حمايته من تيارات الهواء ، وقد كان إدورد يتأثر بها بدرجة مفرطة ، مما أفضى أحيانا إلى منازعات مع زوجته ، لأنها لم تكن تجد مطلقاً الغرف مُهَوَّاةً تهوية كافية . ثم امتدت عناية أوتيلي إلى المَفسِرس والْبَقَلَة ، وسعت لاستباق رغبات البارون واستبقاء ما عسى أن يحدث له قلقا ومللا ، إلى درجة أنها صارت بعد حين قليل ملاكا حارسا له وحفيظا ، ولم يعد فى وسعه الاستبعاد عنها ، وأضحى يستشعر الألم من غيبتها . أضف إلى هذا أنها كانت تبدو أكثر تفتحا وصراحة حينما يَحْتَلِيَان .

وبرغم تقادم السنين فقد احتفظ إدورد بشئ من مظاهر الطفولة يتفق تماما وشباب أوتيلي . ولذلها أن يعيدا ذكر الأزمئة الأولى التى التقيا فيها ، وكانت هذه الذكريات تعود إلى العهد الأول لغراميات إدورد مع شرلوت . وزعمت أوتيلي أنها لا تزال تحتفظ بذكرى هذين الماشقين ، بحسبانهما أجل زوج من العشاق فى البلاط ، ولما كان البارون لم يشأ الاعتقاد بأنها لا تزال تحتفظ بهذه الذكريات التى ترجع إلى طفولتها الأولى ، فقد

أكدت هي أنها تذكر جيداً حادثة بمينها : هي أنها ، وقد دخل يوما ، قد أخفت رأسها في حِصْن شرلوت ، لا خوفاً ، بل تحت تأثير المفاجأة الطفولية ، وكان في استطاعتها أن تضيف : لأنه أحدث في نفسها تأثيراً حياً ، ولأنه راقها كثيراً .

ونظرا إلى الوضع الجديد الذي وجدا فيه ، ترك الصديقان كثيراً من الأعمال معلقة ، وهى الأعمال التى عالجها سويا ، إلى درجة أنهما وجدا من الضرورى استعراضها ، وتخطيط بعض المذكرات ، وكتابة جملة من الرسائل . فعادا إذاً إلى مكتبهما ، حيث وجدا الناسخ المعجوز عاطلا من العمل . فأنشأ يميلان ، وسرعان ما أمدها بالعمل ، دون أن يلاحظا أنهما قد استراحا من كثير من الأشياء التى اعتادا من قبل أن يقوموا بها بأنفسهما . غير أن الكاتبين لم يستطع إتمام أولى مذكراته ، كما لم يقدر إدورد على الانتهاء من رسالته الأولى : إذ عانيا صعبا حينما فى التفكير والتحرير . وأخيرا سأل إدورد ، وقد كان أكثرهما انحراف مزاج : كم الوقت .

لكن حدث أنه للمرة الأولى منذ عدة سنوات نسى الكاتبين ملء ساعته ذات الثانى ، وتبيننا ، أو على الأقل استشعرا أن سير الزمان بدأ يصبح بالنسبة إليهما شيئا لا يكاد يعنهم .

وبينا بدأ نشاط الرجلين فى الفتور ، ازداد نشاط السيدتين . والواقع أن مسار الحياة المعتاد فى الأسرة ، كما ينتج عن الأشخاص الذين يكونونهما وعن الملبسات الضرورية التى تحيط بهما ، يمكن بذاته أن يسمح بوجود ميل غير عادى أو عاطفة ناشئة ؛ ولعل زمنا طويلا بدرجة كبيرة سيمر قبل أن يموت العنصر الجديد الذى أدخل فى الأنبوبة اختمارا ظاهرا ، وينتشر فوق الحافة على شكل موجات من الرغبة والرَّبْد .

ولقد ولدت الميول المتبادلة التي نشأت بين أصدقائنا هؤلاء أجل أثر :
فقد تفتّحت القلوب ، وفاضت عاطفة إحسان شاملة من عاطفة إحسان
خاصة ، وشعر كل زوج بأنه سعيد ، وسر بسعادة الآخر .

ومثل هذا الموقف خلّيق بالسمو بالروح والارتفاع بالقلب ، فيصير
كل ما يفعله الإنسان وكل ما ينجزه ذا نزوع إلى اللانهاى . فلم يمد هؤلاء
الأصدقاء مغلقين بعد فى مساكنهم ؛ وامتدت زهاتهم إلى مسافات بعيدة ؛
وبينا كان إدورد يبحث الخطى إلى الأمام مع أوتيل لاختيار الطرق التي
بسلكونها والتقدم أمام ركبهم ، كان الكابتن برفقة شرلوت يقتفى آثار
هذين الكشافين ؛ وساروا يتجاذبون بينهم أحاديث جدية ، ويعنون النظر
فى أماكن اكتشفت حديثا ، وفى آفاق لم تكن متوقعة ولا منتظرة .

وذات يوم غادروا القصر من باب الجناح الأيمن ، وهبطوا ناحية
النزل ، وعبروا الجسر ثم عمووا زهتهم صوب المستنقعات وساروا فى
محاذاة شواطئها إلى أبعد ما تعود الناس أن يتابعوا به الماء ، حينما يكون
الساحل قد كف عن أن يكون معبداً ، إذ سُدّ براية ذات أدغال ، ومن
بعيد تعترضه الصخور .

وعلى الرغم من هذا فإن إدورد الذى خبر من قبل إبان رحلاته
للتنصص طبيعة المنطقة المجاورة قد أوغل فى المسير ، وفى صحبته أوتيل ،
خلال طريق تموجه الأشواك ، وهو يعلم جيداً أن الطاحونة القديمة ،
المغمورة فى الصخور لا يمكن أن تبعد عن مكانه كثيرا . لكن هذا
الطريق ، الذى لم يلجّه كثيرون ، سرعان ما تبدد رسمه وامسحت معالمه ،
فضلاً فى الغابة الكثيفة ، بين الصخور المغطاة بالطحلب . لكن ضلالهم
لم يستمر طويلاً ، لأن ضجة العجلات سرعان ما أنبأتها بأنها بالقرب

من المكان الذى ينشدانه .

ولما تقدما على صخرة بارزة ، أبصرا أمامهما ، فى الوادى ، البيت الخشبي العتيق ، تملوه سمرة وجمال ، وتُظِلُّه صخور وعرة وأشجار باسقة . واستقر عزمهما بجسارة على المهبوط من فوق الطحلب والصخور المتكسرة ، وفى طليعتهما إدورد . فلما عاد يبصره إلى الأعلى ورأى أوتيلى تتبعه بخطوات خفيفة دون ما وجل ولا اضطراب ، وفى آثران بلغ غاية الرشاقة ، خُيل إليه كأن كائنا سماوياً يَحُلِّقُ من فوقه . وحينما كانت فى بعض الأحيان فى الواضع الوعرة تقبض على اليد التى يمدّها إليها ، أو تستند فعلاً إلى كتفه ، لم يكن يقوى على كتمان أن هذه التى تمسه إنما هى امرأة ، امرأة رقيقة عذبة ، حتى كانت تحالجه أمنية أن يراها تنهاوى وتنزلق ، كما يتيسر له أن يمسك بها بين ذراعيه ؛ وأن يضمها إلى قلبه . لكنه لم يكن ليفعل هذا على أية حال ، لأكثر من سبب : فقد كان يخشى إهانتها وجرح شعورها . كيف نفسر هذا ؟ هذا ما نقص عليك نبأه الآن . فانهما حينما بلغا الوادى ، وجلس إدورد فى مواجهة أوتيلى ، يتفياك ظلال الأشجار السامقة حول منضدة ريفية ، ثم طلب من الطحانة المهذبة أن تبحث عن لبن ، ومن زوجها المرح أن يستبق إلى استقبال شرلوت والكابتن ، أنشأ إدورد يقول ، فى شيء من التردد :

« عندى رجاؤى إليك ، يا عزيزتى أوتيلى ؛ واضربى عنه صفحاً جميلاً ، إن لم يَرُقْكَ . إنك لا تكتمين (ولست فى حاجة إلى هذا الكتمان) أنك تحملين تحت ثيابك وفوق صدرك صورة أبيك ، هذا الرجل الكريم الذى لم تكادى تريه وتعرفينه ، ويستحق من كل وجه مكانة فى قلبك خاصة . لكن اغفرى لى أن أقول لك إن هذه الصورة كبيرة بدرجة مفرطة ، وهذا

المدن وذلك الزجاج يثيران في نفسى مختلف ألوان القلق ، حينما تأخذين طفلاً بين يديك ، وحينما تحملين شيئاً أمامك ، أو تترجح العربية ، أو نجوس خلال الغابة ، ومنذ قليل ، حينما كنت تهبطين الصخر . فإن نفسى لتمتلى قشعريرة لفكرة أن صدمة مفاجئة ، أو هبوطاً ، أو ضغطاً يمكن أن يؤدي إلى جلب الشر عليك . فبحق صداقتى لك إلا خلعت هذه الصورة ، لا من ذاكرتك ، ولا من غرفتك - بل بالعكس : أحليها خير مكان وأقدس موضع في مخدعك - لكن أبعدى عن صدرك شيئاً يجملنى الخوف - البالغ فيه ، ربما - أحكم بأن قربه خطر عليك .

وكانت أوتيل تستمع له في صمت وبعينين منكسرتين ؛ وإذا بها ، دون عجلة ولا تردد ، تفصل بصرها عن الأرض وترفعه قليلاً إلى السماء ، ثم تفتح السلسلة ، وتجذب الصورة من صدرها ، وتضغطها على جبينها وتقدمها إلى صديقها قائلة :

« احتفظ بها حتى نبليغ القصر . وليس لدى خيراً من هذا شاهد على مقدار تقديرى لقلقك الصادر عن خالص الود والصداقة » .

لكن إدورد لم يجسر على ضم الصورة إلى شفتيه ، بل أخذ كف أوتيل وضمها إلى عينيه . ولعل هاتين اليدين كانتا أجمل يدين تصافحتا وتضاغطتا . فأحس بأن قلبه قد انزاح عنه عبء فادح ، وبأنه يرى الحاجز الذى كان يفصله عن أوتيل قد زال .

أما شرلوت والكابتن فقد اقتادها الطحان خلال طريق أكثر تمبيداً ، وازداد السرور باللقاء ، وتناولوا بعض المنعشات . ولم يشاءوا العود من نفس الطريق ، فاقترح إدورد اتخاذ طريق من الصخر ، على المدوة الأخرى من الجدول ، فإذا صعدوه بشيء من الجهد ، وجدوا أنفسهم في

مواجهة المستنقعات . ثم اخترقوا كثيرا من الحائل ، وتمدت أمام نواظرهم في الريف المنبسط قرى ودساكر وضياح ، تحيط بها البراري الخصبة الخضراء ؛ وبالقرب منها تجلت في إحدى المزارع فوق الأعلى وسط الغابة خلوة هادئة . ولكن ثراء الإقليم تكشف عن خلف وعن أمام ، بكل جماله ، فوق الراية التي بلغوها عن طريق منحدر رقيق ؛ ومن هنا بلغوا أيكة بديعة ، وعند المخرج صاروا إلى صخرة في مواجهة القصر .

كان سرورهم فياضاً حينما وصلوا هذا المكان على نحو يكاد أن يكون غير متوقع . لقد داروا حول عالم صغير ، وتلبّثوا ملياً عند المكان الذي سيقام عليه البناء الجديد ، ووجدوا أنفسهم أمام القصر .

ثم هبطوا إلى الكوخ الطلحي ، ولأول مرة جلس فيه الأربعة المتزهون . وطبيعي أن يتفق إجماعهم على التعبير عن الرغبة في رؤية الطريق ، الذي سلكوه في ذلك اليوم ببطء وفي شيء من المشقة ، مرسوماً ومعبداً على نحو يهيء لجماعة أن تشقه يُنشر وسهولة . وأدلى كل منهم باقتراحه ، وقدروا أنه لو كان الطريق الذي كلفهم ساعات طوالاً للسير قد عبّد جيداً ، لكلفهم ساعة واحدة للعودة إلى القصر . واقترح أحدهم إنشاء جسر تحت الطاحونة في الموضع الذي يصب فيه الجدول في المستنقعات من شأنه أن يقصر من المسافة وأن يزيد في جمال المنظر — غير أن شرلوت وقفت قليلاً من تحديق هذا الخيال المتدّرع ، مشيرة إلى ما يتكلفه مثل هذا المشروع من نفقات .

فأجاب إدورد : « عندى طريقة جيدة . فهذه الضيعة القائمة في الغابة ، التي تبدو جميلة الموقع ولكنها لا تُفعل إلا القليل ، يجب أن نبنيها ، وأن نخصص المال الناتج لمثل هذه التجميلات . وعلى هذا النحو ، تدفع لنا

المُتَنَزِّهَات الثمينة بملاذها العذبة فوائد رأس مال أجيء استغلاله ، بينما نحن اليوم لا نحصل بعد الجهد إلا على دخل تافه في نهاية العام ، بعد تصفية حسابها .

فلم يكن لشرلوت ، وهي المدبرة الأريية ، أن تقيم كبير اعتراض على هذا الرأي ؛ بل المسألة كانت من قبل موضع نظرهم . فاقترح السكاين توزيع الأرض بين الفلاحين القاطنين في الغاية ؛ لكن إدورد فضل وسيلة أجمع وأيسر ، هي أن تعطى المستأجر الحالي ، وكان قد تقدم بهذا العرض من قبل ؛ وأن يدفع على أقساط ؛ وكذلك تنجز الأعمال المقترحة على دفعات . ومثل هذا التدبير الحكيم المستحصى كان خليقا أن يظفر بموافقة الجميع دون أدنى تحفظ . وهام الأصدقاء أولاء يرون بعين خيالهم الطرقات الجديدة مخططة ، ويرجون الكشف عن آفاق جديدة ومواقع بديمة ، إن في المنطقة المجاورة أو على طول المجرى .

ولكى تتضح التفاصيل ، نشروا في المساء أمامهم المشروع الجديد ؛ ودرسوا الطريق الذي سلكوه ، وما يمكن إدخاله عليه من إصلاحات في بعض المواضع ، ثم عكفوا على المشروعات القديمة يناقشونها ويمزجون بينها وبين الآراء الجديدة ؛ ووافقوا فوراً على مكان البناء الجديد ، في مواجهة القصر ، حيث تنتهي إليه الطرقات عند امتدادها .

وخلال هذه المناقشة كلها ، اعتصمت أوتيلي بالصمت ، وأخيراً وضع إدورد أمامها التصميم ، بعد أن كان موضوعاً أمام شرلوت حتى ذلك الحين ، ودعاها في الآن نفسه إلى إبداء رأيها . فلما ترددت قليلاً في الإجابة ، ألح عليها بلطف في الكلام ، وقد كان باب الاختيار لا يزال مفتوحاً ، إذ لم يتقرر بعد شيء .

فقلت ، وهى تضع إصبعها على أعلى نجدٍ فى الراجية : « ها هنا أرى أن يبنى المنزل . أجل ، لن يكون فى الوسع رؤية القصر ، إذ تحجبه الغابة ، لكن سيجد المرء نفسه كأنه فى عالم جديد غريب لأن القرية وجميع المساكن ستختفى معاً . وإن المنظر على المستنقعات والطاحونة والروابي والجبال والإقليم ليقض فتنة وسحرا بدرجة خارقة : إذ لاحظت هذا وأنا مارة » .

فصاح إدورد : « الرأى ما رأته ! كيف لم تخطر ببالنا هذه الفكرة ؟ انظرى ، أوتيلى ، أليس هذا رأيك ؟ » ثم أخذ قلماً ورسم بطريقة مكبرة مستطيلاً طويلاً فى أعلى الراجية . فأدمى هذا قلبَ الكاتبين : إذ أسف على تشويه هذا التصميم الذى رسمه بفاية العناية والدقة والنظافة ؛ ومع هذا فقد كتم انفعاله ، بعد أن عبر عن سخطه بلطف . وقال : « إن أوتيلى على حق . أولاً نقوم برحلة طويلة لتناول القهوة ، أو أكل سمكة لا نجدها بمثل هذه الشهية فى منزلنا ؟ إن الإنسان لينشد التنويع والجدة فى الأشياء . ولقد أصاب أجدادك حينما شيدوا القصر هنا ، لأنه فى مأمن من الرياح ، وفى متناوله كلُّ الأشياء الضرورية للحياة ؛ ولكن البناء الذى يعدُّ للحفلات والنزهات أولى منه للسكنى يمكن أن يقام خير إقامة فى هذا المكان العالى ، ويستطيع المرء أن يقضى فيه أجل الساعات إبان الطقس البديع » .

وكلما تحدثوا فى هذا المشروع ، ازداد طهور منافعه . ولم يقو إدورد على كتمان إعجابه بأن تكون صاحبة هذه الفكرة هى أوتيلى ، حتى إنه زُمى بها وكأنها فكرته الخاصة .

الفصل الثامن

وفي اليوم التالي ، زار الكاتبان المكان منذ الصباح الباكر وبدأ بأن
خط تخطيطاً خفيفاً . ولما قرعهم جميعاً على تنفيذ ما رأوه وهم يشاهدون
المكان عينه . رسم تصميماً دقيقاً ، مصحوباً بالتقديرات اللازمة ، ولم ينقص
شيء من أجل الإعدادات الضرورية . وسرعان ما تناولوا مسألة بيع الضيعة .
وهكذا وجد الصديقان ميداناً للنشاط جديداً .

ونبه الكاتبان إدوردَ إلى أن الأدب ، بل الواجب يقضى بالاحتفال
بعيد ميلاد شرلوت عن طريق وضع الحجر التأسيسي . ولم يكن من العسير
تحويل إدورد عن كراهيته القديمة لثل هذه الأعياد ، لأنه اقترح فجأةً
الاحتفال بعيد ميلاد أوتيلي — وموعده يأتي بعد — بطريقة جليمة
لا تقل روعة .

أما شرلوت ، وقد تبنت لها المنشآت الجديدة ونتائجها خطيرة ، جدية ،
بل ومثيرة للخاوف والقلق ، فقد سُئِلَت بمراجعة التصميمات وحساب
الوقت وتقدير النفقات ؟ وقل اللقاء أثناء النهار ، وازداد الحرص على اللقاء
في المساء .

وفي هذه الأثناء كانت أوتيلي قد وضعت بين يديها كل شئون المنزل ؛
وهل كان ينتظر غير هذا ، مع مسلكها هذا الهاديء الرزين ؟ لقد دفعت
بها طبيعتها إلى المشاغل المنزلية ، أولى منها إلى المسائل الدنيوية العامة والحياة
الخارجية . وسرعان ما لاحظ إدورد أنها لم تكن تصاحبهم في الزهرة إلا
من باب المجاملة وحدها ، وأنها لم تكن تطيل معهم السهر في الهواء الطلق
إلا أداء لواجبها نحو هذه الجماعة ؟ وأنها كانت أحياناً تعتذر بشئون المنزل ،

كما تعود إليه . لهذا نظم النزهات المشتركة على نحو يجعلهم يعودون إلى القصر قبل مغيب الشمس . كما أنه استأنف عادته التي انقطع عنها منذ زمان طويل ، وهي أن يقرأ لأصدقائه قصائد من الشعر ، خصوصاً تلك التي تعبر عن حب طاهر ، ولكنه مشبوب .

وصار من عادتهم أن يختلفوا في المساء إلى منضدة صغيرة يأخذ كل منهم مكانه حولها بانتظام : فكانت شرلوت تجلس على الأريكة ، وقبالتها أوتيلي جالسة على كرسي ذي مساند ، بينما يأخذ الرجلان مكانهما في الجانبين الآخرين ، فكان إدورد يجلس وعن يمينه أوتيلي ، وإذا بدأ القراءة كان يضع النور إلى ناحيتها . وحينئذ كانت تتقدم للنظر في الكتاب ، لأنها هي الأخرى تثق في عيونها أكثر من ثقها في شفاه الآخرين . وكان البارون من ناحيته يتقدم إليها كما ييسر لها هذا الأمر . وفي أحيان كثيرة كان يقف وقفات أطول مما يجب ، كيلا يقلب الصفحة قبل أن تكون قد وصلت إلى نهايتها .

ولحظت شرلوت والكابتن هذه المسألة بوضوح ، وكانا أحياناً يتبادلان النظرات باسمين ؛ ولكنهما دهشا من شاهد آخر تبين فيه عرساً ميل أوتيلي الخفي . فقد حدث ذات يوم أن أضاعت زيارة ثقيلة جزءاً من المساء على هذه الجماعة الصغيرة ، فاقترح إدورد على أصدقائه أن يظل سامرهم قائماً . إذ شعر بميل إلى استئناف العزف على نايه ، الذي هجره منذ زمن طويل . فبحثت شرلوت عن السوناتات التي اعتادت وزوجها أن يعزفاها سوياً ؛ غير أنها لم تجد لها ؛ وبعد قليل من التردد ، اعترفت أوتيلي بأنها حملتها إلى مخدعها . - إذن تستطيعين وتودين أن تصاحبيني في العزف ؟ هكذا قال إدورد ، وفي عينيه وميض السرور .

فأجابت : أحسب أن هذا ممكن .

وراحت تبحث عن الموسيقى وجلست إلى ذات المفاتيح (الكلافسان) ؛ وأرعى السامعون أسماعهم وأعجبوا ببراعة أوتيل في دراسة القطع الموسيقية ، وازدادوا إعجاباً بمهارتها في مصاحبة إدورد في العزف : ولا يكفي أن نقول « المهارة في المصاحبة » ، فهذا ليس التعبير الدقيق ، لأنه إذا كان مفهوماً من شرلوت ، بما لها من براعة ومحاولة للإرضاء ، أن تقف هنا ، وتسرع هناك ، حرصاً على إرضاء زوجها الذي كان يُبسط في الميزان (الموسيقى) حيناً ، ويسرع حيناً آخر — فإن أوتيل ، التي استمتعت أحياناً إلى عزف السوناتات ، بدت كأنها تعلتها على النحو الذي يصاحبها به إدورد ؛ حتى لقد بلغ من معرفتها بعبوبه أنه نشأ عن هذا نوع من العزف ملىء بالحياة ، لم يكن يسير حقاً وفقاً لقواعد الميزان الموسيقي ، ولكنه كان يحدث في الأذن وقماً عذباً جذاباً ، ويلد الملحن نفسه أن يسمع مؤلفه مشوهاً على هذا النحو البديع .

أما شرلوت والكاتب فقد شاهدا في صمت هذا المنظر الغريب ، غير المتوقع ، يخالجهما شعور كشعور الإنسان حيناً يرى الأطفال يعملون أشياء لا يقرهم عليها ، نظراً لنتائجها المثيرة للذعر ، ولكنه لا يستطيع مع هذا أن يلومهم عليها ، بل يحدث أحياناً أن يحسدهم عليها . فالواقع أن الليل المتبادل فيما بين شرلوت والكاتب كان هو الآخر يسير قديماً ، بل لعله أن يكون على نحو أدعى إلى الخطر ، لأنهما كانا أكثر جدّاً وأشد ثقة بأنفسهما ، وأقدر على كتمان عواطفهما .

وها هو ذا الكاتب قد بدأ يشعر بأن عادة لا يستطيع مقاومتها تهدده بأن سيكون أسيراً لشرلوت . فعزم على أن يتجنب الأوقات التي اعتادت فيها

أن تزور المزروعات ، فكان يستيقظ في الصباح الباكر ، ويمطى الأواصر خاصة بكل شيء ، ثم يعود إلى العمل في مسكنه بالجناح الأيمن . وخيّل إلى البارونة في الأيام الأولى أن هذا من قبيل المصادفة ، فكانت تبحث عنه في كل مظان وجوده ؛ وأخيراً فهمت السر في المسألة ، وقدرت موقفه كما قدرته خير تقدير .

لكن حرصه على تجنب الخلوة مع شرلوت لم يمنعه من زيادة الاهتمام والإسراع بإنجاز المعدات اللازمة للميد الرائع الذي سيحتفل بميلادها ، وقد قرب مواعده . ففي نفس الوقت الذي عجل فيه ببناء الطريق الممتد خلف القرية صاعداً ، كان يأمر بالعمل نازلاً ، بحجة استغلال الحجر ؛ وهياً كل شيء وقدره بحيث يتم وصل جزئى الطريق في آخر ليلة . وكان حفر الأساس للمنزل الجديد لا يزال في مستهلّه ، إنما نحتوا حجراً أساسياً جديلاً ؛ وحفروا مرتبة وهياًوا البلاط الذى سيفطيه .

ولم يكن من شأن هذا النشاط الخارجى ، وهذه النوايا الطيبة المستترة ، وهذه العواطف الحبيسة ، لم يكن من شأن هذا كله أن يجعل الحديث شائعاً حاراً حينما يلتئم عقد الجماعة ، إلى درجة أن إدورد ، وقد شعر ذات مساء بشيء من الفراغ ، أوزع الكابتن بتناول كئانه ومصاحبة شرلوت على البيان ذى المفاتيح . فلم يقو صديقهما على مقاومة هذه الرغبة العامة ، فعزفا سوياً — فى عاطفة وسهولة وحرية — قطعة من أصعب القطع ، سراً بهما والاثنتان المستمعان إليهما أيتما سرور . فتواعدوا على العود إلى العزف صراراً وعلى زيادة المراتب سوياً .

وهنا قال إدورد لأوتيللى : « لهنّما يعزفان خيراً منا ، فلنعجب بهما ، لكن لنعرف أيضاً كيف نجد اللذة سوياً » .

الفصل التاسع

وإني يوم الميلاد ، وكل شيء على أتم استعداد : أولاً السور المتأخّر لطريق القرية الرافع له ، على طول النهر ، ثم الطريق المار بجوار الكنيسة الذي يسار جنباً المسلك الذي رسمته شرلوت ، ويتعرج على سفح الصخور ، تاركاً - أولاً عن يسار - كوخ الطحلب من فوقه ، ثم - بعد دورة - يتركه مرة أخرى عن يسار ، لكن من تحته ، إلى أن يبلغ أخيراً قمة الراية على درجات .

فاحتفل حشد كبير ، ما لبث أن ذهب إلى الكنيسة ، حيث كان جميع القرويين مجتمعين بملابس العيد . وبعد الحفل الديني ، خرج الأطفال والشبان والرجال أول من خرج ، وفقاً للنظام الموضوع ؛ وتلاهم سادة القصر ومعهم أصدقاؤهم وحاشيتهم ؛ وبقى على أثرهم الفتيات والأخوات الكبريات فالسيدات فكُنَّ خاتمة الموكب .

وفي منعطف الطريق هُتِيَ مكان مُشرف على الصخرة ، دعا الكابتن إليه البارونة والضيوف كيما ينالوا قسطهم من الراحة . ومن هنا كانوا يستشفون إلى كل الطريق ، ويرون الرجال واصلين إلى أعلى ، والنساء قادمات في إثرهم ، وها هن الآن يمررن أمام الجماعة . وكان الجورائماً ، والمنظر فاتناً خلافاً . فتأثرت شرلوت وملسكتها الدهشة ، فضغطت برفق على يد الكابتن وحنان . وتبعوا الجماعة وهي تتقدم برفق مكوّنة دائرة حول مكان المنزل المقبل . ودُمعي المسالك وأسرته والممتازون من الضيوف إلى النزول حتى المحفور ، حيث تهيأ الحجر الأساسي ، وقد أُسند من جانب ، للوضع . وقام البناء مرتدياً ثوب العيد وممسكاً المالج بيده والمطرقة بأخرى ،

وألقى خطاباً بالشعر بديعاً ، لا نستطيع أن نورده نثراً إلا بطريقة ناقصة .
قال : « هناك ثلاثة أشياء تراعى فى كل بناء : أن يكون جيد الموضع ،
جيد الأساس ، جيد الصنع . والأول من شأن المالك : فكما أن الأمير
والرعية هم المسؤولون عن تعيين المكان الذى سيدبنى فيه فى المدينة ، فإن من
حق المالك فى الريف أن يقول : هنا سيقام مسكنى ، لا فى أى مكان آخر » .
فلم يستطع ادورد وأوتلى أن يتبادلا النظرات لدى سماعهم هذه
الكلمات ، على الرغم من أنهما كانا قريبين والواحد فى مواجهة الآخر .
« والسؤال الثالثة ، أى إنجاز البناء ، هى مهمة كثير من الصنائع بل قليل
منها فقط هو الذى لا يساهم فيها . أما المسألة الثانية ، وهى التأسيس ،
فهى من اختصاص البَنَّاء ، وفى وسعى أن أقول بكل جرأة وصراحة إنها
أهم شىء فى العملية كلها . إنها مهمة جدية خطيرة ، وإن دعوتنا أيضاً
لخطيرة : لأن هذا الاحتفال يقام فى الأعماق . فهنا وفى داخل هذا المحفور ،
أنتم تشرّفوننا بحضوركم شهوداً على عملنا المستمر . وهما نحن أولاء سنضع
هذا الحجر الجيد النحت ، وعمما قليل لن يكون فى الوسع النفوذ إلى هذه
الحفرة التى تلمع فيها الآن شخصيات محترمة رائعة : لأنها ستكون قد مُلئت .
« وهذا الحجر الأساسى الذى يشير بزوايته إلى الزاوية اليمنى من
البناء ؛ وبقطعه المنتظم يشير إلى انتظامه ، وبأوجهه العمودية والأفقية إلى
عموديته ومستوى جميع جدرانه ، وكل حواجزه — هذا الحجر نستطيع أن
نرقده ببساطة كما هو ، لأن ثقله كفيل بثبتيته ؛ لكننا هنا أيضاً فى
حاجة إلى الجبر والملاط : فكما أن الناس ذوى الميل المتبادل بالطبيعة يصيرون
أعظم اتحاداً حينما يربطهم القانون ، فإن الأحجار التى تلاؤم أشكالها تزداد
تماسكا بفضل هذه القوى الرابطة ؛ ونظراً إلى أنه من غير اللائق أن يكون

المرء متمطلا وسط العاملين ، فإنكم إن تجددوا غضاضة في العمل هنا وإيانا » .
وما تفوه بهذه الكلمات حتى قدم ماله إلى شرلوت ، فوضعت جيرا
تحت الحجر . ودعى الكثيرون إلى عمل المثل ، وسرعان ما أُرقد الحجر ؛
ثم قُدم المدقُّ إلى شرلوت وإلى بقية الحاضرين ، ليدشّنوا علنا ، وهم
يقرعون ثلاث ضربات ، اتحاد الحجر بالأرض .

وتابع الخطيب حديثه فقال : « إن عمل البناء الذي يُعمل الآن في
وضح النهار ، إنما يتم من أجل السر ، إن لم يكن في السر . فالآساس المنتظمة
البناء تدفن في الأعماق ، ولا يرى الناس الجدران التي تقام فوق الأرض
حتى ينتهي بهم الأمر إلى نسياننا نحن . أما أعمال نحّاتي الأحجار والنحات
الفني فأكثر استعراء للعيون ؛ بل يجب علينا أن نرضى بأن يزيل الرسام
كل آثار أيدينا ، وينسب إلى نفسه عملنا بواسطة جصه وطلائه وألوانه .
« فن أجدر من البناء بالحرص على إجادة عمله بدافع من نفسه ؟
ومن ذا يفوقه في الظفر بأول حاشته له في مرضاة ضميره ؟ فحينما يكتمل
المنزل ، ويوضع البلاط وخشب التجليد ، ويوشى الخارج بالنقوش
والزينات — تنفذ عينه إلى ما وراء هذه الأغلفة كلها ، متبيّنة هذه الروابط
المنتظمة المحسكة التركيب ، التي يدين لها البناء كله بوجوده وصلابته .

« لكن ، كما أن من يقترب إنما لا بد أن يخاف عليه أن يظهر ، رغم
ما يبذل من محاولات ، — كذلك من يفعل الخير سرا يجب أن يتوقع إفساءه
رغم إرادته . لهذا فنحن نريد أن يكون هذا الحجر الأساسي حجرا أثريا ،
فيوضع في هذه الفرض وهذه التجاوب كثير من الأشياء ، كشواهد
قائمة أمام الأجيال القادمة . فهذه الأسطوانات المعدنية الملتحمة تحتوى
مختلف الكتابات ؛ وعلى هذه الصفائح المعدنية نقش أعمال باهرة ؛ وفي هذه

القوادر الزاجية سندفن خمر معتقة ممتازة ، مع بيان عمرها ؛ بل لا يميزنا حتى النقود التي ضربت في هذا العام . وكل هذا إنما ندين به لسخاء المالك ؛ غير أنه لا يزال ثمت مكان لمن يشاء من الأصدقاء أو الحاضرين أن يُنفذ شيئاً إلى مُقبل الأجيال .

وبعد لحظة من الصمت قصيرة ، نفخ البنّاء المكان بعينيه ونظر حواليه : لكن أحداً لم يكن مستعداً ، كما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال ؛ فقد ريك كلٌّ في أمره ؛ وأخيراً قام ضابط شاب مَرِحَ خطيباً فقال :
« إذا كان من واجبي أن أقدم نصيبي فأضع في هذا الكنز شيئاً لا يوجد فيه ، فهأنذا سأقتص من زبي الرسمي زوجاً من الأزرار ، يستحق أيضاً أن يُنفذ إلى الأجيال المقبلة » .

وما تفوه بهذه العبارة حتى اقتلعهما ، واحتذى حذوه الكثيرون . فأسرع النسوة بوضع الأمشاط الصغيرة التي تمسك شعورهن ، وقناني العطر وبعض أدوات الزينة . وأوتيلي وحدها هي التي ترددت : ولكن كلمة ودية من إدورد انتزعتهما من تأمل جميع القرائن التي تناقسا في تقديمها ، نخلعت من رقبتها السلسلة الذهبية التي كانت تحمل صورة أبيها ، ووضعتها بخفة فوق بقية الحلى . هنالك أمر إدورد ، في شيء من اللهفة ، بوضع الغطاء محكماً وإلحامه بالمِلاط في الحال .

ثم استأنف الشاب الذي أظهر في هذه العممية أوفر النشاط موقفه الخطابى وتابع قائلاً :

« هانحن أولاً نضع هذا الحجر للأبد ، كيما نمكّن لأصحاب هذا المنزل الحاليين والمقبلين في أطول لنة وسعادة . لكن في الوقت الذي تدفن فيه أيدينا نوعاً من الكنز ، نحن نفكر ، بمناسبة هذا العمل المنقطع النظر في

متانته ورسومه ، في زوال الأمور الإنسانية وفنائها ؛ فنؤمن بأن هذا الغطاء المحكم الوضع ربما يرفع يوماً ما - وهو أمر لا يمكن أن يتحقق إلا بعد تهدم البناء كله ، هذا البناء الذي لم نشيِّده بعد .

« لكن يجب علينا من أجل بنائه أن نتجنَّب التفكير في المستقبل ، ولنسعد^١ إلى الحاضر ! فعلينا ، بعد انقضاء عيد هذا اليوم ، أن نسرع في إتمام عملنا هذا ، كيلا تضطر أية صناعة تعمل في الأساس الذي أقنأه إلى التوقف ؛ وليرتفع البناء عالياً ولينتهِ سريعاً ؛ وفي استطاعة صاحبه وأسرته وضيوفه أن يتأملوا من خلال نوافذه الإقليم المحيط بمحور و سرور . وعلى صحتهم وصحة جميع الحاضرين أشرب هذا الكأس الدّهاق ! »

وما نطق بهذه الكلمات حتى أفرغ بشربة واحدة كأساً من الزجاج جميلة الصقل ، وقذف بها في الهواء ؛ إذ من علامات السرور المفرط كسر الزجاج الذي استخدم في الحفل . لكن حدث في هذه المرة عكس هذا : فإن الكأس لم يسقط على الأرض ، ولم يكن هذا أمراً خارقاً أو معجزة .

ذلك إن التمجيل بالبناء قد اقتضى إتمام الأساس في الزاوية المقابلة ؛ بل بدأوا فعلاً في رفع الجدران ، وإقامة الصقالات إلى العلو المطلوب . ثم وضعت فوقها الألواح ، بمناسبة هذا الاحتفال ، وسمح لكثير من المشاهدين أن يصعدوا عليها ، وكان هذا لصالح الفعلة . وإلى هذه الناحية قُذِف الكأس ، فتلقاه أحد الحاضرين ، الذي رأى في هذا الحادث فألاً حسناً لنفسه . فأطلع من حوله على الكأس ، دون أن يخرج من يده ، فلاحظوا أن قد نقش عليه الحرفان E و O^(١) متماثين بأناقة . وقد كان هذا

(١) الأول هو الحرف الأولى من اسم إدورد ، والثاني هو الحرف الأول من اسم أوتيلي .

الكأس أحد الكؤوس التي عملت لإدورد في شبابه .
ثم جلا الجمع عن الصقالات ، وتلاهم أنشط الحاضرين فصعدوها
كثما يتملوا بما تبديه من مناظر . وكم راعهم جمال ما تراءى أمامهم في
كل ناحية ! فكم من صور فائنة تجتليها العيون من مرتبة شاهقة ، حينما
تصعد على أقل مصعاد ! ففي داخل الإقليم ، تبدى كثير من القرى الجديدة ؛
وتلايلات بوضوح أخاديد النهر الفضية ؛ بل ادعى أحدهم أنه استطاع أن
يميز نواقيس العاصمة . وإذا رجع المرء ببصره كرة ، رأى من بعيد خلف
الروابي ذات الغابات ، القمم الزرقاء لسلسلة من الجبال ، واستنفض كل
المناطق المجاورة .

وهنال قال أحد الحاضرين : « لم يبق إلا أن تضم الغدران الثلاثة في
بحيرة واحدة ، هنالك لن يعوز هذا المنظر شيء من جمال أو جلال » .
فأجاب الكابتن : « هذا عمل ميسور ، لأن هذه الغدران نفسها
كانت تكون من قبل بحيرة في الجبل » .
فقال إدورد : « كل ما أطلبه هو أن تُعفوا أشجار الدُّب والخور
ذات المنظر الرائع على شاطئ الغدير الأوسط : تأملی — هكذا قال موجهاً
الخطاب إلى أوتيلي بعد أن دعاها إلى التقدم نحوه خطوات : تلك الأشجار
هناك أنا نفسي الذي غرسها بيدي » .

فسأله أوتيلي : « منذ كم من السنين غرسها هناك ؟ »
فأجاب إدورد : « منذ أن أتيت إلى الدنيا ، فيما أظن . أجل ، أى طفلى
المعززة ، لقد غرسها وأنت لا تزالين في المهد . »
ثم عادت الجماعة إلى القصر . وبعد الغذاء دعيت إلى نزهة في القرية ،
لزيارة المؤسسات الجديدة التي أقيمت هناك . وبدعوة من الكابتن ، احتشد

السكان أمام بيوتهم ، لا على هيئة صفوف لكن على هيئة أسر ، بعضها عاكف على أعمال المساء ، والآخر يستريح على مقاعد جديدة . وهي قد فرض عليها هذا الواجب الجميل ، واجب تجديد هذا النظام البديع وتلك الأناقة ، على الأقل كل يوم أحد وكل عيد .

ومن شأن الانتداس المذب الذي من نوع ما نشأ بين أصدقائنا هؤلاء ، أن تقطع عليه مجراه الجماعة الحافلة ، فيتولد إحساس بالضيق . لهذا شعروا بسرور فياض حينما اختلوا من جديد هم الأربعة في البهو الكبير . لكن هذا الشعور الهادي ، عكرت صفوه رسالة جاءت تملن لإدورد حضور ضيوف جديدين في الغد . فقال لشرلوت : لقد توقعنا هذا ؛ فإن الكونت لم يشأ الانتظار ، لهذا سيأتي غداً » .

فقالت شرلوت : « إذن البارونة ليست بعيدة » .

— كلا ، من غير شك : فهي الأخرى ستحضر غداً . وقد استضافونا لمدة ليلة ، واقترحوا الرحيل سوياً بعد غد .

— أوتيلي ، هكذا قالت شرلوت ، لنعجل بإعداد اللازم .

— فسألها أوتيلي : بماذا تأمرين ؟

وبعد أن تلقت منها بعض الإشارات العامة ، ابتعدت . وهنا طلب الكاتب بعض الإيضاحات ، عن العلاقات بين هذين الشخصين لأنه لم تكن لديه عنها إلا فكرة غامضة . فكلاهما كان متزوجاً ، ومع هذا فقد اشتمل كل منهما غراماً بالآخر ، غراماً متبادلاً اضطرب له علناً بيتا الزوجية . ففكر كلاهما في الطلاق . لكن كان هذا ممكناً بالنسبة إلى البارونة ، ولم يكن بالنسبة إلى الكونت . وعلى الرغم من قطع علاقتهما في الظاهر ، فقد بقيت الألفة بينهما ؛ وإذا كانا في الشتاء لا يستطيعان الظهور معاً في

البلاط ، فقد كانا يجدان العوض عن هذا في الصيف في الرحلات والمياه .
وكانا كلاهما أكبر سنًا من إدورد وشرلوت ؛ ولكنهم كانوا جميعًا الأربعة
أصدقاء مُخلصاء منذ التقائهم في البلاط ، واستمرت هذه العلاقات الطيبة ،
على الرغم من أن كلا منهما لم يرض عن كل أحوال الآخر . أما هذه المرة
فقد كان وصولهما ثقيلًا على قلب شرلوت ، ولو حاولت هي أن تفهم السر
في هذا لأدركت أن هذا بسبب وجود ابنة أختها لديها . فهذه الطفلة
الطيبة البريئة يجب أن لا ترى في سنّها المبكرة هذا السَّثل بعيونها .

« كانا يُحسنان صنعاً لو حضروا بعد يومين أو ثلاثة ، هكذا قال إدورد ،
في الوقت الذي عاد فيه إلى الـهـو ، بعد أن نكون قد انتهينا من بيع
الأرض المُستأجرة . فصورة العقْد قد حُضِّرت ، ومعى نسخة منها ، غير
أنى في حاجة إلى نسخة ثانية وكاتبى المجوز مريض الآن » .

فأظهر الكاتبن استعداداه للقيام بهذا العمل ؛ وكذلك شرلوت . لكن
تمت ما يحول دون تكليفها القيام به .

قالت شرلوت : لن تقوى على إنجازّه .

فقال إدورد : الحق أنى في حاجة إلى هذه النسخة بعد غد صباحاً ،
والعمل كثير متراكم .

وهنا قالت أوتيلى : « ستمّ » ، وكانت الورقة في يدها فعلا .

وفي اليوم التالى كانوا يتطلعون من الطابق العلوى عسى أن يكون
ضيفهم قد وصلا ، لأنهم لم يشاءوا التخلف عن الذهاب إلى لُقياهم ، فقال
إدورد : « من هذا الفارس الذى أبصره قادمًا ببطء على الطريق ؟ »
فوصف الكاتبن وجهه بطريقة أدق . فتابع إدورد حديثه قائلاً : « إنه
هو إذًا ! لأن التفاصيل التى تميزها أنت خيرًا منى ، تتفق تمامًا مع المظهر

العام الذى أراه بوضوح الآن . إنه متلر . لكن لماذا يسير راكباً جواده ببطء هكذا ؟ »

وتقدم الفارس ، وقد كان متلر حقاً . فتقدموا لاستقباله بحرارة ، وهو يصعد درجات السلم بخطى هادئة .

« لماذا لم تحضر بالأمس ؟ هكذا قال له إدورد

— فأجاب : لا تروقنى الأعياد الصاخبة ؛ ولكنى أتيت اليوم لـ

أحتفل بعيد ميلاد صديقتى ، احتفل به بعد انقضائه وبلا ضواء .

— وكيف يتيسر لك كل هذا الفراغ ؟ هكذا قال البارون .

— إذا كانت لزيارتى إياكم قيمة ما ، فأنتم تدينون بها لخاطر طرأ على

بالأمس . فقد أمضيت نصف النهار متمتعاً من أعماق فؤادى فى منزل أعدت

فيه السلام ، ثم علمنا من بعد أن القوم يحتفلون هنا بعيد ميلاد البارونة .

فقلت لنفسى : « قد تُتهمين بالآثرة ، إذا لم تشاءى التمتع إلى جانب هؤلاء

الذين دعوتهم إلى السلام والصلاح . فلماذا لا تشاركين أيضاً فى سرور

الأصدقاء الذين ينعمون فعلاً بالسلام ويسمرون على حفظه ؟ » وما قلتُ

حتى فعلت . وهأنذا بينكم كما قررتُ .

فقات شرلوت : « لو أتيت بالأمس لرأيت جمعاً حافلاً ؛ أما اليوم

فلن ترى إلا جماعة صغيرة : سترى الكونت والبارونة اللذين شغلاك من

قبل كثيراً .

فوثب متلر فجأة ، غاضباً ، من بين مضيفيه الذين أحاطوا بهذا الرجل

الغريب ، المطلوب فى كل مكان . وعدا لياخذ قبعته وسوطه .

« أبطاردنى سوء الطالع إذاً فى كل مرة أحاول فيها أن أستريح وأرشفه

عن نفسى ؟ لكن لماذا أخرج عن طبيعى ؟ كان على ألا أحضر ، والآن

لا بد من مغادرة هذا المكان ، لأنى لا أريد أن أسكن تحت نفس السقف الذى يقيم تحته هذان وأنتم بدوركم خذوا حذرکم : فهما لا يجلبان معهما إلا الشر . إذ طبيعتهما كالخميرة التى تنقل الاختمار .

وحاولوا تسكين ثأثرته ؛ لكن عبثا .

ثم صاح : « إن هذا الذى أراه يهاجم الزواج ، ويزعزع ، بأقواله أو فماله ، هذا الأساس الثابت لكل جماعة معنوية ، لى معه حساب . وإذا لم أستطع أن أردّه إلى الصواب ، فلن أقبل مشاركته فى شيء . الزواج هو مبدأ كل حضارة وتاجها الذى يزينها . إنه يرقى حاشية الإنسان المتوحش ، والمتحضر لا يجد خيراً منه وسيلة لإظهار تهذبه . ولا بد للزواج أن يكون ثابتاً لا تقبل عقده أى حل ، لأنه يحقق من السعادة قدراً يتضاءل إلى جواره كل شقاء ، فيرجعه . بل أين هو هذا الشقاء ؟ إنه الضجر هو الذى يستولى على الإنسان حيناً بعد حين ، فيلذ له حينئذ أن يرى نفسه شقياً . فليدع المرء هذه اللحظة تمر ، وسيرى نفسه سعيداً لأن ما استمر طويلاً لا يزال مستمراً . الافتراق بالطلاق ؟ ليس لهذا مطلقاً علة كافية . إن حال الإنسان فى الدنيا مليئة بالآلام والملاذات إلى درجة أنه ليس فى الوسع مطلقاً تقدير ما يدين به كل من الزوجين للآخر . أجل ، إنه دين لانهاية لمقداره ، ولا يمكن سداده إلا بالأبدية . نعم ، قد يكون الزواج أحياناً مصدراً لشيء من الضيق والتعب ، هذا شيء أو من به ، ويجب أن يكون . أو أسوأ أيضاً مقترنين بضميرنا ، الذى نريد مراراً التخلص منه ، لأنه أكثر مضايقة من أى زوج أو قرينة ؟ »

على هذا النحو أطل عِنان القول بحرارة وحماسة ، وكان ممكناً أن يستمر طويلاً ، لولا أن السائقين نفخوا فى البوق معلنين وصول الكونت

والبارونة اللذين دخلا سويا ، وكأنهما على ميعاد ، فناء القصر من البابين المتقابلين . وبينما تقدم سكان هذا المنزل لاستقبالهما ، اختفى مِتلر ، وطلب اقتياد جواده إلى النزل ، ومن هناك ارتحل وهو يتَرَعَّم .

الفصل العاشر

بسطوا للضيوف وجوههم وأقبلوا يلتمسون منهم دخول القصر . وكم كان سرور هؤلاء وهم يرون القصر من جديد بأبهائه الفخمة التي أمضوا فيها من قبل أياماً عاطرة بأجل الذكريات ؛ ثم لم يزوروها منذ ذلك الحين . وأصدقائنا هم الآخرون قد وجدوا بعقدتهم برد السرو . فقد كان الكونت والبارونة من هذا النوع من الوجوه النبيلة الجميلة التي يزداد تأثيرها في استواء السن أكثر منه في مُقتَبَل الشباب ؛ ولئن كانا قد فقدتا شيئاً من رونقهم الأول ، فهما يثيران خالص الثقة في النفس بما طبعاً عليه من إحسان واجتماع لخلال الخير . وكلاهما كان سهل الشريعة رقيق الحاشية إلى أبعد الحدود ، يأخذ أمور الحياة باللياسة والترخص ، ويعلق كُلُّ شيء ببقطة وبساطة ظاهرة ، تشيع منه إلى من يتصل به من الناس ؛ ويسود كل حركة من حركاته حياء جَسَمٌ لا يستشف من ورائه أدنى تكلف ولا صناعة .

وسرعان ما سرى إلى الجماعة هذا التأثير . فبعد أن تجلت المفارقة لأول وهلة بين الضيوف الجُدد القادمين مباشرة من المحافل العالية ، — كما يتبين من هندامهم وحاشيتهم — وبين أصدقائنا بما هم فيه من مراكز هادىء وجو مشبوب العاطفة المكتومة — اختفت وشيكا ، بفضل اختلاط الذكريات

القديمة مع المواطف الحاضرة ، فأخذوا سريعاً بأطراف الأحاديث بينهم .
لكنها لم تدم طويلاً ، إذ انفض جمعهم فأوى النسوة إلى جناحيهن ،
حيث وجدن من الموضوعات ما يكفي مادة لحديثهن : من أسرار استرخسن
بمكنونها ، وأزياء استعرضن أشكالها وقودوها ، وطُرُز جديدة للفساتين
وقُبَّعات الصيف . بينما شغل الرجال بالحديث عن العربات الجديدة ،
والخيول ، التي أحضروها أمامهم ، فكانت مجالاً للبيع والقباض .

ثم لم يلتزم الجمع من جديد إلا في الغداء . فاستبدلوا هندامهم ، وهنا
تجلت روعة الضيوف : فقد كانت ثيابهم جديدة كلها ، بل وغير مألوفاً ،
ولكن العادة وضعت فيها شيئاً من الخفة والألفة .

وجرى الحديث حاراً مختلف الألوان : إذ يبدو كل شيء شائعاً في مثل
هذه الجماعة ؛ وكان بالفرنسية حتى لا يفهمه الخدم ؛ وتراعى بهم الكلام إلى
ذكر النبالة والبورجوازية ، تحذوهم إليه لذة ماكرة . ولم يستوقفهم خلال
الحديث ، أكثر مما يجب ، إلا نقطة واحدة : فقد سألت شلوت عن أخبار
إحدى صديقات الطفولة ، فعلمت ، في شيء من الدهشة ، أنها على وشك
الطلاق ، فقالت :

اشد ما يؤلم النفس أن تعلم في اللحظة التي نعتقد فيها أن أصدقاءها
الغائبين قد استقرت بهم الحال أبداً ، أو أن رفيقة عزيزة تقيم تحت رواق
النعيم — أقول أن تعلم فجأة أن مصير مثل هذه الصديقة مزرع قلق ،
وأنها بسبيل أن تسلك مسالك جديدة لعلها تكون أيضاً خطيرة .

فأجاب السكونت : « أي بارونتي العزيزة ! الـرِزْرُ وِزْرُنَا إذ دُهِشْنَا
على هذا النحو . إذ يالُدُّ لنا أن نتخيل الشؤون الإنسانية ، وخصوصاً
الزواج ، كأنها ثابتة أبداً ؛ وفيما يتصل بالمسألة الأخيرة ، إنها المسرحيات

الهزلية التي نراها تتكرر كل يوم هي التي تملأ عقولنا بهذه الأفكار الفاسدة ، على خلاف ما تدل عليه حال الدنيا . ففي الملهة يبدو لنا الزواج كأنه النهاية الأخيرة لنَسْذَرُ آخرت ميعاده عوائق طوال عدة فصول ؛ ثم في اللحظة التي يلمس فيها المرء الهدفَ يُسدَل الستار ، ويترك هذا الرضى الوقت أثراً مستمرا . أما في الدنيا ، فالحال على غير هذا : يستمر التمثيل وراء الستار ، وإذا رُفِع مرة أخرى ، لا يحفل أحد بعد برؤية شيء أو سماع أمر .

فقال شرلوت : « يجب أن لا يكون الأمر على هذا النحو من سوء ، لأن كثيراً من الذين زلوا من هذا المسرح يلذ لهم أن يعودوا إليه من جديد » . فقال الكونت : « هذا لا اعتراض عليه : إذ يلزم المرء أن يأخذ دوراً جديداً ، وإذا عرف الدنيا وأحوالها رأى أنه في الزواج نفسه هذا الدوام المطلق الخالد ، وسط مثل هذه الحياة المتغيرة ، هو وحده الذى ينطوى على شيء من الإزعاج . ولى صديق ، يتجلى صفاء مزاجه خصوصاً على هيئة مشروعات قوانين جديدة ، يرى أن كل زواج يجب أن يعقد لمدة خمس سنوات فحسب ، قائلاً إن هذا العدد الجميل ، هذا العدد الفردى المقدس ، هذه الفترة من الزمان تكفى للتعارف وإنسال بعض الأطفال ، وللتنازع ، ثم — وهذا أجمل ما فى الأمر — لإصلاح ذات البين من جديد . وكان هذا الصديق كثيراً ما يصيح قائلاً : « ما أسعد مُضَيَّ الفترة الأولى ! سنتان أو ثلاث على الأقل ستمر فى نعيم وسرور ، ثم يبصر أحدهما وجهَ الرأى فى أن تستمر هذه العلاقة مدة أطول ؛ ثم يزداد التلطف كلما اقتربا من ميعاد الانفصال ؛ فيصير الزوج غير المكترث ، بل والساخط ، هادئاً راضياً بواسطة مثل هذا المسلك . وكما أن الإنسان ينسى مُضَيَّ الساعات

في الصُّحبة الجميلة ، كذلك ينسى كل منهما أن الزمان يمضي ، وتعتبره الدهشة على أجل نحو حينما يتبين له ، بعد انتهاء المدة ، أنها أطيلت من غير أن يشعر ا » .

وعلى الرغم مما كان في هذا الحديث من ظرف وإطافة روح وأن هذه الفكاهة يمكن ، كما أحسست شرلوت تماماً ، أن تفسر على أنها تنطوي على مغزى أخلاق عميق ، فإن هذا الحديث قد أسخطها ، خصوصاً من أجل أوتيلي . فقد عرفت تمام المعرفة أنه لا شيء أخطر من الكلمات الجُرة كل الحرية التي تصور موقفاً ، نصفه أو كله خاطئاً أئيم ، على أنه عادي شائع بل وجدير بالإطراء ؛ ولا شك في أن كل ما ينتقص من قدر الزواج يدخل في هذا الباب . لهذا حاولت ، بما عهد فيها من لباقة ، أن تحول مجرى الحديث ؛ فلما لم تستطع ، أسِفت عل أن هذه الفتاة الحاذقة في إدارة شئون البيت (أوتيلي) قد أعدت كل شيء على نحو جيد لم تحتج معه إلى النهوض من مكانها وسطهم . فكانت في هدوئها وحسن سهرها تنكتفي بإشارة إلى مدير الخدم كيما يهيا كل شيء على خير وجه ، ومع هذا فقد كانت لديها بعض الخدم الجُدد ، الذين تبدت الحِـرَاقَة من تحت هندامهم . وهكذا استمر الكون في حديثه عن الموضوع نفسه دون أن يلاحظ رغبة شرلوت . وهذا الرجل الذي لم يتعود الإيفال في مسألة ، قد شغلته هذه إلى حد كبير ، يضاف إلى هذا أن الصعوبات التي لقيها في محاولة الانفصال عن زوجته قد ملأت نفسه مرارة في كل ما يتصل بالرابطة الزوجية ، إلى حد أنه أراد بكل شعوره أن يعقد على البارونة . فتابع حديثه قائلاً :

« ولقد قدم صديق ذاك مشروع قانون آخر يقضى بأن الزواج يجب

ألا يمد غير قابل للفسخ إلا بالنسبة إلى الأشخاص — أحد الزوجين أو كلاهما — الذين تزوجوا ثلاث مرات : فالزواج بالنسبة إلى هؤلاء لاغنى عنه ؛ إذ يُعرف جيداً في هذه الحالة كيف سلك في زيجاته السابقة ، وهل كان فيه من الشذوذ الذي يؤدي إلى الانفصال أكثر مما يؤدي إلى الصفات المرذولة . لهذا إذاً يجب في هذه الحال على كلا الزوجين أن يستطلع أمر الآخر ، كما يجب أن يُراقب المتزوجون ، كما يراقب غير المتزوجين ، إذ لا يدري الإنسان ما عسى أن تؤول إليه الأمور .

— فقال إدورد : « من شأن هذا أن يزيد ، من غير شك ، في فائدة المجتمع ؛ فالواقع أن الناس لا يحتفلون بعدُ باستطلاع أمر فضائلنا ولا رذائلنا إذا ما تزوجنا .

— فقالت البارونة باسمه : « في مثل هذا النظام يكون ضيفانا العزيزان قد سَمَرًا فعلاً بالدرجتين الأوليين ويمكنهما أن يتهيأا للثالثة » .

فقال الكونت : « لقد سارت الأمور على ما تهوَيْنُ : فقد لَدَّ للموت أن يعمل ما لا يشاء جمع البابا والكرادلة أن يعمله إلا على مضض وكراهية في أغلب الأحوال » .

فقالت شرلوت : « لندع الموتى في سلام » ، وفي لهجتها شيء من الجد . فأجاب الكونت : « لماذا ، إذا كنا نستطيع التحدث عنهم مادحين ؟ لقد كانوا من التواضع بحيث قنعوا بالقليل من السنوات ، في مقابل كل ما خلفوه من خير » .

فقالت البارونة وهي تُخَنِّق زَفرة : « واحسرتاه على المرء أن يضطر في مثل هذه الحالة إلى التضحية بأعز سنوات عمره ! »

فأجاب الكونت : « هذا حق ! ولقد كان علينا أن نستئس ، إذا

كننا لا نرى الآمال كلها في الدنيا إلى خيبة . فالأطفال لا يبلفون ما يُرَجَى منهم ؛ والشباب قليلا ما يفعلون ، وإذا أخلصوا في وعودهم ، لم تخلص الدنيا لهم » .

فقلت شرلوت ، وقد سرها أن يتحول مجرى الحديث : « إيه ! علينا نحن أن نعتاد مبكراً ألا نفعم بالسعادة إلا ناقصة على أجزاء »
 — أجل ، هكذا قال الكونت ؛ ولقد كانت لكما معاً أيام سعيدة .
 فحينما أذكر تلك الأيام التي كنتم فيها ، إدورد وأنت ، خير زوج في البلاط ، لا أرى اليوم أن أحداً يتحدث بعد عن مثل تلك الأرمنة الناعمة والوجوه الرائعة . لقد كانت العيون كلها حينما ترقصان تشخص إليكما ؛ وكما بقما بغزوات ، بينما لم تسكن عيون الواحد منكنا تنظر إلا إلى عيون الآخر !
 فقلت شرلوت : « ما دام كل هذا قد أنهج روئقه ، فلا علينا إن أصفينا إلى هذه الأشياء الجميلة بتواضع » .

فقال الكونت : « كثيراً ما انثنت على إدورد باللام سرّاً لأنه لم يتأبر . فلقد كان أهله سيضطرون في النهاية إلى التسليم ؛ وكسب عشر سنوات شباب ليس بالأمر الهين » .

فقلت البارونة : « يجب أن أتولى الدفاع عنه . فإن شرلوت لم تكن بريئة الساحة من كل خطأ ؛ إذ لم تسكن بنجوة من كل دلال ؛ وعلى الرغم من أنها كانت تحب إدورد بحنان ، وأن قلبها قد يختاره زوجاً لها ، فقد كان في وسمى أن أرى أحياناً كيف كانت تعذبه ، إلى حد أنه لم يكن من العسير حمله على عزيمته البائسة في أن يترحل وأن يفتأ كيا يسلوها » .
 فأوماً إدورد إلى البارونة ، إيماءة شكر لها على تدخلها :

— لكن يجب أن أضيف كلمة ، هكذا تابعت حديثها ، كيا أبرّتي

شرلوت من اللام : ذلك أن الرجل الذي كان يسمى حينئذ إلى الزواج منها قد اشتهر منذ زمان طويل بحبه لها ، وحينما عرف على جليته ، وُجد حقاً أخرى بالحب مما تشاؤون أن تتصوروا .

فقال الكونت ، بشيء من الحرارة : « صديقتى العزيزة ! لنعترف بأنه لم يكن عندك سواء ، ولم يعوزه أن يثير اهتمامك ، وأن شرلوت كانت تخشى منك أكثر من أية امرأة أخرى . وأنا أجد جمالا في هذه القسمة من قسمات طبيعة المرأة ، وهي أنها تستمر طويلا على تعلقها برجل ، دون أن تضطرب أو تتسلى بأى نوع من أنواع الهجر » .

فقلت البارونة : « إن هذه الصفة الجيدة ربما يملكها الرجال أكثر من النساء : أو على الأقل بالنسبة إليك ، يا عزيزى الكونت ، لقد لاحظت جيداً أنه لا أحد أكبر سلطاناً عليك من امرأة شغفت بها حبا من قبل . وقد كان فى وسعى أن أشاهد أنك كنت عند رجاء حبيبة قديمة تبذل من السعى لتحقيقه أكثر مما عساك تفعله بالنسبة إلى حبيبتك الحالية » .

فأجاب الكونت : « مثل هذا اللام يمكن قبوله عن طيب خاطر ؛ لكن فيما يتصل بزواج شرلوت الأول ، لا أستطيع احتماله ، لأنه فَصَلَ هذا الزوج الجميل ، هذا الزوج الذى قدر له الاقتران ، لم يعد بحاجة إلى الخوف من فترة السنوات الخمس ، أو إلى الاهتمام والانشغال باقتران ثان وثالث » .

فقلت شرلوت : « سنحاول تلافى ما فات » .

فقال الكونت : « تحسنيين صنعا لو عنيت به . إن زواجكم الأول — هكذا تابع حديثه بشيء من الحرارة — كان من نوع ردىء ؛ ومما يؤسف له أن الزواج (واغفرى لى هذا التعبير الذى لا يخلو من حِدَّة)

ينطوى على شيء من الخرق : لأنه يفسد أجل العلاقات ، والسبب الحقيقي لهذا هو الأمان الفج الذى يمتاز به أحد الطرفين على الأقل . فكل شيء يسير على أنه مفهوم بنفسه ، ويبدو أن المرء قد تزوج لا لشيء إلا لكي يتابع كل طريقة من الآن فصاعداً .

وفى هذه اللحظة لجأت شرلوت ، وقد قرعزمها على إنهاء هذا الحديث ، إلى وسيلة جريئة لتغيير مجراه ، فصار عاماً حتى استطاع الزوجان والكابتن أن يشاركو فيه ؛ ودعيت أوتيلي نفسها إلى الحضور معهم ، وعند تناول الحلوى كان الكل صافى المزاج ، وأعان على هذا خصوصاً جمال الفاكهة الشهية المعروضة فى سلال أنيقة ، وبهجة الأزهار العديدة الألوان وهى ترف رائعة فى أخص فتانة .

وتناول الحديث التجميلات الجديدة فى البستان ، فلما خفوا عن المائدة ذهبوا لزيارتها . أما أوتيلي فقد انصرفت لشأنها ، بحجة أن لديها مشاغل منزلية ، ولكنها فى الواقع عادت إلى كتابة النسخة المطلوبة . وتحدث الكونت مع الكابتن ؛ وبعد حين شاركتها شرلوت الحديث . فلما بلغوا الأعلى ، وكان الكابتن قد هبط مسرعاً لبحث عن التصميم ، قال الكونت لشرلوت :

— هذا الرجل يملأ نفسه إعجاباً به : فله معلومات واسعة محكمة الترتيب ، ويبدو لى أن له نشاط العمل الجاد المنطوق : فما يعمله هنا يكون له قيمة كبرى فى مجال أعلى وأوسع .

وأصفت شرلوت إلى الثناء على الكابتن باغتياب مُستَسِرٍّ . ومع هذا فقد ملكت زمام نفسها . وبلهجة واضحة ثابتة ، أيدت أقوال الكونت . لكن كم كانت دهشتها ، حينما تابع حديثه بهذه الكلمات :

— لقد عرفت هذا الرجل في الوقت المناسب ، لأنى أعلم مكانا يصلح له تمام الصلاحية . فإن أنا أوصيت به ، استطعت إسداء خدمة لا تصاب لها قيمة إلى صديق عزيز المكانة ، مع توفير السعادة لهذه الرجل .

لقد وقع هذا القول في نفس شرلوت وقوع الصاعقة . غير أن الكونت لم يفتن إلى شيء مما كان منها ، لأن المرأة ، وقد تعودت تمالك نفسها باستمرار ، تحتفظ دائماً ببرباطة الجأش في أشد الأحوال هولا وترويعا . ولكنها لم تعد تسمع الكونت ، حينما أضاف :

— حينما أطوى قوادي على صريمة حذاء ، أمضى تَوّاً لإنفاذها .
فها هو ذا الخطاب قد ترتبت أجزاءه في رأسى ، وبى تَجَمُّلة لكتابته .
فنشدُكَ اللهُ إلهيات رجلا على جواد ، لكى أبعث به هذا المساء .

تمزق قلب شرلوت ، وغلبتها الدهشة من هذه المشروعات ومن عواطفها الخاصة ، فأرتج عليها الكلام . ولحسن الحظ استمر ضيفها في الحديث عن المشروعات التى أعدها من أجل الكابتن ، وهى مشروعات استرعت نظر البارونة بشدة . وكان الوقت قد حان لكى يعود مهندسنا (الكابتن) وينشر صفحة مشروعه أمام الكونت . لكن ، كم اختلفت نظرتها إلى الصديق الذى صارت على وشك فقدانه ! وبعد انحناء خفيفة ، مضت وهبطت سريعا إلى آخر الطحلب . وما بلغت منتصف الطريق حتى تدفقت دموعها بغزارة . وجثمت بين الجدران الضيقة لهذا المأوى الصغير ، واستسلمت بكليتها إلى ألم ووجدان ويأس لم تكن لتعتقد مطلقا إمكان طرأها عليها قبل لحظات قصار .

أما إدورد والبارونة فقد أخذوا سبيلهما إلى الغدران . وسرعان ما تبينت هذه المرأة اللبقة ، التى لد لها أن تسأل عن كل شيء ، أن إدورد وهو

يتحدث قد غالى في توشيح أوتيل حُلل الثناء والإطراء ؛ فاستطاعت أن تحركه شيئاً فشيئاً وعلى نحو طبيعى حتى لم يعد لديها شك فى أن تمت وجدانا لا ناشئاً ، بل بالغاً تمام نموه وازدهاره .

ومن شيمة النسوة المتزوجات ، حتى لو لم يكن بينهما حب ، أن يتآمرن معاً فى السر ، خصوصاً ضد الفتيات . لهذا لم تلبث عواقب مثل هذه العاطفة أن تظهر جليلة أمام عقل امرأة فطنة كهاتيك . وفضلاً عن هذا فقد كانت تحدث من قبل مع شرلوت عن أوتيل أثناء الصباح ، واستهجنّت المقام فى الريف بالنسبة إلى هذه الفتاة ، نظراً خصوصاً إلى هدوء طبيعتها ولين مُهتصرها ، واقترحت إيفادها إلى المدينة لتقيم عند صديقة تبذل غالى التضحيات فى سبيل تنشئة ابنتها الوحيدة ، وتفتقد لها رفيقة رقيقة الحاشية خافضة الجناح ، ستعاملها هذه الصديقة كأنها ابنتها ، فتتعم بكل الزايات التى تنعم بها الأخرى . فسألها شرلوت أن تمهلها حتى تجد فسحة للتفكير . وما نفذت البارونة إلى عواطف إدورد المستسرة حتى زاد يقينها بعشروعها ، وبقدر ما بادرت إلى تنفيذ عزمها بقدر ما عُلقت فى الظاهر رغبات مضيفها . لأنه ما من شخص يملك نفسه خيراً من هذه المرأة ، وهذا الضبط للنفس فى الظروف الخارجة عن المألوف تمود من وهبوه على اصطناع المداينة ، حتى فى الأحوال العادية ، وتهيؤهم ، فى الوقت الذى يقسون فيه على أنفسهم كل هذه القسوة ، لبسط سلطانهم على الآخرين ، كما يستمضوا ، نوعاً ما ، بهذه المزية الخارجية ، عن حرمانهم المستسرّ فى طوايا نفوسهم .

ويضاف إلى هذه العواطف عادةً نوعٌ من السرور الخبيث الذى يشبه فيهم عى الآخرين والجهل الذى يندفعون به إلى الوقوع فى الحبال

المنصوبة . ولا يقتصر السرور على التمتع بالنجاح الحاضر ، بل يمتد إلى التمتع بالاضطراب الذى سيصيب الآخرين فى المستقبل . ولقد كانت البارونة من الدهاء والخبث بحيث دعت لإدورد وشملوت إلى قضاء مدة القِطاف للكروم فى مزارعها ، ولما سألتها إدورد عما إذا كان من الممكن اصطحاب أوتيلى معهما ، أجابت بطريقة يمكنه تأويلها لصالحه .

وها هو ذا يشيد ، نشوان ، بالإقليم الرائع والنهر الكبير والروابي والصخور والأعشاب والقصور العتيقة والمنازه فوق سطح الماء ومسررات قِطاف الكروم والمصرة وما إليها : سعيداً بأن يشارك ، مقدماً ، وفى براءة قلبه ، فى الأثر الذى ستحدثه أمثال هذه المناظر فى نفس أوتيلى الفتية . وفى هذه اللحظة رأوها قادمة ، فأسرعت البارونة تقول لإدورد أن يلتزم الصمت فيما يتصل بمشروع رحلة الخريف هذه ، إذ يحدث عادة أن تنهار المشروعات التى يغتبط المرء بها طويلاً قبل تحقيقها . فوعدها بإياه إدورد ثم حثته على الإسراع لاستقبال أوتيلى ، فأنهى أمره بأن أغدَّ فى السير كيما يلتقى بالفتاة العزيزة ، وسرعان ما انتشر شعاع السرور الحار فى كل كيانه ، فقَبَّل يد أوتيلى وهو يقدم إليها باقة من الأزهار الريفية التى اقتطفها أثناء النزهة . وما أبصرت البارونة هذا المشهد حتى أحسَّت بالغضب والحنق ، لأنها ، بالرغم من تنديدها بما فى هذا الحب من إثم وخطيئة ، كانت تحسد هذه الفتاة التافهة على ما وهبها الله من سحر وإغراء .

ولما التأم الشمل فى العشاء ، وجدت الجماعةُ نفسها فى جو روحى جديد . فالكونت ، بعد أن كتب رسالته وأرسل الرسول ؛ كان يحادث الكابتن مستريداً معرفة دخيلته بشيء من الاحتياط والزكاة ، فعنى

بإجلاسه إلى جواره . ولهذا فإن البارونة ، وقد جلست عن يمين الكونت ، وجدت من هذه الناحية المجال ضيقاً للحديث ، كما وجدته هكذا أيضاً من ناحية إدورد لأنه بدأ بأن كان صديانَ ثم شرب ولم يبق على التبيذ ، وأخذ بأطراف الأحاديث بحرارة فيأضه بينه وبين أوتيلي التي أجلسها إلى جواره ، بينما شرلوت التي جلست قبالتها إلى جوار الكابتن كانت تجاهد بمشقة — دون جدوى تقريباً — كيما تخفى حركات فؤادها الخفية .

وكان المجال واسعاً أمام البارونة لتجربى مشاهداتها . فلاحظت قلق شرلوت ، ولما كانت لا تعرف إلا صلات إدورد مع أوتيلي ، فقد اقتنعت بسهولة بأن مسلك الزوج هو العلة في إشاعة الحزن والحلم المُفكر في نفس صديقتها . هنالك أفكرت في خير الوسائل لبلوغ هدفها .

وبعد العشاء تفرقت الجماعة . فالكونت وقد أراد تعمق معرفته بالكابتن قد كان في حاجة إلى تنويع الحديث ، كي يستبطن كُنه ما يريد معرفته ، مع رجل هذا حظه من الهدوء والإيجاز والبعد عن الغرور . فكانا يذهبان ويحيثان في أحد جوانب البهو ، بينما إدورد ، وقد أنعشته الخمر والأمل ، كان يمزح مع أوتيلي بالقرب من إحدى النوافذ ، وشرلوت والبارونة من ناحيتهما يتريضان صامتتين في الناحية الأخرى من البهو . وما لبث صمتها وقلقهما الفارغ أن انتهيا بأن أشاعا البرود في باقى الجماعة . فأوى النسوة إلى جناحهن الأيسر ، والرجال إلى جناحهم الأيمن ، وبدأ كُنْ ذلك النهار انتهى .

الفصل الحادى عشر

صحب إدورد الكونت إلى مخدعه ، وحمله الحديث على أن يبقيه معه حيناً ، فخر الحديث الكونت إلى الماضى البعيد ، وتحدث بحرارة عن جمال شرلوت ، مبيناً مناقب هذا الجمال بدراية وحجاسة ، قائلاً :

— إن قدماً جميلة لهى هبة من الطبيعة ثمينة : إنها نعمة لا تقضى . لقد لاحظت اليوم مشيتها . ليود المرء وهو يراها أن يقبل حذاءها ، ويمجد تلك التحية — وإن كانت ، حقاً ، بربرية شيئاً ، فإنها مع هذا تدل على عمق فى الإحساس — التى كان يستخدمها السرميتيون^(١) الذين كانوا لا يجدون أعذب من أن يشربوا فى حذاء شخص عزيز ماجد ، يشربوا على صحته .

ولم يكن طرف القدم وحده موضوع الإطراء فى هذه المناجاة بين الصديقين . فإن شخصها قد عاد بهما إلى الفاصرات القديمة ، وانتقلا منها إلى العقبات التى كانت توضع فى سبيل لقاء الحبيبين ، وما لقيما من عنت وإرهاق ، وما فتلا من حباثل لا لشيء إلا ليتيسر لكل منهما أن يقول للآخر : إني أحبك .

(١) السرميتيون هم أهل سمرته ، وهى بلاد واسعة فى شمال أوروبا وآسيا تنقسم إلى قسم أسبوى وآخر أوربى ؛ والقسم الأوربى يحده المحيط شمالاً وألمانيا والفتولا غرباً ، والبحر الأسود جنوباً ، ويشمل الآن روسيا وبولنده ولتوانيا والتتر الصغرى وكان أهلها غير متحضرين محبين لقتال ، اشتهروا بصيغ أجسامهم ليزداد روعهم فى الحروب ، كما عرفوا بجلهم إلى الفجور . وقد ازدادت شوكتهم فى عهد الامبراطورية الرومانية ، إلى أن استطاعوا ، بعد أن انضم إليهم لاشقوزيون ، القضاء عليها نهائياً . فهم القبائل المعروفة بقبائل الهون والوندال والقوط والألان الذين غزوا روما وقضوا على تلك الامبراطورية الشاحخة . وكانوا يعيشون على السلب ويتغذون بالألبان ممزوجة بدماء الخيول .

وتابع الكونت الحديث قائلاً : « أتذكر المفامرات التي آزرتك فيها
بصدقة ونزاهة خالصتين ، حينما ذهب أمراؤنا لزيارة عمهم واجتمعوا في
القصر الفسيح ؟ كان النهار قد انقضى في حفلات ومراسم جليلة رائعة ،
وكان لا بد من تكريس شطر من الليل للأحداث الحرة العذبة .

— لقد عرفت ، هكذا قال له إدورد ، كيف تكتشف الطريق المؤدى
إلى مخادع السيدات ، وكان من حسن حظنا أننا بلغنا مخدع حبيبتى الجميلة .
— وهى قد حرصت على الحياء أكثر من حرصها على إرضائى ،
هكذا عاود الكونت حديثه ، واحتفظت إلى جوارها بتابعة مفرطة في
القبس ، إلى درجة أنك خلقت لى ، أثناء حديثك الغرامى ، دوراً بالغ القبح .
— بالأمس فقط ، هكذا أجاب إدورد ، حينما أعلنت عن قدومك ،
أعدت ذكرى هذه الحادثة إلى زوجى ، وخصوصاً كيفية انسحابنا . لقد
ضللنا الطريق ، وبلغنا الغرفة المواجهة لغرفة الحراس . ولما كنا نعرف
جيداً كيف نجد طريقنا من هناك ، اعتقدنا أن فى وسعنا الاجتياز بدون
صعوبة مارين أمام ذلك المكان مرورنا أمام أى مكان آخر . لكن كم كانت
دهشتنا ونحن نفتح الباب ! لقد كان الطريق مليئاً بالنضائد والوسائد التي
نام عليها هؤلاء المردة الراقدون على عدة خطوط . فحملق الجندى المنوط
بالحراسة إلينا مندهشاً ، ولكننا استطعنا أن نمر بما فينا من جرأة الشباب
ومرحه ، فوق الأحذية المتراسة دون أن يستيقظ واحد من أبناء ايناك
هؤلاء أو ينقطع غطيظه .

— لقد كنت شديد الرغبة فى أن أكبو ، هكذا قال الكونت ،
كما أحدث ضجيجاً وجلبة ؛ إذن ما كان أغرب ما سنراه من استيقاظ !
وفى هذه اللحظة دقت ساعة القصر نصف الليل .

— نصف الليل ! هكذا قال الكونت باسم ، إنها اللحظة المواتية .
عزى البارون ، لى رجاء لديك . اتقُدى اليوم كما قد تُتاك بالأمس . فقد
وعدت البارونة بزيارتها . ونحن لم نَحْظ طوال النهار بلحظة واحدة نتحدث
فيها حديثاً خاصاً ؛ لقد بقينا طويلاً لا يرى أحداً الآخر ، فن الطبيعى
أن نَرَجى ساعة خلوة . دُكِّن على الطريق ، وفى وسمى أن أجد سبيل
العودة بنفسى ، وعلى كل حال فلست أخاطر بالكبوة على أحذية .

— سأزدرع عندك هذا المعروف عن طيب خاطر ، هكذا أجاب
إدورد . ولكن هؤلاء النسوة الثلاث يقمن سويًا فى الجناح الأيسر ؛ فن
يدرى لعلنا نجدهن مجتمعات الآن ، أو ما أغرب المشهد الذى يمكن أن
نكون الآن بسبيل إنارته !

— اطَّرح كل خوف ، فإن البارونة تفتظرنى . وهى الآن لا بد
موجودة فى مخدعها ، هى وحدها .

— الأمر على كل حال ميسور ، هكذا قال إدورد .

وأخذ مصباحاً وتقدم الكونت مُنْزِلاً إياه سُلماً خفياً يقود إلى ممشى
طويل ، عند نهايته فتح إدورد باباً صغيراً . ثم صعدا سُلماً دائرياً ، ما بلغا
منه مسطحاً ضيقاً حتى أشار إدورد — منبهاً الكونت ، وهو يعطيه
الصباح — إلى باب عن يمين انفتح من أول قَرْعة فدخل الكونت وترك
إدورد فى الظلام .

وكان هناك باب آخر عن يسارٍ يودى إلى مخدع شرلوت . فسمع
إدورد حديثاً فأرهمف أذنه لاستراق السمع ، فتوجس شرلوت وهى تحاطب
سيده مخدعها :

— هل نامت أونيل ؟

— كلا ، يا سيدتى ، بهذا أجابت سيدة المخدع . إنها لا تزال فى أسفل
تكتب .

— أوقدى إذن قُنَيْدِيل السهر وانصرفى ، فالوقت متأخر . وسأطفيء
الشعلة بنفسى وأنام وحدى .

ولشد ما سر إدورد أن يعلم أن أوتيل لا تزال مشغولة بالكتابة . « إنها
تشتغل من أجل ! » هكذا قال لنفسه منتشياً بالظفر . ولما كان مطوياً على
نفسه فى الظلام فقد تخيلها جالسة تكتب ، وتخيل نفسه يقترب منها ،
وهى ترد إليه ؛ وأحس برغبة لا تقاوم فى أن يكون إلى جوارها مرة
أخرى هذا المساء . لكن لم يكن ثمة طريق يؤدي من المكان الذى كان
فيه إلى الطابق السفلى حيث كانت هى آنذاك . فقد كان فى تلك اللحظة
أمام باب مخدع زوجه . فحدث فى نفسه اختلاط غريب : حاول أن يفتح
الباب فوجده مغلقاً ، وكان دفعه إليه خفيفاً فلم تسمع شرلوت ، وكانت
تغدو وتروح فى اضطراب وتهيشج فى غرفة مجاورة أوسع من الأخرى ،
وهى تردد لنفسها ، بصوت واضح ، ما أجالته مراراً فى داخل عقلها ، منذ أن
اقترح الكونت اقتراحه المفاجئ . وخيل إليها أنها ترى الكابتن قبالتها .
أواه ! إنه ملء القصر وبهجة الزُهُات ، وها هو ذا بسبيل الرحيل ! يحمل
القفر عما قليل ! وقالت فى نفسها كل ما يمكن أن يقال ؛ وتمثلت لنفسها
مقدماً ، كما هى المادة دائماً ، هذه السلوى الرهيبة : وهى أنه حتى أمثال
هذه الآلام يخفف من وقعها الزمان ؛ وصبت اللعنت على الزمان اللازم
لملاجها منها ؛ كما لعنت المهد الحزين الذى ستكون فيه قد برئت منها .
وأخيراً أهابت بالدموع ، فكانت سلوى فيها من العذوبة بقدر ندره
الدموع لديها . وألقت بنفسها على الأريكة ، واستسلمت بكل نفسها لهومها .

وإدورد هو الآخر لم يقو على مفارقة الباب ، ففرع مرة ثانية وثالثة بقوة متزايدة حتى إن شرلوت سمعته بوضوح في سجن الليل ، واقشعرت فزعاً . وخطر ببالها أول ما خطر أن الطارق يمكن أن يكون هو الكابتن ، بل لا بد أن يكون إياه ؛ ثم خطر لها ثانياً أن هذا مستحيل . فخيّل إليها أن هذا وهم ؛ لكنها سمعت طرقا ، ورغبت وخافت معا أن تكون قد سمعت . فانتقلت إلى غرفة نومها ، واقتربت بخطى مسترقة من الباب الموج بالمزلاج . وأنبت نفسها على فزعها ، وقالت لنفسها : « يظهر أنها البارونة ، في حاجة إلى معونتي » ؛ ثم قالت ، رافعة صوتها ، بلهجة ثابتة موزونة : « من هناك ؟ » فأجاب صوت خافت : « إنه أنا » . فقالت شرلوت : « من أنت ؟ » إنها لم تستطع أن تبين ذلك الصوت ، وتمثلت أيضا صورة الكابتن أمام الباب . فجاء الجواب على سؤالها مرتفعاً : « إنه إدورد » .

فتفتحت ، ومثّل زوجها أمامها ، وحيّاها بطريقة مازحة ، مما هيأ لها أن تستمر معه بنفس اللهجة . لكنه غطى زيارته الغريبة هذه بتأويلات غامضة : وأخيرا قال : « لماذا أتيت ؟ » . . . هذا ما يجب أن أعترف به لك : لقد لجّ بي الشوق إلى تقبيل نعلك هذا المساء ، فقرّ عزى عليه » .

فقالت شرلوت : « مضى زمان طويل لم يخطر ببالك هذا الخاطر » .

فأجاب إدورد : « بأس ما حدث أو نعمه » .

وكانت شرلوت قد ألقت بنفسها على كرسي كينا تخفى عن نظراته مبذلتها الخفيفة . فخر راكما أمامها ، ولم تستطع هي أن تحول بينه وبين أن يقبل عليها ثم يمسك بقدمها — وقد بقي النمل في يده — ويضغط به بحماسة على صدره .

ولقد كانت شرلوت واحدة من هؤلاء النسوة المصادات الطبع

التواضعات ، اللأني يحتفظن في الزواج — دون ما جهد ولا تكلف — بأحوال العاشقات . فهي لم تحاول مطلقاً أن تستنصّ لطفه ، وتبادنه الملاطفة ، كما كانت نادراً ما تستجيب للملاطفاته ؛ إنما كانت تشبه زوجاً رقيقة لا تزال تشمر بخوف خفي من الشيء المباح — دون ما برود أو قسوة منسفرة . وتلك كانت — واسبب مُضاعَف — الحال التي وجدها عليها إدورد في تلك الليلة . وكم كانت تتوق إلى رؤيته يفادرها الآن ! لأن صورة الكاتبين تبدّت كأنها تُنحى عليها باللائمة . لكن الشيء الذي كان من شأنه أن يُبعد عنها البارون الآن لم يفعل إلا أنه زاد في تعلقه وانجذابه إليها وتوضّح عليها شيء من الانفعال ، إذ كانت قد أسبلت عبرتها ؛ وإذا كان النسوة الضعيفات يفقدن بالبكاء بمضا من محاسنهن ، فإن هؤلاء اللأني يُروّن عادة هادئات ثابتات يزددن منه فتنة وبه جمالا . أما إدورد فقد كان موفور اللطف مبسوط جناح الرقة والحنان ؛ فتوسل إليها أن تحتمل بقاءه معها آنذاك ، ولم يكن يتطلب منها شيئاً ؛ وفي لهجة ترجع بين الجد والهزل حاول إقناعها بهذا ، ولم يفكر مطلقاً في أن له الحق في هذا ، وأخيراً أطفأ الشمعة متلاعباً متضاحكاً .

وعلى ضوء قنّيديل السهر الباهت ، برّز الميل الخفي والخيال على الحقيقة . فخيّل إلى إدورد أنه حمل أوتيل بين ذراعيه ؛ وخيّل إلى شرلوت أنها ترى — من قريب أو بعيد — صورة الكاتبين ترنّق أمامها وتحدّق ؛ وهكذا استطاع الحاضر والغائب — بنوع من المعجزة — أن يتعانقا ويتحدّا بلذة وشهوة واشتياق .

لكن الحاضر لا يستسلم لاغتصاب حقوقه المطلقة . فأمضيا هزيماً من الليل في أحاديث مختلفة الأنواع ودعابات عذبة السماع ، كان في جريانها من

اليسر بقدر ما كان للقلب من عدم مشاركة فيها وواحمسرتاه ! ولكن ،
في الغد ، حينما استيقظ إدورد بين ذراعى زوجه ، تبدى النور وكأنه يلقى
على العرفة نظرة متوعدة ، وظهرت الشمس له وكأنها تضيء على جريمة ؛
فانسل دون ضجة ، وأحست شرلوت بماطفة غريبة حينما وجدت نفسها
حين استيقاظها وحيدة .

الفصل الثالى عشر

ولما انتظم عِقد اجتماعهم فى ساعة الإفطار كان فى وسع الناظر المتنبه
أن يتوسم فى حركات كُلِّ تباين أفكاره وعواطفه . فالكونت والبارونة
قد تبادلا التحية فى طمأنينة العاشقين الساجية ، العاشقين اللذين تبادلا —
بعد هجر أليم — تأكيدات جديدة لميولهما المتبادلة ؛ أما إدورد وشرلوت ،
فعلى العكس من هذا استقبلا أوتيلى والكابتن بنوع من الاضطراب والندم
السام ، لأن من طبيعة الحب أن يعتقد أن له كل الحقوق ، وأن كل
الحقوق الأخرى تتبدد أمامه . ولقد كانت أوتيلى مسرحة مرح الطفولة ،
مرحا يمكن أن يقال عنه بالنسبة إليها إنه كان لديها نوعاً من التفرج
والترويح . أما الكابتن فقد تبدى رزين الحصة واقع الطائر . فبعد أحاديثه
مع الكونت الذى أيقظت كلماته ما رقد فى قلبه منذ زمان طويل ، شعر
تمام الشعور بأنه لم يؤد مهمته الحقيقية عند صديقه ، ولم يفعل فى الواقع غير
أنه مذل بمقامه فى هذه الحال الشبيهة بالتعطل .

ولم يكد الضيفان يرتحلان حتى جاءت زيارة جديدة ، سارةً لنفس
شرلوت التى كانت تريد أن تُفَرِّجَ عن نفسها وترفعه ، مضايقةً لنفس إدورد

الذى كان يحس بازدياد تعلقه بأوتيل وانشغاله ، ثقيلة أيضاً بالنسبة إليها وهى لم تنته بعد من إتمام النسخة ، وقد كان من الضروري الفراغ منها فى صباح الغد . وفى السادسة ، حينما ارتحل الغرباء ، هُيرت بالصعود إلى غرفتها .

اقترب الليل وإدورد وشرلوت والكابتن قد رافقوا الغرباء سيراً على الأقدام إلى بعض المسافة من القصر ، ثم قرأ بهم على القيام بنزهة حتى الغدران . فقد وصل زورق كان إدورد قد أوصى بإحضاره من بعيد وشرأه بنفقات باهظة ؛ فأرادوا تجربته ليمرفوا ما إذا كان سهل التسيار . وكان الزورق قد شد إلى شاطئ الفدير الأوسط ، غير بعيد من بعض أشجار البلوط المتين التى حسبوا حسابها للمنشآت المقبلة . فقد كان مفروضاً أن يكون المرمى هناك ، وتقام تحت الأشجار صفة للراحة أنيقة البناء ييم شطرها من يريدون عبور الفدير بالزورق .

— « وقبالتها ، أين يجدر بنا أن نقيم التسكريلة ؟ هكذا قال البارون ؛ يبدو لى أنها يجب أن تقام صوب أشجار الدباب » .
فقال الكابتن : « إنها متباعدة كثيراً ناحية اليمين . أما إذا كنا فى ناحية أبعد سُفلاً ، فإننا نكون أكثر اقتراباً من القصر . ومع كل هذا فيجب التدبر » .

وما هو ذا قد جلس فى مؤخر الزورق وأمسك بأحد المجاديف ؛ وزات شرلوت فى الزورق ، ومن خلفها إدورد الذى أمسك بالمجداف الآخر . ولكنه فى اللحظة التى قلع فيها المرساة تذكر أوتيل وقدّر أن هذه النزهة ستأخره وتعود به فى ساعة لا يعلمها إلا الله . فأمضى عزيمته فى الحال ، ووثب إلى الشاطئ ، ومد إلى الكابتن المجداف الثانى ، واعتذر بسرعة وهيرع إلى القصر .

سأل عن أوتيل فقيل له إنها أغلقت بابها لتكتب . وامتزج بهذا الخاطر الجليل ، خاطر أنها تشتغل من أجله ، أسفٌ حاد على حرمانه من حضرتها . وازداد ضيقه لحظة بعد لحظة وانتَقَصَتْ مِرَّةً صبره . وظل يمشي غادياً آتياً في البهو الكبير ، وحاول كل شيء ، ولكن انتباهه لم يستقر عند شيء . وهو قد رغب في رؤيتها ، رؤيتها وحدها ، قبل عودة شرلوت والكابتن . وأقبل الليل ، فأوقدت المصابيح .

وأخيراً تجلّت في هالة من الإنافة والجمال ، يسمو بها الشعور بأنها عملت شيئاً من أجل صديقها . ووضعت الأصل والنسخة أمامه على المنضدة . — تريد المراجعة ؟ هكذا قالت باسمة .

ولم يعرف هو لماذا يجيها ، فألقى بنظره عليها ثم على النسخة . أما الصفحات الأولى فقد كتبت بعناية فائقة وبخطٍ نَسْوَى لطيف ؛ ثم تبدلت القسبات وصارت أكثر خفة وحرية ؛ لكن كم كانت دهشته حينما تصفح الصفحات الأخيرة ! فصاح : « بحق السماء ! ماذا أرى ؟ إنه خطي بعينه ! » فنظر إلى أوتيل ، ثم إلى الأوراق مرة أخرى فرأى الأخيرة خصوصاً كأنها بعينها كما لو كان قد كتبها بنفسه . أما هي فاعتصمت بالصمت لكن عينيها المحدقتين فيه كانتا تعبران عن أحر السرور . فرفع ساعديه في نشوة صائحاً :

— أنت تحبينني يا أوتيل ! أنت تحبينني !

وتماثقا طويلاً . أما من هو الذي بدأ بمناقشة الآخر ، فهذا ما تستحيل معرفته .

ومنذ هذه اللحظة وكل شيء قد تبدل وجهه في نظر إدورد ؛ فلم يعد بعداً ما كانه قبل ؛ ولم يعد للدنيا نفس ما كان لها من مظهر في ناظره .

ووقف كلاهما قبالة الآخر . وأمسك إدورد بكفى أوتيل في كففيه ؛ ولم تفارق عينا كليها عيني الآخر ؛ وكانا بسبيل أن يتعانقا من جديد .

ودخلت شرلوت بصحبة الكابتن . وعندما اعتذر عن طول تأخرهما ، ابتسم إدورد لنفسه . « آه ! كم أتيتما مبكرين ! » هكذا قال في نفسه .

وجلسوا للعشاء ، واستعرضوا زيارات اليوم ، فتحدث البارون — وقد تهيأ لماطفة المحبة — عن كلِّ مادحاً ، حانياً دائماً ، مُطنباً في الثناء في غالب الأحيان . أما شرلوت — ولم تكن على رأيه تماماً — فقد لاحظت هذه الحال ، ومازحته على أنه كان في هذا اليوم صافى المزاج شائع الحنان ، وهو المتأهب دائماً للحكم بقسوة على الضيوف بعد رحيلهم .

فصاح إدورد بحرارة وفيض عاطفة صادقة:

— يكفى المرء أن يحب إنساناً من أعماق قلبه كيما يتبدى له بقية الناس جديرين بالمحبة .

غصّت أوتيل طرْفها ، بينما أنعمت شرلوت النظر . فبدأ الكابتن الحديث قائلاً :

— إن عواطف الاحترام والتقدير تدعو إلى الشعور بشيء من مثل هذا . والإنسان لا يميز جيداً ما هو جدير بالتقدير في الدنيا حقاً إلا حينما يجد الفرصة لتنفيذ هذه العواطف من أجل كائن أو موضوع واحد .

وسرعان ما سعت شرلوت إلى مخدعها كيما تستسلم لذكرى ما جرى ذلك المساء بينها وبين الكابتن .

فإنه حينما دفع إدورد الزورق وهو يثب إلى الشاطئ ، وترك للعنصر المتحرك (الماء) زوجه مع صديقه ، رأت شرلوت الرجل ، الذي طالما تأملت خفية من أجله ، جالساً قبالتها في ساعة الأصيل ، وهو يدفع الزورق

بفضل المجاديف إلى حيث شاء . هنالك شعرت بحزن عميق نادراً ما أحست بمثله من قبل . وكان لدوران الزورق ، وضوضاء المجاديف الخفيفة ، ونسيم المساء وهو يمرّ مهزّأً على المرأة السائلة ، وقسيب الغاب ، وبعض الطيور المُرَنِّقة فوق رأسيهما ، والنور المترنح ترسله النجوم الأولى — كل هذا كان له مسحة من الخيال في هذا الصمت الشامل والسكون الكامل .

وخيل إليها أن صديقها يقتادها إلى بعيد ، ليلقي بها على الشاطئ ثم يذرهما وحدها ؛ وأحست في داخل نفسها بانفعال غريب ، يئد أنها لم تقو على البكاء . ومع هذا فقد كان الكابتن يتحدث إليها عن تزيينات البستان كما صممها ؛ وأشاد بمتانة تركيب الزورق ، إذ يستطيع رجل واحد أن يقوده بيسر بواسطة مجدافين . واعلمها هي أن تتعلم وحدها كيف تقوده ؛ فأتجل أن يحس الإنسان أنه يُبحر وحده أحياناً وبأنه هو ملاح نفسه ونوئ ذاته ! فأهاجت هذه الكلمات في نفس صديقه ذكرى فراقهما القريب . فقالت في نفسها : « أيقول هذا الكلام عن قصد ؟ أو يعلم شيئاً عما تكنه ؟ أيجدس شيئاً أم يتحدث هكذا حينما اتفق ، وبدون أن يعلم يندرفى بمصيرى ؟ » فاستولت على نفسها كآبة عميقة وقلق لهيف ، وسألت حادياً أن يساحل بأسرع ما يمكن وأن يعود بها إلى القصر .

وكانت هذه أول مرة تجول فيها الكابتن فوق الغدير ، وعلى الرغم من أنه لاحظ عمقه بطريقة إجمالية ، فإنه لم يعلمه بالتفصيل . وبدأ الليل في الإظلام فولى إبحاره قبـل مكان ظنّ النزول فيه ميسوراً ، يعرف أنه لا يبعد كثيراً عن الطريق المؤدى إلى القصر . لكنه صُرف عن هذا الاتجاه أيضاً حينما كررت شرلوت الدعاء — فى شيء من اللهفة — بأن تنزل إلى البر وشيكا . فاقترب من الشاطئ باذلاً مجهودات جديدة : لكنه

لسوء الحظ شعر بالتوقف على مسافة ما . وكان الزورق قد سقط ، وذهبت جهوده لتخليصه سُدى . فما العمل ؟ لم يبق له إلا أن ينزل في الماء ، وقد كان من الضحولة بحيث يتيسر له أن يحمل صديقه إلى الشاطئ . وسعد باجتياز هذه المسافة حاملاً ذلك الحِمل العزير ؛ وكان من قوة البدن بحيث لم يتأيل مطلقاً ولم يُثر في نفس شرلوت أى ازعاج ؛ ومع هذا فقد حملها الجزع على أن تمانق رقبتة بذراعيها ، بينما أمسك هو بها بقوة وضغطها بين ذراعيه . وانتظر حتى يبلغ أرضاً أريضة مائلة لينزلها ، وتم له هذا في حالة لا تخلو من الانفعال والاضطراب . وكانت لا تزال معلقة بعنقه ؛ فضغط عليها من جديد بين ذراعيه ، وطبع على شفتيها قبلة حارة . ولكنه في نفس اللحظة سقط تحت قدميها صائحاً : « شرلوت ، هل تفجرين ؟ »

هذه القبلة التي تجاسر صديقتها على طبعها ، والتي قابلته هي بمثلها تقريباً ، دعت شرلوت إلى التأمل في نفسها . وضغطت على يده ، دون أن تنهض به ؛ ومع هذا فإنها انحنت نحوه ووضعت يدها على كتفه وصاحت : « ليس في وسعنا أن نحول بين هذه اللحظة وبين أن تكون فترة حاسمة في حياتنا ؛ لكن يتوقف على إرادتنا نحن أن تكون هذه الفترة جديرة بنا . يجب أن ترحل يا صديقي العزيز ، وسترحل . فإن الكونت يعني بإصلاح حالك : وهذا يسرني ويملائي غما . ولقد شئت أن أكتملك هذا إلى اللحظة التي يصير فيها الأمر بقيناً . وهذه اللحظة تحملني على أن أكشف لك عن هذا السر . إنني لا أستطيع أن أغفر لك ، ولا أن أغفر لنفسى خصوصاً ولدينا الشجاعة على تغيير مركزنا ، ما دام ليس في أيدينا أن نغير عواطفنا » .

وما تفوهت بهذه العبارات حتى أنهضت الكابتن ؛ واستندت إلى

ذراعه ، وعادا إلى القصر صامتين وها هي ذى الآن في غرفة نومها ، حيث يجب عليها أن تشعر وتعتزف بأنها زوج إدورد . وفي وسط هذه التناقضات أعانها على تحمل حالها خلقها التين الذي حنكته ألوان من التجارب مختلفة . وهي قد كان من عادتها أن تحاسب نفسها وتضبط عواطفها ، فاستطاعت هذه المرة أيضاً ، في غير مشقة ، أن تقترب من الاتزان المطلوب ، بواسطة تأمل جاد ؛ بل إنها لم تملك نفسها من الانقسام وهي تفكر في تلك الزيارة الليلية الغريبة . لكنها سرعان ما انتابها شعور توقع غرب ، وقشعريرة قلقه مسرورة معاً ، تحولت إلى رغبات ورعة وآمال واسعة الرجاء . لقد غلبها التأثر فخرت راكمة وكررت القسم الذي نطقت به لإدورد أمام المذبح . والصدقة والحب والزهد ، كل هذا تبدى لها في صور براقة باسمة ؛ فأحست بتجديد في باطنها ؛ وسرعان ما تولاهما فتور عذب وورقت في نماس هادئ .

الفصل الثالث عشر

أما إدورد فقد كان في طور مختلف عن هذا كل الاختلاف . فهو لا يكاد يفكر في النوم ، حتى إنه لم يخطر بباله أن يخلع ملابسه . وها هو ذا يطبع آلاف القبلات على نسخة الوثيقة ، أو مستهلها على الأقل ، حيث تتجلى يد أوتيل في طفولة وحياء ؛ أما الجزء الأخير فهو لا يكاد يجرؤ على تقبيله ، لأنه يتوسم فيه خطه هو . آه لو كانت هذه الصفحات تدور حول موضوع آخر ! هكذا قال لنفسه . ومع هذا فهي في نظره الشاهد السعيد على أن أعز أمانيه قد تحققت . وهذه الصفحات ستظل في يده ؛ فلا يستطيع

دائماً إلا أن يضطربها على قلبه ، على الرغم من أنها ستدنس بتوقيع شخص ثالث !

وكان القمر قبل انحداره مضيئاً فوق الغابة ؛ والليل الفاتر يدعو إدورد إلى الخروج ؛ وها هو ذا يغدو ويروح من كل ناحية ؛ وهو أشد الناس اضطراباً وسعادة معاً . يجول في البستان ، فيشعر بالضيق ؛ ويجرى في الريف فيحس زيادة الابتعاد . فيعود إلى القصر ، فيجد نفسه تحت نوافذ أوتيلي . وهناك يجلس على سُلَّم سَطْح ، ويقول في نفسه :

« إن جدراناً وأقفالاً تفصل بيننا الآن ، لكن قلوبنا لا تفصل . لو كانت أمامي ، إذاً لسقطت بين ذراعي ، وسقطت أنا بين ذراعيها ؛ وماذا أربغ فيه أكثر من يقيني بهذا ؟ ! »

سكن كل شيء حوله ؛ فلا نسيم للريح ؛ والهدوء قد بلغ من العمق مبالغ تجعل في مقدوره أن يسمع حركة الحيوان تحت الأرض ، هؤلاء المعدّنون الذين لا يكلون ، والذين يتساوى لديهم الليل والنهار . ثم غرق في أحلامه السعيدة ، وأخيراً نام ؛ وحينما استيقظ كانت الشمس قد تبدت بكل روعتها وجلالها وبددت أبخرة الصباح .

وكان أول الناهضين من النوم في ضياعه ؛ وتبدى له العمال متأخرين . وأقبلوا : فوجدهم قِلّة ضئيلة ووجد العمل المنوط بهم ذلك اليوم قليلاً كل القلة في نظر رغبته . فطلب استحضار عدد أكبر من العمال : فوعده ، وأتى بهم خلال النهار . لكنهم هم أيضاً لم يكونوا كافين لكي يرى مشروعاته منجزة بسرعة . بل العمل نفسه لم يعد يبعث في نفسه أية لذة : فيجب إتمام كل شيء حالاً وبلا أدنى تأخير . ولن ... ؟ يجب أن تعبد الطرق ، كي تسير عليها هي بسهولة ويسر ؛ وأن توضع المقاعد في

أما كنها ، كى نستطيع أن نستريح . وهو يستحث بكل ما فى مقدوره إنجاز الأعمال الخاصة بالمنزل الجديد ؛ ويجب إقامة القوائم الخشبية فى يوم عيد ميلاد أوتيل ، ولم يعد إدورد يلتزم حدوداً لا فى عواطفه ولا فى أفعاله . فإن فكرة أنه يحب ويبادل هذا الحب قد دفعت به إلى غير نهاية . آه ! لشد ما تغيرت المنازل والأجواء المحيطة فى ناظره ! إنه لا يجد نفسه بعد فى منزله الحقيق . فإن حضرة أوتيل قد ابتاعت كل ما عداها عنده ؛ فهو لا يحيا إلا فيها ؛ ولا فكرة لديه إلا فيها ، ولم يعد ضميره يحدّثه بعد ؛ وكل ما كان مقيداً فى نفسه حطم قيوده ، وتدافع كل كيانه نحو أوتيل . ولاحظ الكاتبين حركاته العاطفية المشبوبة ، وود لو استطاع أن يلوى عنانه عن نتائجها المشنومة . فكل هذه الأعمال التى عجّل بها فوق كل حدّ تحت تأثير اندفاع مُفسرط ، قد قدرها هو وحسبها من أجل جماعة من الأصدقاء الهادئين . وبيع الضيعة المستكراة قد تم بفضل اهتمامه ، ودفع القسط الأول ، وأودعته شرلوت فى خزائنها وفقاً لما تعاهدوا عليه . لكن من الأسبوع الأول شعر بوجود زيادة التنبية والنظام والصبر أكثر مما اعتاد ، لأنه إذا استمر العمل بهذا الاندفاع والسرعة ، فإن المبلغ المرصود لن يكفى طويلاً لذلك .

لقد شرعوا فى عمل الكثير ، وبقى لديهم الكثير ؛ فهل يستطيع الكاتبين أن يترك شرلوت فى هذا الموقف ؟ فاشتورا وقر الرأى على أن الأفضل هو التعجيل بالأعمال المتفق عليها ، والاقتراض من أجل إتمامها ، وتحديد الدفع وفقاً لمواعيد حلول الأقساط الباقية من ثمن الضيعة المبيعة . وهذا يمكن أن يتم دون خسارة ، بواسطة التنازل عن هذه الحقوق ، فتكون أيديهم أكثر حرية وطلاقة ، ويكون فى وسعهم القيام بأكثر من عمل

في آن واحد ، ما دامت الأعمال جارية والمال متوفرين ، فيستطيعون الفراغ منها بكل سرعة ونأ كيد . ورافأها إدورد بكل ارتياح على رأيهما ، لأنه يتفق وأغراضه .

ومع هذا فقد أصرت شرلوت في أعماق قلبها على آرائها وتصميماتها ؛ ولما كان صديقها يشاركها نفس الشعور ، فقد آزرها بكل شجاعة . ولكن هذا لم يفعل إلا أن زاد في خلوتها وموانستهما . فأجالا الرأي سويا في مسألة عاطفة إدورد ، فكانت مدار حديثهم . وقربت شرلوت أوتيل من شخصها ، ولاحظتها عن قرب ؛ وكلما عرفت حال قلبها هي نفسها ، زاد نفوذها وفهمها لقلب تلك الفتاة . فلم تجد وسيلة للنجاة خيراً من إبعادها .

وكانت فرصة سعيدة في نظرها أن ترى لوسيان وقد وشَّحها أهل مدرستها حُلَل الثناء والإطراء ؛ لأن أخت جدتها ما كادت تسمع بهذا المديح حتى أرادت أخذها لديها لتبقى عندها دائماً كيما تدخلها في المجتمعات والمحافل . هنالك يتيسر لأوتيل أن تعود إلى المدرسة . والكابتن بدوره سيرحل ضروداً بمركز محترم . وهكذا سيسير كل شيء كما كان سائراً من قبل بضعة شهور ، بل وعلى وجه أحسن . وأملت شرلوت أن تصلح من صلاتها بإدورد ؛ فرتبت كل شيء في ذهنها على نحو من الحكمة وحسن التدبير حتى إنها ازدادت اقتناعاً بالفكرة الزائفة ، فكرة إمكان العود إلى الحياة المحدودة النطاق ، وأن الوجدان المنطلق سيلتزم عما قليل حدوده .

يبد أن إدورد أحس بشدة وطء العقبات التي وضعت في طريقه . وسرعان ما لاحظ أنه يُباعَد بينه وبين أوتيل ؛ وأنه يضيق عليه الخناق حتى لا يتحدث إليها على انفراد ، بل أن يقترب منها ، اللهم إلا في حضرة

أشخاص آخرين . ومن سخطه على هذا المسلك ، تأوّن حنفاً على كل شيء . وإذا استطاع أن يوجه إليها بمض كلمات عابرة ، فلم يكن هذا المجرد تأكيد حبه إياها ؛ بل كان أيضاً من أجل الشكاة لها من زوجته ومن الكابتن . ولم يشعر بأن اندفاعه سيفضى حتماً إلى استنفاد المال الموجود ؛ فكان دائم التريب على شرلوت وصديقها — تريب ممزوج بالمرارة — لأنهما يسلكان في هذه المسألة مسلكاً يتنافى مع ماعاقدوا عليه أول الأمر . ومع هذا فقد أبدى موافقته على الترتيبات الجديدة ، بل كان هو الباعث عليها المؤكد لضرورتها .

البُغض مُفْروض ، ولكن الحب أشد إغراضاً منه . فإن أوتيلي تبذرت بدورها أنها تتباعد عن شرلوت والكابتن . وذات يوم كان إدورد يشكوها إلى أوتيلي قائلاً إنه لا يسلك مسلك الصديق ولا يخلص كامل الإخلاص في هذه المسألة ، فأجابه أوتيلي بغير تدبر ولا تفكير :

— لقد أرجئني من قبل أنه تعوزه الصراحة معك . فلقد سمعته يوماً يقول لشرلوت : « بودي لو رحمتنا إدورد من نايه ؛ وهو لن يكون ماهراً في العزف عليه ، ومثل هذا تستك منه المسامح » . وفي وسعك أن تحكم إلى أي مدى جرحتنى هذه الكلمات ، أنا التي أجد لذة ما بعدها لذة في مصاحبتك عليه .

ولم تسك تنطق بهذه الكلمات حتى أحست بالحكمة توحى إليها في أذهنها أنه كان الأخلق بها أن تسكت ؛ ولكن الأقوال خرجت من لسانها فأربد وجه إدورد إذ لم يشعر بأن شيئاً ما قد بلغ من إيذائه وجرح إحساسه مثل ما فعل هذا . فقد أهيئ في أعز أهوائه . فأحس بمنافسة طفولية لا يمازجها أي ادعاء . وقد كان على أصدقائه أن يحاوه فيما يسره ويشيع

عنده اللذة . ولم يفكر ولم يقدر مدى ما يصيب الآذان من أذى وعذاب من جانب عازف وضيع المنزلة مخفوض المسكان . لقد أهين فاستشاط غضباً ووجع صدره إلى حد لا يمكن معه الصفع . فأحس بأنه حرٌّ من كل واجباته .

وفي كل يوم يزداد شعوره بالحاجة إلى أن يكون بالقرب من أوتيل وأن يراها ، ويهمس في أذنها بكلمات رفاق ، ويبتها طويلاً نفسه . وقرَّ عزمه على أن يكتب إليها ، سائلاً إياها تراسلاً سرياً . وكانت الوريقة الصغيرة التي كتب عليها هذا الاقتراح في كلمات قصار موضوعة فوق مكتبه ، وإذا بتيار هواء يدفع بها إلى أرض الغرفة في اللحظة التي جاء فيها خادم ليمشط شعره . وكان من عادته أن يختبر حرارة الكسوة بأوراق يلتقطها من فوق الأرض ، وفي هذه المرة أخذ البطاقة وقبض عليها بالملقاط بشدة ، فاحترقت البطاقة . فلما شاهد سيده خطأ ، انتزعها من بين يديه . وبعد قليل جاول أن يكتب بطاقة أخرى ، ولكن لم يسلبها قلمه بنفس السهولة : فقد أحس إدورد بشيء من تأنيب الضمير وشائعة من القلق ، استطاع مع هذا أن يتغلب عليهما . وأزلق البطاقة في يد أوتيل حينما استطاع الاقتراب منها . وما عتَمَّت أوتيل أن ردَّت عليه لفورها . وقبل أن يتيسر له قراءة بطاقتها الصغيرة ، وضعها في جيب صدره ، وقد كان قصيراً على أحدث طراز ، فلم يستطع الاحتفاظ بالورقة جيداً ؛ فانزلت وسقطت دون أن يشعر . ولكن شلوت رأتها فالتقطتها وقدمتها إليه بعد أن أتمت عليها نظرة عابرة ، قائلة : خذ هذا فهو مما خططته يمينك وقد تحزن لفقده .

فاستولى عليه الدهول . وقال لنفسه : أمي تخفى شيئاً ؟ وهل رأت ما تحتويه هذه البطاقة ، أو هي قد خدعت بتشابه الخطوط ؟ ورجى أن

يكون الفرض الأخير هو الصحيح . لقد نبه وحذّر مرتين ، ولكن هذه العلامات الغريبة ، العرَضية التي يبدو أن كائنا أعلى يتحدث إلينا عن طريقها ، هذه العلامات لم يستطع وجدانه أن يفهمها ؛ وكلا دفع به هذا الوجدان إلى أبعد ، ازداد شعوره الأليم بالضيق الذي لاح له أنه يفرض عليه . فتبدد الاثناس الرقيق وأُرجح على قلبه بالأسداد ، وحينما كان يضطر إلى الوجود في حضرة صديقه وزوجه ، لم يكن في وسعه أن يستميد في فؤاده ذلك الحب الأول الذي كان يستشعره نحوها ، ولا أن يجيبه من جديد . وكانت ألوان الثريب الستور الذي كان يستشعره بالرغم منه في هذا الصدد ، ثقيلة على نفسه ، وحاول جهده التخلص منها بنوع من المرج ليس له لطفه المعتاد ، لأنه خلا من الحب .

أما شرلوت فقد نجت من كل هذه المحن بفضل حالة قلبها المستورة . وأحست بأنها قد طوت كُشْحها بكل جِدٍّ على أن ترهد في أنبل عاطفة وأحلاها .

وكم كانت تود أن تكون هي نفسها في عون هذين العاشقين ! فالبعاد — لقد أحست بهذا جيداً — لن يكفي لملاج مثل هذا الداء المُضال . فخطر ببالها أن تواضع هذه الفتاة المسكينة (أوتيلي) الرأي ، بيد أنها لم تستطع أن تقطع عزمها على هذا السلك : فإن ذكرى ناحية ضعفها هي تقف في طريقها . فحاولت أن تعبر عن نفسها في هيئة قضية عامة ، ولكنها وجدت أن أقوالها تنطبق على حالتها هي أيضا ، وهي تخشى أن تصفها لنفسها . فكل النصائح التي تريد أن تسديها إلى الفتاة ترتد على قلبها وشجونه . إنها تود أن تبذل النصيح ، لكنها تشعر بأنها لعلها هي الأخرى في حاجة إلى أن تُمَحَضَّص صادق النصيحة .

فلاذت بالصمت ، واستمرت تسمى في المباحدة بين العاشقين . غير أن الإشارات الخفيفة التي تند عنها أحياناً لا تؤثر في أوتيل ، لأن إدورد كان قد أقنعها بأن شرلوت مستهامة بالكابتن ، وأنها تريد من جانبها أن تحصل على طلاق ، لا يفكر في إنفاذه إلا بطريقة تتفق والكرامة وحسن الآداب .

أما أوتيل ، وقد سندها شعورها ببراءتها في مسلكها نحو السعادة ، وهي قبلة كل آمالها ، فإنها لم تعد تحيا إلا من أجل إدورد . فثبتت قدمها في كل ما هو خير بفضل ما تحمّله نحوه من حب ، وأقبلت على العمل بسرور جديد صادر عن وحيه ، وازداد تفتحها لجميع الناس ، فأحست بحجة النعيم على الأرض تقيم .

وعلى هذا النحو استمروا جميعاً يسايرون ركب الحياة ، كل وفق ما يهوى ، دون ما تفكير أو بشيء منه . ولاح كل شيء كأنه يتابع سيره المعتاد : كما يحدث في المواقف الخطيرة الرهيبة التي يكون فيها كل شيء هدفاً للفرار ، أن يتابع الناس مجرى الحياة وكأن لم يحدث شيء .

الفصل الرابع عشر

وصلت رسالة من الكونت إلى الكابتن ، أو بالأحرى رسالتان : إحداها قابلة للنشر وفيها إشارة إلى آفاق جميلة واسعة في المستقبل البعيد ؛ والأخرى تنطوي منذ الآن على عرض حاسم لمنصب هام في الإدارة والبلاط ، مع رتبة صاغ ، ومرتب ضخيم ومزايا أخر ، وهذه الرسالة لا يجب أن تذاع لاعتبارات خاصة . لهذا أنبأ الكابتن أصدقاءه بنبا تلك

الآفاق الواسعة في الآجل ، وأخفى عنهم العرض العاجل .
 لكنه استمر مثابراً في أعماله الحالية وهياً اللازم - سرراً - لكي
 يسير كل شيء في طريقه دون عائق أثناء تفييه . فأهمه آنذاك أن يعين
 أجلاً لكثير من الأعمال وأن يعجل عيد ميلاد أوتيلي بإتمامها .
 ومنذ ذلك الحين والصديقان يعملان سوياً بغيرة وحماسة ، وإن لم يكن
 هذا باتفاق صريح . فادورد قد اغتبط لرؤية صندوق المال ممتلئاً ، بواسطة
 مبالغ حُصِّلَتْ مُعَجَّلَةً ؛ وأجذله أن يرى العمل كله يسير سيراً وريحاً .
 ولقد كان الكابتن راغباً في صرفهم الآن عن تحويل الغدران الثلاثة
 إلى بحيرة . إذ كان من الواجب تقوية السد السفلى ، ورفع السدود
 الوسطى ، وكانت هذه مهمة جديدة شاقة من عدة نواح . ولكن العاملين ،
 وقد كان كل منهما يساعد على الآخر ، قد بدأ فعلاً ؛ ولحسن الحظ وصل
 تلميذ قديم لصديقنا ، وهو مهندس معماري شاب استطاع أن يتقدم بالعمل
 إما باستخدام صناع ماهرين أو بإعطاء الأعمال على هيئة مقاولات ، ووعد
 بأن يكون لهذا العمل رسوخ ودوام . وطاب قلب الكابتن سرراً لأنهم لن
 يشعروا بغيته ، إذ هو قد اتخذ لنفسه قاعدة أن لا يترك عملاً ناقصاً كلّف
 به قبل أن يرى أن محله شُغِلَ على وجه مناسب ؛ وكان يزدري هؤلاء الذين
 يلذ لهم أن يشعروا الناس بارتحالهم فيبدأوا بإثارة الاضطراب في تلك
 الأعمال التي يدبرونها ؛ إنهم أثرون جفاة غلاظ يسرهم أن يقضوا على
 الأعمال التي لن يتموها بأيديهم .

وهكذا استمر العمل دون إبطاء ولا انقطاع ، من أجل الاحتفال بعيد
 ميلاد أوتيلي ، دون أن يُصرّحوا بهذا علناً . غير أن شرلوت ، وإن كانت
 بعيدة عن عواطف الغيرة ، فإنها رأت من الواجب ألا يكون هذا العيد حافلاً

نحنا . فإن شباب أوتيلي وقلة يسارها ، وطبيعة صلتها بالأسرة لا تخول لها أن تظهر في هيئة ملكة احتفال . بل يجب أن يصدر كل شيء عن طبيعته وأن يسبب مفاجأة وسروراً طبيعياً .

فتم الاتفاق ضمناً على المناسبة : ففي ذلك اليوم تنصب قوائم بيت الزهرة ، دون أن يلوح أن هناك غرضاً آخر ، وبهذه المناسبة يمكن أن يعلن عن احتفال لأهالى القرية والأصدقاء على السواء .

بيد أن عاطفة إدورد لم تعرف بعدُ حداً . فلقد أراد أن يتملك معشوقته فلم يضع حداً لسخائه وهداياه ووعوده . أما شرلوت فقد أشارت عليه باقتراحات متواضعة جداً تتعلق ببعض الهدايا التى أراد تقديمها إلى أوتيلي في ذلك اليوم . لهذا تحدث في الأمر مع خادم غرفته الذى كان يعنى بحزانه ملابسه ، كما كان على اتصال دائم بالتجار وأهل الأزياء . فأوصى هذا الرجل ، الذى كان يعرف كيف يختار الهدايا الفاخرة ويقدمها كما يجب ، بأجمل صندوق في المدينة ، مغطى بالجلد المراكشى الأحمر ، ومزود بمسامير من الصلب ، ثم ملأه بهدايا جديرة به .

واقترح على إدورد اقتراحاً آخر ، فاقد كان في القصر قليل من السواريح النارية التى أهملت منذ زمن ولم تطلق ؛ وكان من اليسور زيادتها وتوسيمها . فاعتبط إدورد بهذه الفكرة ، وواعد الخادم بالإشراف على تنفيذها . وكان يجب أن يظل هذا الأمر سرّاً .

وقبل اقتراب ذلك اليوم أرصد الكابتن الأهبة لصيانة الأمن في ظرف كهذا يدعى فيه جمع كبير في مكان واحد . بل احتاط أيضاً لإبعاد المسؤولين وغيرهم من المقلقين الذين يمكن أن يعكروا صفو لذات عيد .

وإدورد من ناحيته قد شغل هو وأمين سره (خادم غرفته) بإعداد السواريح النارية ، فقدرا إطلاقها ناحية الغدير الأوسط قبالة أشجار البلوط الكبرى ؛ وأمامها مستجلس الجماعة تحت أشجار الدُّاب ، كما يكون في رسمها أن ترى المنظر على بعد مناسب من دون تعرض لخطر ، وأن تعمل بانعكاساتها في الماء وبما يسبح فوق السطح منها وهو يحترق .

ولعذر أو لآخر أمر إدورد باقتلاع العوسج والحشائش والطحلب من تحت الدُّاب ، فتبدت الأشجار في تمام روعتها وكال فتنتها فوق المكان الوضيء النظيف . فأحس بهزة سرور كبرى . وقال لنفسه : « في مثل هذا الفصل غرستها . لكن كم من السنين مضت ؟ » وما كاد يعود إلى القصر حتى تصفح اليوميات القديمة التي كان والده يسجلها بنظام فائق ، خصوصاً وهو في الريف . بيد أنه لم يكن من الممكن أن يذكر هذا الغرس فيها ؛ لكن حادثاً منزلياً على جانب من الأهمية ، جرى في نفس اليوم ، وهو يذكره تمام التذكر ، لا بد أن يكون قد سُجل فيها . فتناول بضعة مجلدات ، وجد بها تسجيل الحادث . وفي وسع المرء أن يقدر كم كانت دهشته وكم كان سروره ، حينما اكتشف أعجب اتفاق زمني : إذ وجد أن اليوم والسنة اللذين غُرست فيهما هذه الأشجار هما بينهما اليوم والسنة اللذان ولدت فيهما أوتيلي .

الفصل الخامس عشر

وأخيراً تلاً الصبح الذي انتظره إدورد بصبر نافذ . وأقبل الضيوف أفواجا تلو أفواج ، لأن الدعوة قد أرسلت في نطاق واسع ، وكثير من

الناس الذين أهملوا حضور الاحتفال بوضع الحجر الأساسى — وقد كان احتفالاً عاد منه الجميع بأطيب الذكريات — لم يشاءوا أن يضيع هذا الاحتفال الثانى . وقبل الغداء ، لاح النجارون فى فناء القصر ، تسبقهم الموسيقى ، وهم يحملون إكليلهم الثمين المكون من أطواق عديدة من الأوراق والأزهار النسقة على هيئة طبقات يراقص بعضها فوق بعض . ثم أنشدوا تحيتهم والتمسوا من النسوة أن يقدمن مناديل حريرية وشرطاً من أجل الزينة المعتادة . وبينما كانت الجماعة تتناول طعام الغداء ، استمروا فى موكبهم الصاخب ؛ وبعد أن تلبسوا فى القرية مليئاً ، حيث حصلوا من النسوة والفتيات على بعض الشرط أيضاً ، بلغوا أخيراً ، يصحبهم جمع حافل ، اليفاع الذى ارتفع عليه المنزل .

ودعت شرلوت الجماعة إلى السكوث قليلاً بعد الغداء ؛ فهى لم تشأ تسيير موكب رسمى منظم ؛ لهذا مشى الضيوف جماعات صغيرة بلا تتابع ولا نظام إلى المكان المعد دون جلبة ولا ضوضاء . وبقيت شرلوت فى المؤخرة هى وأوتيلى . لكن هذا لم يكن من شأنه أن يحقق مقصودها ، فإنه لما كانت الفتاة (أوتيلى) قد ظهرت فى المؤخرة فقد لاح أن الأبواق والدُفوف لم تكن تنتظر إلا مجيئها ، وكأن الاحتفال لم يكن ليبدأ إلا عند قدميها .

ولكى يزول عن المنزل مظهره الخشن فقد زين بالأغصان والأزهار فى فن وأناقة ، وفقاً لما أشار به السكابتين . ومع هذا فإن إدورد ، على غير علم من السكابتين ، قد دعا المهندس لرسم التاربخ على الواجهة بواسطة أزهار . ولقد كان هذا مقبولاً ، غير أن السكابتين أتى فى الوقت المناسب للحيولة دون تلؤؤ اسم أوتيلى على فواصل الواجهة ؛ فاستطاع بمهارة أن يمنع منه وأن ينبهى الحروف من الزهر بعد أن كانت قد أعيدت فعلاً .

ورفع التاج وتبدى من بعيد في هذا الإقليم . ورفرفت الشرط
والناديل المدينة الألوان وتلاعبت بها الرياح ؛ وتبدد الشطر الأكبر من
خطبة قصيرة أقيمت في الهواء ؛ وقارب الاحتفال الرسمي نهايته ؛ وكان
الرقص بسبيل الابتداء ، فوق مكان أحيط بالأوراق ومُهد خير تمهيد ،
يقوم قبالة المنزل . واقتاد نجارٌ شاب ، في لباس العيد ، فتاة ريفية رقيقة
إلى إدورد ، والتمس من أوتيلي ، وكانت إلى جواره ، أن تراقصه . وسرعان
ما قلدها الكثيرون . وأسرع إدورد باستبدال مراقصته . فأمسك بأوتيلي
ورقص معها رقصة الدائرية (الفَلْتِس) . وشارك شباب الجماعة في سرور
ومرح الشعب في رقصاته ، بينما استدار الكبار حول الراقصين .

وقبل أن يتفرق الشمل للتريض ، اتفقوا على الاجتماع ناحية الدُّلَب
عند مغيب الشمس . وكان البارون أول الواصلين ، فنظم كل شيء وتقام
مع خادم غرفته ، وقد كان عليه أن يسهر على التنفيذ وهو قائم على الناحية
الأخرى مع عامل السواربخ .

بيد أن الكابتن لم ينظر إلى هذه الإعدادات بعين الرضا والسرور ،
وشاء أن يصور لصديقه الازدحام الكبير المنتظر ؛ لكن إدورد سأله ،
بشيء من الحدة ، أن يدعه وحده يشرف على هذا الجزء من برنامج الاحتفال .
وها هو ذا الجمع قد احتشد فوق السدود التي قطع أعلاها وأزيلت
الحشائش منها في الأماكن التي كانت الأرض فيها غير ممهدة ولا مستوية .
وغابت الشمس ، وولد الشفق ، وفي انتظار زيادة الإظلام أديرت الرطبات
على المجتمعين تحت الدُّلَب . وتبدى هذا المكان موفور الفتنة والجمال ،
وسر القوم فكسره مكان تأمل بحيرة كبيرة من هذا الوضع ، بحيرة
تعلوها شيطان رائعة .

وكانت أمسيةٌ ساجيةٌ لا تملو فيها الريح ، بَشَّرتُ بِانْجَاحِ العيدِ الليلي ،
وإذا بصرخاتٍ مريضةٍ تتردد في الحال فجأةً : فقد انهارت قطع ضخمة
من الأرض وانفصلت عن السد ؛ وشوهد كثير من الناس يُدفع بهم في
الماء ؛ وتداعت الأرض تحت ضغط الحشد وتدافعه ، وقد ازداد شيئاً
فشيئاً ؛ فقد شاء كلُّ أن يحظى بخير موضع ، ولم يستطع أحد بعدُ أن
يتقدم أو يتقهقر .

وهُرعَ الجمعُ للنظر أكثر منه للعمل . وأيم الحق ، ماذا كان في
الوسع عمله حيث لم يكن من الميسور بلوغ المكان الذي وقع الحادث فيه ؟
وأقبل الكابتن ومعه رجال أشداء ، وأمر الجميع بالنزول من السد إلى ناحية
الشيطان ، كيما تتسع فرصة العمل لهؤلاء الذين حاولوا إنقاذ الغرقى المساكين
من الماء . وهامهم جميعاً أولاء قد استطاعوا بلوغ الشاطئ ، إما بمجهودهم
الخاصة أو بمعونة الآخرين ، اللهم إلا فتى صغيراً حملته حركاته المتدافعة على
الابتعاد عن السد بدلاً من الاقتراب منه . ولاح أن قواه خاتته ، فلم يكن
يُشاهد منه أحياناً إلا قدم أو يذلا تزال تتراءى .

ولسوء الحظ كان الزورق في العُدوة الأخرى ، مليئاً بالسواريح . ولم
يكن في المستطاع تفريغ حمولته إلا ببطء ، فكان لا مناص من محاولة
إسعافه في التو . هنالك عزم الكابتن على النهوض بهذا الأمر ، نخلع ملابسه ،
وشخصت كل الأبصار إليه ، وبمث قوامه المرن المصبى الثقة في نفوس
الجميع ؛ غير أن هؤلاء أرسلوا صيحة دهشة واستغراب حيناً رأوه يلقي
بنفسه في الماء . فتابعت كلُّ النظرات هذا السباح الماهر الذي سرعان
ما ظفر بالفتى الصغير وعاد به إلى السد ، لكن لم يبد عليه أثر الحياة .
وبقوة المجاديف أتى بالزورق ، فصمده الكابتن ، واستعلم بدقة من

الأشخاص الحاضرين عما إذا كان الكل قد أُنقِذوا . ووصل الجراح
وعُني بالصبي الذي ظن الكل أنه مات . وهُرعَت شرلوت سائلةً
الكاتبين ألا يفكر بعدُ إلا في أمر نفسه ، وأن يعود إلى القصر لاستبدال
ملابسه . فتردد إلى أن صرح أشخاص هادنون أذكيا رأوا الحادث عن
قرب وأمرعواهم أنفسهم بانتشال الساكنين من الماء — صرحوا له بكل
مخرجة من الأيمان أن الجميع قد نَجَسُوا .

وشاهدته شرلوت وهو يقدو إلى المنزل ؛ وأفكرت في أن الحجر والشاي
وكل ما هو ضروري قد أغلق عليه بمفتاح ، وفي أن الناس في مثل هذه
الأحوال يعملون كل شيء على عكس ما يجب . فَعَدَت وسط الجماعة
المشتتة وقد كانت هذه الجماعة لا تزال ماثلة تحت أشجار الدُّلب ؛ ورأت
إدورد مشغولا بإقناع كلِّ بالبقاء ، وقد أوشك على إعطاء الإشارة لإطلاق
السواريح . فاقتربت منه وتوسلت إليه أن يصرف النظر عن الأهمية لن
يكون هذا موضعها ولم يكن من المستطاع التمتع بها في تلك الساعة ؛ وذكرته
بالعناية التي يجب بذلها للصبي المُنقَذ والمُنقِذه .

فأجاب إدورد : « سيقوم الجراح بواجبه . فقد زُوِّد بكل شيء ، ولن
يكون من شأن استعجالنا إلا مضايقته » .

غير أن شرلوت أصرَّت ، وأشارت إلى أوتيلي ، فتهيات هذه لمبادرة
المكان تَوَّأ . فأمسك إدورد بيدها وصاح : « لن نُنهي هذا اليوم في
المستشفى . إن فيها من الخير ما يُأهلها لأن تكون من أخوات الإحسان .
والذين يتبدون موتى ليسوا في حاجة إلينا كيما يستيقظوا ، كما أن الأحياء
في غير حاجة إلينا كيما يحفظوا أنفسهم » .

فالتزمت شرلوت الصمت ومضت ، يتبعها الكثيرون ، وبتلوها

آخرون ، ولم يشأ أحد أن يكون آخر الذاهبين ، وقليلًا قليلًا تبدد الجمع . ولم يبق إلا إدورد وأوتيل وحدهما تحت الدُّلُب . لقد شاء أن يظل هاهنا مهما كان الأمر ، على الرغم من شدة توسلاتها وحرارة تضرعاتها إليه أن يعود معها إلى القصر .

وصاح : « كلا ، أوتيل ! فإن الحارق للمادة لا يسلك السبل الممهدة المعتادة . فإن هذا الحادث غير المتوقع الذى جرى هذا المساء قد وُحِدَ بيننا بطريقة أسرع . إنك لى ، هكذا قلت لك من قبل وأقسمت مراراً ؛ ولسنا نريد بعدُ أن نقسم به ولا أن نتفوه : فهذا شئ ، قد تم الآن » .

وتقدم الزورق من المُدوَّة الأخرى : لقد كان به خادم الغرفة أتى يسأل ، بلهجة مضطربة ، عن مصير السواريح .

« أَطْلِقْهَا ! هكذا صاح فيه البارون . لقد أُعدَّت من أجلك ، أى أوتيل ! وستكونين وحدك من يشاهدها . فاسمحي لى بالتمتع بمراقبتها إلى جوارك » .

وأتخذ مجلسه إلى جوارها ، بشئ من التحفظ الرقيق ، دون أن يسمَّها . وانطلقت السُّهمان ، وترددت الطلقات ، واصَّاعدت النجوم ، واندفعت الأفاعى النارية وتلألأت ، وصَفَرَتِ الشُّمُوسُ : فى البدء منفردة ومن بعد أزواجا ، ثم جماعات جماعات ، وفى كل مرة يزداد بريقها ، بالتوالى أو السُّكُلُ معا . وتابع إدورد — موله الفؤاد — منظر هذه الشُّعَلُ بعيون راضية زاهية ؛ أما أوتيل ، وقد تأثرت برقة ، فقد شعرت بقلق أولى من أن تشمر بلذة أمام هذه النيران الصاخبة ، هذه البروق التى لم تكن تشتمل إلا لتتلفى . قالت إلى إدورد فى استحياء ، وملأه هذا الميلُ ، وهذه الثقة ، يقينا بأنها قد صارت له بكل كيائها .

وما تربع الليل عرشه حتى أشرق القمر ليضيء سبيل العاشقين وهما يعودان إلى القصر . ثم اعترض طريقهما رجل ، قبعته في يده ، سائلاً إحساناً ، لأنه أمهل في يوم العيد هذا . وقد أضاء القمر بحياه ، وتوسم فيه البارون ملامح السائل الثقيل . لكن لما كان مغمماً آنذاك بالسرور ، فقد عز عليه الغضب ، ولم يخطر بباله أن التسول قد منع في ذلك اليوم منعاً باتاً . ولم يفتش طويلاً في جيبه ، وأعطى المسكين قطعة من الذهب . لقد كان بوده أن يشيع السعادة في جميع الناس ، لأنه أحس بأن سعادته لم تكن حينئذ ذات حد ولا نهاية .

وفي القصر سار كل شيء على ما يرام . فهاجرة الجراح وسرعة الإسعاف ومعمونة شرلوت ، كل هذا قد تضافر على رد الصبي إلى الحياة ، وتفرق الضيوف ، إما لرؤية شيء من السواريح من بعيد ، أو ليأووا بعد هذا المنظر المضطرب إلى مخادعهم الوادعة .

والسكابتين ، بدوره ، شارك مشاركة فعالة في العناية اللازمة ، بعد أن أبدل ملابسه . وعاد السكون ، وصار وحيداً مع شرلوت . هنالك ، وبما للصدافة من ثقة وإخلاص ، صرح لها بأن رجليه قريب . وهي كانت قد عانت الكثير في المساء ، حتى إن هذا الخبر لم يؤثر فيها كثيراً . لقد رأت تقافى صديقتها ، وهو ينقذ الآخرين ، ورأته ناجياً هو نفسه . فتبدت لها هذه الأحداث الغريبة كأنها تنذر بمستقبل خطير ، ولكنه ليس باتسماً ولا مشؤماً .

كذلك أنسي إدورد ، وقد عاد مع أوتيلي ، بنبا هذا الرحيل القريب ، وحدس أن شرلوت لا بد أن تكون قد علمت بالخبر قبله ، لكنه كان من الاشتغال بنفسه وبمشروعاته بحيث لم يشعر بإهانة من هذه الناحية .

بل بالعكس ، تلقى نبأ هذا المركز الجيد المحترم الذى سيوضع فيه الكابتن بسرور وشوق . لقد كانت آماله المستورة تسبق الحوادث بسرعة وحمية . وها هو ذا يتمثل اتحاده بشرلوت واتحاد نفسه بأوتيل . وما كان لهدية خيراً من هذه أن تحظى منه بالقبول فى هذا العيد .

لكن كم كانت دهشة الفتاة حينما دخلت غدعها فشاهدت الصندوق الثمين فوق منضدتها ! وسرعان ما فتحتة ، فتبدي لها كل شئ ، محكم الحزم جيد التنسيق ، حتى إنها لم تكذب تجرؤ على نقل شئ من مكانه ، أو المساس به . فالوصلى والقصى (الباتستا) والحرير والشيلان والدنتلة كان ينافس بعضها بعضاً فى الدقة والأناقة والجمال . ولم يُنس الخلى . ففهمت تمام الفهم أن إدورد قد قصد إلى أن يهيئ لها لباساً كاملاً من الرأس حتى القدمين ؛ بيد أنها وجدت كل شئ من النفاسة والشُدرة بحيث لم تجرؤ على الاعتقاد بأن هذا كله من أجلها .

الفصل السادس عشر

وفى الغد كان الكابتن قد ارتحل تاركاً لأصدقائه رسالة مليئة بشواهد شكرانه العميم . لقد كان ودّع شرلوت فى المساء السابق بكلمات وداع قصار . فشعرت بأن هذا الانفصال سيكون إلى الأبد ، فاستسلمت : ذلك أن الرسالة الثانية من الكونت — وقد أطلع الكابتن شرلوت عليها — قد تحدثت عن إمكان إيجاد زواج للكابتن موفق ؛ وعلى الرغم من أنه لم يُعر هذه المسألة أى اهتمام فإنها هى قد عدت هذه المسألة ثابتة يقينية ، فكفت عنه نهائياً .

بيد أنها اعتقدت أن في وسعها أن تطالب الآخرين بالجهد الذي بذلته لنفسها . فما كان غير مستحيل بالنسبة إليها يجب أن لا يكون مستحيلاً أيضاً بالنسبة إلى الآخرين . وتحت تأثير هذه الفكرة دخلت مع زوجها في حديث كان فيه من الصراحة والإخلاص بقدر ما كان يجب الانتهاء من المسألة إلى غير رجعة .

قالت له : « لقد غادرنا صديقنا ؛ وها نحن أولاء من جديد في مواجهة بعضنا بعضاً كما كنا من قبل ، ولا يتوقف إلا علينا أن نعود إلى ما كنا عليه من قبل تماماً »

ولكن إدورد ، الذي لم يكن يستمع إلا إلى ما يتماق عاطفته . طن أن هذه الكلمات ، من شرلوت يقصد بها الإشارة إلى حالة ترميلهما ، وأنها تريد — وإن يكن ذلك بطريقة غامضة — منه أن يجعلها تؤمل في طلاق . لهذا أجاب باسمًا :

— ولم لا ؟ كل ما في الأمر أن نتفاهم .

غير أنه وجد نفسه واهماً ، حينما أضافت شرلوت قائلة : « أما فيما يتصل بأوتيلي ، فلنكي نضعها في وضع آخر ، فلبس لنا إلا أن نختار إحدى خصلتين ، لأن أمامنا فرصتين لوضعها في مراكز مرغوب بالنسبة إليها . فهي إما أن تعود إلى المدرسة الداخلية ، ما دامت بنتى قد استقرت عند خالتها ؛ وإما أن تقبّل في بيت كبير ، كيما تتمتع ، هي وابنة وحيدة ، بكل مزايا التربية الممتازة .

— ومع هذا ، هكذا قال إدورد بلهجة فيها الكثير من الهدوء ، فإن أوتيلي قد صارت طفلة مدللة وسط أصدقائها ، وسيكون من الصعب عليها أن تنعم في جماعة أخرى .

— لقد اتخذنا نحن جميعاً عادات مردولة ، هكذا قالت شرلوت ،

وأنت أولنا . لكن ها هي ذى لحظة تدعونا إلى التفكير ، وتنصحنا جدياً بالتفكير في أكبر خير لجميع أعضاء جماعتنا الصغيرة ، وعدم رفض القيام ببعض التضحية .

فماد إدورد يقول : أقل ما في الأمر أنني لا أرى من العدل أن نضحى بأوتيلي ، وهذا ما سيحدث لو ألقى بها الآن وسط أناس غرباء . إن نجم الكابتن السعيد قد سعى إليه هنا ؛ ففي وسعنا إذن أن ندعه يرحل في اطمئنان ، بل وبسرور . أما هي ، فن ذا الذي يدري أى مصير خبيء لها ؟ لماذا نتعجل نحن الأمور ؟

— إن المصير المقدر لنا واضح ، بهذا أجابت شرلوت وقد غلبها شيء من الانفعال . ولما كانت قد استقر عزمها على التفاهم معه نهائياً ، فقد أردفت : « إنك تحب أوتيلي ، وتعودها على حضرتك ووجودك . وإن الحب وال عاطفة ليولدان وينموان أيضاً لديها . فلماذا لا تصرح إذا بما تصرح كل ساعة تمر به وتكشف عنه ؟ أفلا نتحلى بشيء من الفطنة كيما نسائل أنفسنا ماذا سيؤول إليه كل هذا ؟

فقال إدورد وقد استجمع قواه : على الرغم من إنه ليس في وسع المرء أن يجيب عن هذا السؤال في الحال ، فيمكنه على الأقل أن يقول إنه إذا كان علينا أن نختار انتظار ما سيأتي به القدر ، فما ذلك إلا حيناً لا نستطيع أن نتنبأ يقيناً بنتائج المسألة .

فأجابت شرلوت : للتنبؤ بنتائج هذه المسألة التي نحن بصددنا ، لا حاجة إلى كبير حكمة : وعلى كل حال فيمكن أن يقال إننا لسنا من حدأة السن بالدرجة التي تجعلنا نمضى على غير هدى إلى حيث لا نريد ولا يجب علينا أن نذهب . ليس في استطاعة أحد أن يسهر على أمورنا بعد ، بل يجب

أن نكون أصدقاء أنفسنا ، والمهيمنين عليها . وما من إنسان ينتظر منا أن تقع في أشنع ضلال ، ولا أن يجد موصفاً للوم أو السخرية .

فقال ، وهو لا يدري كيف يرد على لهجة زوجته الصريحة المخلصة :
« أتقدرين على لومي وتقريبي لأنني أهم بسعادة أوتيلي ؟ لا بسعادتها المستقبلية ، فهذه فوق متناول تقديرنا ، ولكن بسعادتنا الحاضرة ؟ تصوري لنفسك ، بكل صراحة ، وبدون وهم ، أن أوتيلي قد انتزعت من منزلنا وألقي بها بين أحضان الغرباء ! . . . بالنسبة إلى علي الأقل ، لا أشعر بأن عندي من القسوة ما يسمح لي بأن أفرض عليها مثل هذا التغيير » .

فأثرت شرلوت بوضوح ، وراء مخفي زوجها وتوريته ، ماذا كان عزمه .
هنالك أحست بمقدار ما يفرق بينها وبينه . فصاحت منفعة :

— أيمكن أن تكون أوتيلي سعيدة ، إذا فرقت بيننا ؟ إذا سلبتني زوجي ؟ إذا انتزعت أباً من أولاده ؟

— فيما يتصل بأبنائنا ، هكذا قال إدورد بإبتسامة باردة ، كنت أعتقد أننا أعدونا كل شيء .

ثم أضاف بلهجة فيها شيء من الصداقة والود أكثر : « من ذا الذي سيذهب به الفكر إذاً إلى مثل هذه النتائج البعيدة » ؟

— هذه النتائج البعيدة تمس العاطفة عن قرب ، هكذا لاحظت شرلوت .
لا ترفض إذاً النصيحة الصادقة والمؤنة التي أقدمها إليك معاً ، قبل أن يفوت الأوان . في الأحوال المسيرة يجب على من يرى على نحو أوضح أن يعمل وينذل العون . واليوم هذه حالي . فدعني إذاً ، يا عزيزي إدورد ، يا أعز أعزائي ، دعني أعمل . هل في وسعك أن تطالب بأن أعزف في الحال عن سمادتي المشروعة ، عن أعز حقوق ، عنك أنت ؟

— من قال هذا ؟ هكذا عاد يقول في شيء من التلعثم .
 — أنت نفسك ! حينما تريد أن تحتفظ بأوتيل إلى جوارنا ، أفلا تعترف بهذا ، بكل ما لا بد أن ينشأ عنه ؟ لا أريد الإلحاح ، لكن إذا لم تستطع أن تكبح جماح نفسك ، فإنك لا تستطيع على الأقل أن تخدع نفسك طويلا .

فشعر إدورد بمبلغ ما في كلامها من صواب وسداد رأى . وإن الكلمة التي يتفوه بها المرء لخطيرة سريعة ، إذا عبرت في الحال عن كل ما استباحه المرء لنفسه طويلا في السر . ولكي يتخلص من الموقف قليلا أجاب :
 « لست أتيين بعدُ نيتك » .

— نيتي أن أوازن معك بين الاقتراحين . ولكل منهما مزاياه . فالدراسة الداخلية أكثر فائدة لأوتيل بالنسبة إلى الحال التي فيها أرى اليوم هذه الفتاة ؛ لكن الموقف الآخر ، وهو أعظم وأجمل ، يبشر بما هو أفضل ، حينما أفكر فيما يجب أن تسكون عليه يوماً ما .
 هنالك عرضت شرلوت بالتفصيل لزوجها حقيقة المكرين ، وحثمت بهذه الكلمات :

— وعندي أن منزل هذه السيدة أفضل لأسباب عدة ، أخص بالذكر منها أنني لا أريد أن أزيد في ميل ، أو بالأحرى عاطفة المعلم الشاب نحو أوتيل .

ولاح أن إدورد رافأها على رأيها ، لكن هذا كان من أجل كسب الوقت فحسب . وشرلوت من جانبها قد أرادت الوصول إلى شيء حاسم ، فانهزت اللحظة التي لم يواجهها فيها بمعرضة مباشرة ، وحددت رحيل ابنة أختها على أن يكون في الأيام القريبة العاجلة : وهي كانت قد هيأت كل

شيء في السر .

فاستولت الرعدة على نفس إدورد ، وخيّل إليه أنه وقع في شرك خيانة ، وظن أن اللغة الرقيقة التي تحدثت بها زوجته كانت مقصودة مدبرة مصطنعة قد حُبِكَت أطرافها من أجل إبعاده نهائياً عن ينبوع سمادته . فتظاهر بأنه يدع المسألة كلها بين يديها ، ولكنه في الواقع قد يئس أمراً . فلكى يجد وقتاً للتنفس ، ويعنع الشقاء المالح المائل ، الشقاء الذي سيسببه ابتعاد أوتيلي ، صمم على مغادرة القصر ؛ ولم يتم هذا دون أن ينبئ شرلوت ، بعض النبا ، وإن استطاع مع هذا أن يخدعها مدّعياً أنه لا يريد أن يكون حاضراً رحيل أوتيلي ، بل إنه لا يريد منذ الآن أن يراها . وشرلوت ، التي ظنت أنها كسبت المعركة كلها ، مهتدة له كل السبل . فأمر بإعداد جياده ، وأصدر إلى خادم غرفته الأوامر اللازمة ، وأوضح المتاع الذي يريد أن يحمله معه ، وبسّين على أي نحو ستكون صحبته ؛ وأخيراً وحيثما كان على بتات الرحيل جلس إلى مكتبه ، وخط الرسالة التالية :

من إدورد إلى شرلوت

عزيزتي :

ليت شعري أنشفي من الداء الذي فاجأنا أم لا نشفي ؛ فليست أحس إلا بشيء واحد هو أن الواجب يقضي بأن أمنح نفسي ، بل نفسينا معاً ، هدنة ، كيلا نقع منذ الآن في حبال اليأس والقنوط . ومادمت أنا قد ضحيتُ ، فإني أطالب بها . وهانذا أغادر منزلي ولن أعود إليه إلا في أحوال أكثر سمادة وهدوءاً . وستقطنين أنت به خلال تلك الفترة ، لكن ومعك

أوتيلي . أريد أن أعلم أنها إلى جوارك ، لا عند قوم غرباء . فابذلي لها عنايتك ، وعاملها كما كنت تفعلين من قبل ، وإلى اليوم ، بل مع إحسان أكبر وزيادة في الرقة والحنان . وأنا أعدك ألا أسعى في إيجاد أية صلة سرية معها . بل دعيني زماناً أجهل فيه كيف تحمين : فسأظن أن كل شيء سيسير على ما نهوى . وتمثلي نفس الفكرة عني . لستُ أسألك إلا أمراً واحداً ، أسألك إياه بكل قوة وإلحاح ، وهو ألا تبدلي أي جهد أو محاولة لنقل أوتيلي إلى أي مكان ، أو لتمديد وضعها . فإن خرجت عن نطاق قصرِك وبُستانك ، وُسُلت لغرباء ، صارت ملكاً لي ، وظفرت بها . لكن إذا احترمت عاطفتي وأمانتي وآمالي ، وإذا تملقت أوهامي وآمالي ، فلن أرفض الشفاء حينما يتقدم إليّ .

وهذه الكلمات الأخيرة إنما جرت من قلبه لا من قلبه . بل إنه حينما رآها مخطوطة على الورق ذَرَفَ مُرَّ العبرات . لقد كان عليه ، أيّاماً كانت الحال ، أن يزهد في السعادة ، بل في الشقاء ، الذي سيأتي به حبسه لأوتيلي ! هنالك ، وهنالك فحسب ، أحس بمدى ما فعل . إنه سيبتعد وهو لا يدري ماذا سيحدث عن هذا الفراق . إنه لن يستطيع على الأقل أن يحظى برؤيتها الآن . وأي أمل يمكن أن يداعبه مؤكداً له أنه سيراها يوماً ما ؟ لكن الرسالة قد سُطِّرت ، والخيول أمام الباب هَيَّئَتْ ، وكان يخشى في كل لحظة أن يلتقي بحبيبتته ، وأن يرى في الآث نفسه عزمه قد تلاشى وغار . فاستجمع كل قواه ، وقال لنفسه إنه يستطيع على كل حال أن يعود حينما يشاء ، وإن في ابتعاده لقرباً من هدف رغبته . وتمثل لنفسه ، على العكس من هذا ، كيف أن أوتيلي — إذا بقي هو ولم يرحل — ستُضطر

إلى مغادرة المنزل . نغم الرسالة وهبط الدرج بسرعة ، ووثب على صهوة جواده .

وحينما مر أمام الفندق ، أبصر تحت العريش السائل الذى أجزل له بالأمس الصدقة ، وهو يتناول الغداء بسرور . فنهض وحيا البارون باحترام وتوقير . لقد رأى إدورد هذا الوجه نفسه فى اليوم السابق وهو يصطحب أوتيلى تحت ذراعه ؛ فذكره متألماً بأجل ساعة أمضاها فى نحياه . فازداد ألمه عتواً ومرارة . فإن شعوره نحو ما هجره لم يكن له قبيل به ؛ فألقى بنظرة إلى السائل مرة أخرى . وقال من أعماق قلبه : « كم أنت جدير بأن تحسد على ما أنت فيه ! إن صدقة الأمس لا تزال تغذيك ؛ أما سعادتي بالأمس فإنها لم تعد بعد تغذي . »

الفصل السابع عشر

هرعت أوتيلى إلى النافذة فى اللحظة التى سمعت فيها صوت إنسان يرحل ممتطياً جواداً ، وكان فى وسمها بعد أن ترى إدورد من الخلف . ودهشت كل الدهشة لأنه ارتحل دون أن يراها ، ودون أن يحيطها تحية الصباح . فاستولى عليها القلق ، وازداد إفكارها ، حينما أخذتها شرلوت معها فى زهرة طويلة ، حديثها إبانها فى موضوعات شتى ، لكنها تجنبت عن قصد — كما يلوح — التفوه باسم زوجها . وازداد ألمها أكثر وأكثر حينما عادت ولم تجد على المائدة إلا أدوات طعام لاثنتين فحسب .

ليس فى وسعنا التخلّى بلا أسف عن عادات تلوح تافهة ؛ لكننا نشعر بأفدح الألم لمثل هذا الحرمان حينما تقع فى أحوال خطيرة . لقد غاب إدورد

كما غاب الكابتن ؛ ولأول مرة منذ زمان طويل أمرت شرلوت هي نفسها بإعداد الغداء ، وشمرت أوتيلي بأنها طليحة سلب وحرمان ومهيضة فُقدان . وجلست السيدتان الواحدة قبالة الأخرى : شرلوت تتحدث بلهجة كلها طبيعية عن المركز الجديد الذى شغله الكابتن وضعف الأمل فى رؤيته عن قريب ؛ أما عَراء أوتيلي الوحيد فكان أنها استطاعت أن تعتقد أن إدورد امتطى الجواد لى يصطحب صديقَه بعضَ المسافة .

لكنهما حينما نهضا من المائدة رأيا تحت النافذة عربةَ سفر البارون ؛ ولما سألت شرلوت - بشئ من الضيق - عمن وضعها فى ذلك المكان أجيب بأنه خادم الغرفة هو الذى فعل لأنه يريد أن يحزم بعض المتاع . وكان على أوتيلي أن تستجمع كل قواها لتخفى دهشتها والتياءها .

ودخل خادم الغرفة وسأل عن أشياء أخرى : منها فنجان سيده وبعض الملاعق الفضية وأدوات أخرى تؤذن بالسفر الشاحط والغيبة الطويلة . فأجابه شرلوت بكل جفاف قائلة إنها لا تدرى ماذا يعنى ، لأنه هو الذى كان يقوم على حراسة كل ما يتعلق بسيده من أدوات . فاعتذر هذا العايب الساكر الذى لم يكن يريد إلا أن يقول بضع كلمات للفتاة (أوتيلي) وأن يدعوها إلى خارج الغرفة متذرعاً بأية تملّة ؛ اعتذر ولكنه أصر على سؤاله الذى كان بודהا هي أن تتقبله قبولاً حسناً ؛ فرفضت شرلوت ، مما اضطر خادم الغرفة إلى الانسحاب . وسارت المركبة .

كم كانت هذه اللحظة صريمة رهيبة عند أوتيلي ! إنها لم تسمع شيئاً ولم تفهم فتيلاً ، لكنها استطاعت أن تحس بأن إدورد قد انتزع منها إلى وقت طويل . فتأثرت شرلوت لحالها وتركبتها وحدها . ولن نحاول نحن أن نصف أشجانها ولا عبراتها . لقد تقسّمتها العموم وتوزّعت نفسها الفكر .

فتضرعت إلى الله أن يعينها على قضاء ذلك اليوم وحده على الأقل .
لكنها تصوّرت الأيام والليالي ، وحينما آب إليها رشدها لم تستطع أن
تعرّف نفسها .

لم تنصرف عنها دواعي العلة ، ولم تتخذ إلى التسليم سبيبا ؛ بيد أنها بعد
هذه الخسارة الفادحة كانت لا تزال تتخوّف أعظم الهول . وكان أول
قلقها ومخاوفها ، حينما عادت إلى نفسها ، أن يكون مصيرها أيضاً إلى الإبعاد
بعد رحيل إدورد والكابتن . وهى لم تعلم شيئاً عن تهديدات إدورد التى
ضمنت لها المقام إلى جوار شرلوت . غير أن البارونة استطاعت بمسلكها
بازائها أن تشيع فى نفسها نوعاً من الطمأنينة . لقد سعت فى شغل الفتاة
المسكينة ، ولم تكن تفارقها إلا نادراً ، وفى شىء من الأسف . لقد كانت
تعرف جيداً أن الكلمات قليلة الأثر فى وجدان راسخ مشبوب ؛ بيد أنها
كانت تعلم أيضاً ما للتفكير من سلطان وما للضمير من صولة ، ولم تتوان
عن التحدث معها عن موضوعات شتى .

فمثلاً كان من أكبر دواعى عزاء ابنة أخيها أن تاقى عليها ، عن قصد
ولباقة ، تأملات وخواطر حكيمة ، من هذا النوع :

« ما أحر شكران هؤلاء الذين نعينهم برفق على الخروج من المآزق
التي توقمهم العواطف فيها ! فنبادر إلى العمل فى هذا الناحية بحماسة وسرور ،
كينا نكسّل ما تركه أصدقاؤنا ناقصا : بهذا نهى لأنفسنا أجل ظرف وخير
حال تتفق وساعة العودة والإياب ، وذلك بأن نستخدم اعتدالنا فى ضبط
ما كان اندفاعهم وقلة اضطبارهم خليقين بإفساده وتحطيمه .

— فأجابت أوتيلي : ما دمت يا خالتي تتحدثين عن الاعتدال ، فلا
أستطيع أن أكتمك أنى دهشت من سلوك الرجال المتهور ، خصوصاً فى

شرب الخمر . ولكم شقّ علىّ وآلتي أن أرى العقل الكامل والفطنة
الراجحة والرفقة والالطف والإيناس كلّها تضيع وتذهب ، ولو لمدة ساعات
قلائل ؛ وأن أشاهد ، بدلا من كل الخير الذي يمكن الرجل الممتاز أن يسديه ،
ما يأتى به من شرور واضطراب وفساد . وكَم من مرة أدى هذا إلى
ارتكاب أعمال عنيفة !

وأمنت شرلوت على هذه الخواطر ، لكنها لم تتابع الحديث ، لأنها
أحست جيداً أن أوتيل لم تفكر آنذاك إلا فى إدورد الذى كان يطلق لنفسه
العنان — لا عن عادة ، بل وفقاً للظروف وأكثر مما يجب — فى إهاجة
السرور والحديث والنشاط عنده باستخدام الخمر .

وإذا كانت كلمات شرلوت قد استطاعت أن تذكر ربيبتها بالرجال عامة
وإدورد خاصة ، فإن الفتاة قد دهشت كل الدهشة من سماع شرلوت
تتحدث عن زواج الكابتن عاجلاً ، تتحدث عنه كشيء معروف ومفروغ
منه مما أعطى المسألة وجهاً جديداً مخالفاً لما كانت تصوره بسبب تأكيدات
إدورد السابقة ، مما أدى بها إلى زيادة اهتمامها بكل كلمة وكل حركة وكل
فعل ومسلك تقوم به شرلوت . لقد صارت بارعة نافذة البصيرة تحسن
الظن والاهتمام دون أن تدرى .

غير أن البارونة ، بما لها من نفوذ طبيعى فى الإدراك وسلامة نظرة ،
تدخلت فى كل تفاصيل الشؤون المنزلية ، وبذلت فيها مهارتها الذكية ،
مضطرة ابنة أختها إلى المشاركة فيها بمثابة ونشاط . وقللت النفقات ،
دون أن تقع فى كرازة مثيرة . ولما قلبت المسألة على كل وجوها نظرت
إلى المواطن التى شبّت كأنها قسمة عادلة وحظ سعيد ، لأنهم لو تابعوا
السير فى الطريق التى ولجوها اضاعوا بسهولة فى هاوية نفقات لا تنتهى ،

ولو تقدموا في هذا السبيل باستمرار ، دون أن ينتهوا في الوقت المناسب ،
لزعزعوا قسماً كبيراً من ثروتهم ، إن لم تضع كلها .

تركت الأعمال التي ابتدأت تسلك سبيلها ؛ فاستمرت في المنشآت
التي أعدت لتكون أساساً للتجميلات المقبلة . لكنها اقتصرت على هذا :
إذ سيجد إدورد عند أوبته ما يكفيه ملاهى ومشاغل .

وكان نصيب المهندس المعمارى في هذه الأعمال والتصميمات فوق كل
ثناء . ففي زمن قليل رأت البحيرة تبدى أمامها والشطآن الجديدة منطاة
بالمزروعات والحشائش ، في أناقة وجمال تنوع . وفي البيت الجديد كان
السطر الأكبر من العمل قد انتهى ، وأعد كل ما هو لازم للمحافظة عليه ؛
ولم تتوقف شروعات إلا عند النقطة التي يمكن استئناف العمل فيها بسرور .
وفي هذه المشاغل كلها ، كانت آمنة السّرْب راضية البال . أما أوتيلى فلم
تكن كذلك إلا في الظاهر فحسب ، لأنها لم تكن ترى في كل شيء إلا
أعراضاً وشواهد تريد أن تستدل منها على قرب عودة إدورد أو بعدها .
إذ لم يكن يعنيها شيء غير هذا الخاطر .

لهذا نظرت بعين السرور إلى إجراء حُسْد من أجله كل أطفال
القرية ، قصد منه السهر على نظافة البستان الذي وسّموه . واقد خطرت
هذه الفكرة من قبل بيال إدورد . فالبس الأولاد نوعاً من الزى اللطيف
ارتدوه قبل المساء بعد أن اغتسلوا ورحضوا ثيابهم . وأودعت خزانة هذه
الملابس في القصر ، ووكلت العناية بها إلى أعقل هؤلاء الأطفال
وأحرصهم . وسلك هؤلاء مسلكاً يمين عن الإذعان والطاعة ، وقاموا بعملهم
كأنه نوع من الاستعراض والمناورة . لأنهم حينما كانوا يقبلون ومهمهم
مجارفهم ورفشهم ومشاطهم ومحافيرهم ومكانسهم ذات المراوح ،

ورائهم آخرون معهم السَّلال ليضعوا فيها الأحجار والحصى والحشائش الرديئة ؛ ويتلوم فريق يجرف خلفه الأسطوانة الحديدية الكبيرة — كل هذا كان يقبذى موكباً جميلاً باسمنا ، وجد فيه المهندسُ سلسلةً بديمة من الأعمال والحركات ، من أجل عمل إفريز لصُفَّة البستان . أما أوتيلي فإنها لم ترفى هذا إلا نوعاً من الاستعراض قصد به إلى تحية السيد لدى عودته . وهذا ولد في نفسها الرغبة المُلحة في إعداد شيء من هذا القبيل عند وصوله . وكان القوم قد حاولوا حتى الآن أن يشجعوا الريفيات الفتيات على الخياطة والنسج والتطريز وما إليها من أعمال النساء . واستمرت هذه العادات الطيبة في تقدم منذ أن أصلح من أمر القرية وُجِّهَت . كانت أوتيلي قد شاركت في هذه النواحي ، لكن هذا كان بطريقة عارضة غير منتظمة تحدوها الأهواء . أما الآن فقد رغبت في الاهتمام بهذه المسائل على نحو منظم مُطرد . لكن ليس من الممكن إيجاد هيئة منتظمة من بنات صفار كما يمكن من فتيان صفار ؛ فاستمعت لصوت الحكمة فيها ، وبدون أن تتبين جيداً ما تفعل ، سمعت نحو شيء واحد هو أن توحى إلى كل واحدة من بناتها هؤلاء بالإخلاص لبيتها وأهلها وإخوتها وأخواتها .

وكل سعيها بالنجاح مع عدد كبير منهن . غير أن فتاة واحدة شموخا كانت موضع الشكوى الدائمة ، قيل عنها إنها عارية عن المواهب ، ولم تشأ أن تعمل في البيت شيئاً . يَبْدُ أن أوتيلي لم تنجح على هذه الفتاة التي كانت تحمل لها ميلاً خاصاً متعلقة بشخصها ذاهبة غادية معها ، حيناً تسمح لها . هنالك كانت وافرة النشاط حمة الحياة لا يعرف إليها التعب سبيلاً . ولاح أن هذه الطفلة كانت تشعر بحاجة ملحة إلى التعلق بعملتها الجميلة (أوتيلي) . وفي البدء احتملت أوتيلي صحبتها ، ثم جاء دورها فالت إلى لها ،

وأخيراً صاروا لا يفترقان ، وكانت نانت تتبع معلمتها وسيدتها أينما حلت
وحيثما سارت .

وكثيراً ما كانت أوتيلي تغدو إلى البستان متعلمة بهذه الخضر
الزاحية الزاهية . وكان موسم الفريز والكريز قد أوفى على الانتهاء ،
لكن نانت وجدت بعد ما يلذها وتشهيه . أما التمار الأخرى التي كانت
تعد بحصول وافر في الحريف فقد كانت تعيد إلى البستان دائماً ذكرى
سيده ، وفي كل مرة كان دائماً يعبر عن رجيه عودته . وكانت أوتيلي
تصني إلى الشيخ الطيب بسرور طافح . لقد كان يتقن مهنته ، يضاف إلى
هذا أنه كان دائب التحدث إليها عن إدورد .

وحيثما كشفت عن عميق سرورها لرؤية متأبر الربيع فد نجحت
كلها ، أجابها البستاني بلهجة يشوبها الهم :

— كل ما أتمناه أن يعود سيدنا الطيب فيجد فيه ما يلذه ويسره .
لو كان هنا هذا الحريف لرأى كم من الفصائل الثمينة لا يزال باقياً منذ عهد
السيد والده ، في حديقة القصر العتيقة . إن البستانيين اليوم ليسوا من
الثقة كما كان القدماء ، فلسنا نجد في الأشبات إلا أسماء جميلة : فنقوم بالتطعيم
والفرس والتنمية ، وحيثما تثمر أخيراً هذه المغارس ، نرى أن أمثال هذه
الأشجار لا تستحق مكاناً في البستان .

ولم يكن هذا الخادم الأمين يرى أوتيلي دون أن يسألها أخبار مولاه
ومتى يعود . ولما كانت عاجزة عن أن تنبئه بشيء ، أبان لها هذا الرجل
الساذج القلب — والألم في نفسه مكتوم — أنه يعتقد أنها لا تثق فيه ،
مما زاد في تألمها بشعورها بجھلها ، هذا الذي كانت أسئلته لها تثيره في حدة
ومض . ولكنها لم تستطع أن تتجنب هذه المغارس والمتأبر . ذلك أن

ما بذراه سويًا وغرساه كان حينئذ في تمام نضرتِه ونماه : ولم يكن في حاجة إلى عناية أكبر مما تبدله نانت التي كانت دأماً تتعهد به بالسُّقيا . وكَم كان شعور أوتيلي وهي تنظر إلى الأزهار المتأخرة التي لم تكد تبدأ ، والتي تلاًثُ بهاؤها وجمالها من بعد معلنة حبها وشكرانها ، حينما يأتي يوم ميلاد إدورد الذي كثيراً ما داعبها أمل الاحتفال به ! لكن الأمل في هذا العيد لم يكن دأماً حاراً لديها : لأن الشك والمهم كانا دأماً يهامسان صامتَيْن في نفس هذه الفتاة الطيبة الفؤاد .

إنها لم تستطع أن تعود إلى حالة الانسجام الحقيقي الصريح مع شرلوت . أجل ، لقد تغير موقف هاتين السيدتين تمام التغير . فلو أن كليهما عادت إلى الوضع القديم ، وسلكت سبيل الحياة المنتظمة لظفرت شرلوت بالنعيم الحاضر وتفتتح لها أفق جميل في المستقبل ؛ أما أوتيلي فكانت على العكس من هذا ستفقد كل شيء ، هكذا يمكن أن يقال . لقد وجدت في إدورد الحياة والنعيم ، وشعرت في وضعها الحالي أنها في هاوية الخلاء المحض والقفور الرهيب ، مما لم تكد تشعر بشيء منه قبل ولم تتوقعه . ذلك أن القلب الذي يسمى يشعر جيداً أن شيئاً يعوزه ؛ لكن القلب الذي فقد شيئاً فعلاً ، يشعر بحرمان حقيقي ، والرغبة من شأنها أن تستحيل إلى سخط وقلق ؛ وإن قلب المرأة ، وقد تعود الانتظار والصبر ، ليستطيع أن يخرج من نطاقه ويصير فعلاً ، فيعمل ويبدل وسعه لتحقيق شيء يؤدي إلى سعادته .

ما عَزَفت أوتيلي عن إدورد ولا زَهدت فيه . وإنَّي لها هذا ، على الرغم من أن شرلوت — مهما يكن من نفوذ بصيرتها — قد ساءها أن تمتد — على عكس اقتناعها الحقيقي — أن هذا الزهد قد فرغ منه ، وخيل إليها بل أبقت أن في الوسع إقامة صِلات صداقة هادئة فحسب بين

زوجها وابنة أختها ؟ لكن كم من مرة ، في الليل ، جثت هذه الفتاة على ركبتيها بعد أن أغلقت باب مخدعها ، جثت أمام الصندوق مفتوحاً وراحت تتأمل هدايا العيد التي لم تخرج منها بعد شيئاً ولم تعد أوتستخدم منها أيها ! وكم من مرة هُرعَت الفتاة المسكينة ، منذ مطلع الشمس ، خارج المنزل الذي كانت تجدد في داخله قبل كل سعادتها ، هُرعَت وغدت إلى الريف الضحيان الذي لم يكن قبلُ يتحدث إليها بشيء ولا تجده له لذة ولا معنى بل إنها لم تكن تقوى على المكوث على الأرض نفسها . لقد كانت تسير إلى الزورق ، وتقوده بواسطة المجداف ، حتى وسط البحيرة ، ثم تلتقط من جيبتها وصفاً لرحلة ، وتدع نفسها تترجح فوق الأمواج المتأثرة ، وتقرأ ، حاملة بالبلاد البعيدة ، ناشدة فيها دائماً صديقها : لقد كانت تسكن قلب إدورد ، وهو الآخر كان دائماً يسكن قلب أوتيلي .

الفصل الثامن عشر

كان من المنتظر من ذلك الرجل الغريب النشيط الذي عرفناه من قبل ، ألا وهو متسلر ، حينما تلقى نبأ العواصف التي هبت أخيراً على أصدقائه ، أن يشعر أنه مستعد لإظهار صداقته واستخدامها والإفادة بتجاربه ، على الرغم من أن أحد الطرفين لم يطلب منه بعد هذه المعونة . غير أنه وجد من الحكمة الانتظار قليلاً : لأنه كان يعلم حق العلم أن إيجاد الصالح بين الأشخاص المثقفين حينما يتنازعون أصعب منه بين الأشخاص غير المثقفين . لهذا ترك أصدقائه لأنفسهم مدة من الزمان ؛ وأخيراً حينما لم يستطع الاستمرار على تلك الحال ، هُرع في طلب إدورد ، بعد أن استطاع اكتشاف آثاره .

أداه طريقه إلى واد جميل يقوم فيه ينبوع حتى تثر ، حيناً يسير هادئاً متعرجاً ، وحيناً آخر يغلي ويتوالب خلال البرارى المغطاة بالخضرة الرائحة والظلال الوارفة . وعلى المنحدرات الرقيقة الميل تنبسط الحقول الخصبة والمباقل الموفورة العناية . وكانت القرى قريباً بعضها من بعض ؛ وعلى المنظر كله مَسْحَة السجوى والهدوء ، وما فيه من أنحاء وأصقاع ، إن لم يكن فاتناً ، فقد كان كفيلاً يجعل الحياة عذبة ميسورة .

وترأت أمام عينه ضيعة مستكراة موفورة العناية ، فيها منزل أبيض متواضع يقوم وسط الحداثق ، فاسترعى كلُّ هذا انتباهه ، وحَدَسَ أن هذا لا بد أن يكون مأوى إدورد . ولم يكن في هذا الظن مخطئاً .

وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذا الصديق المتوحد هو أنه في عزلة هذه قد استسلم تماماً لوجدانه المشبوب وأجال في خاطره آلاف المشروعات واقتات بمديد الأمانى والآمال . ولم يستطع أن يكتم نفسه أنه يريد أن يرى أوتيل معاً في هذا المكان ، وأنه يود أن يقتادها ويجذبها إلى هذا الملاذ . وليت شعري ماذا استباحه أيضاً لنفسه من تصورات بريئة وآثمة ! ثم استعرض خياله المضطرب كل الاحتمالات الممكنة . فإذا لم يكن له أن يظفر بها هنا ، يظفر بها بطريق مشروع ، فهو يريد على الأقل أن يضمن لها ملكية هذه الأرض . هنالك ستحيا لنفسها هادئة النفس مشغولة الجنان تظللها أطيايف السعادة ؛ بل حينما اقتاده خياله المذهب نفسه إلى مدى بعيد خيل إليه أنه يراها تحيا هنا سعيدة مع شخص آخر غيره .

وعلى هذا النحو مضت أوقاته ، مترجحة دائماً بين الخوف والرجاء ، والدموع والهدوء ، والمشروعات والإعدادات والقنوط . ولما رأى متلر لم يُدْهِشْ مطلقاً : بل كان يتوقع مجيئه منذ زمان طويل ، إذ كان مجيئه ساراً

له من بعض النواحي . ونظراً إلى أنه اعتقد أنه مرسل من قبل شرلوت ، فقد أعدَّ لهذا كل أنواع الاعتذار وألوان التخفيف ، بل واقتراحات حاسمة ؛ لكن لما كان يأمل ، من ناحية أخرى ، أن يظفر منه ببعض من أنباء عن أوتيلي ، فإن متلر كان في نظره كأنه مبعوث من السماء .

لهذا استولى عليه الغم والاضطراب حينما علم أن صديقه الوافر الأدب لم يأت من قبل شرلوت ، وإنما من تلقاء نفسه . فانطلق مفتاح قلبه ، وتبدى في البدء أن الحديث غير ميسور ؛ غير أن كل من يتملكه الحب يشعر برغبة ملحّة في التعبير عما في نفسه وبث صديق له مكنون صدره . ولم يكن متلر جاهلاً لهذه الحال ، لهذا فإنه بعد تبادل بضع كلمات أراد أن يخرج هذه المرة عن دوره ، وأن يلعب دور كاتم سره بدلاً من أن يكون في دور الوسيط .

فلما أنحى بشيء من اللوم على إدورد بسبب حياته المتوحدة هذه ، أجابه البارون :

— لست أدري كيف أمضى وقتي على نحو أفضل . فانا دائماً في شُغل شاغل بها ، وأنا دائماً أحياء في حضرتها . ولدى ميزة لا تصاب لها قيمة ، هي قدرتي على تصوير أين هي ، وإلى أين أذهب ، وأينما تتوقف ، وأين تسرع . وأتمثل لنفسى كيف تعمل أمامي على عاداتها ، وتؤدي دائماً كل ما تراه موافقاً لهوائى . لكننى لا أقف عند هذا . فكيف أكون سميحاً بعيداً عنها ؟ إن خيالى ليسعى بكل حماسة ونشاط ليصور لنفسه كل ما تعمله أوتيلي من أجل الاقتراب منى . وإنى لأكتب باسمها رسائل كلها رقة وألفة موجهة نحوى ؛ وأجيب عليها واحتفظ بكل هذه الأوراق معاً . لقد وعدت بأن لا أبذل أى سعى من أجل الاقتراب منها ، وسأكون عند

وعدى هذا ؛ لكن ماذا يحول بينها وبين أن تأتى إلى ها هنا ؟ أفمنسد
شرلوت من القسوة ما يجعلها تفرض عليها وتقتضى منها الوعد والقسم بالألا
تكتب إلى ، وألا تبث إلى بأنبائها ؟ هذا طبيعى ، هذا محتمل ؛ ومع هذا
فإنى أراه شيئاً لا يمكن احتماله . إن كانت تحبى كما اعتقد وكما أعلم - فلماذا
لا تقرر ، لماذا لا تخاطر بالفرار ، بالارتقاء فى أحضانى وبين ذراعى ؟ كثيراً
ما أفكر فى نفسى أنها يجب أن تفعل هذا ، وهو فى سماعها . إنى إذا سمعت
نأمة فى الغرفة المجاورة ، نظرت من جانب الباب ! أهى القادمة ؟ هكذا
أخيل إلى نفسى ، وهكذا آمُل أن يكون - أراه ! حينما أرى الممكن غير
ميسور الحدوث ، أنخيل حدوث المستحيل . وفى الليل حينما اسنيقظ ،
ويكون المصباح ملقياً نورا مترنجاً فى غرفتى ، يترأى لى أن وجهها ،
ظلمها ، طيفاً من شخصها ، يمر أمامى ويتقدم إلى ويمسك بى ، لمدة لحظة
واحدة على الأقل ، مما يؤكد لى - على نحو ما - أنها تفكر فى ، أنها لى !
لم تبق لى إلا متعة واحدة . حينما كنت إلى جوار أوتيلى ، لم أكن
أحلم أبداً فيها ؛ أما الآن وقد بدت عنها ، فنحن مجتمعان سوياً فى أحلامى .
ومن العجب أننى منذ أن عرفت بعض النسوة اللطيفات فى هذه المنطقة
صارت تتبدى لى فى المنام ، وكأنها تقول لى : تستطيع أنت أن تنظر ها هنا
وهناك وفى كل ناحية ، فإنك لن تجد مطلقاً أجمل منى ولا ألطف . وعلى
هذا النحو تتمرج صورتها بكل أحلامى . وكل ما يحدث لى معها يختلط
ويشتبك . فأحياناً نحن نوقّع عقداً : وها هو ذا حظها وحظى ، واسمها
واسمى ، يعجز أحدهما الآخر ويفنى فى صاحبه متعانهين . وهذه التهاويل
الشهوانية للخيال لا تخلو من الألم : فأحياناً تأنى أوتيلى فعلاً ما يחדش فكرتى
عنها ؛ هنالك أحس بعقدار حى لها ، إذ بنالى قلق لا يبلغ مداه التعبير .

وأونة أخرى تستثيرنى بطريقة تتنافى تماماً مع ما طبعت عليه ، فتؤلمنى ؛
 هنالك تبدلٌ صورتها فى الحال : فيستطيل وجهها الجميل الرشيق الملائكى .
 وتستحيل إنساناً آخر ؛ لكن هذا لا يزيدنى إلا خبالاً وتعذيباً واضطراباً .
 « لا تضحك ، أى متلر العزيز ، أو اضحك بالأحرى ، فليس منه
 بأس . لست أخجل من هذا التعلق ، من هذا الميل الجنونى الأهوج ،
 بل ليكن ! كلا ، إننى لم أحسب بعد ؛ أما اليوم فأنا أشعر لأول مرة بمعنى
 الحب وما هو الحب - حتى الآن لم يكن كل شئ فى حياتى إلا تمهيداً
 واستهلالات ، ألهمية ، ووقتاً ضائعاً ماضياً - إلى اللحظة التى بدأت أعرفها
 فيها ، والتى أحبتها فيها بكل قواى وبكامل نفسى . لقد لامونى - وإن لم
 يكن ذاك فى وجهى - قائلين إننى أبغى على شفا جرف هار وإننى أعبت فى
 غالب أحوالى وأهزل : هذا ممكن ؛ لكنى لم أجِد بعدُ الشئ الذى أستطيع
 أن أظهر فيه فى مركز السيادة . ألا فليدلونى على إنسان عرف كيف
 يحب خيراً منى !

« إنها هبة بائسة ، ليس فى هذا شك ، كلها آلام ومرارة . لكن
 لا عليك ! فإننى أجدها طبيعية عندى ، بل هى جزء من نفسى لدرجة أنه
 يبدو لى من الصعب أن أعزف عنها أبداً » .

بهذه الاعترافات المخلصة الحارة ، استطاع إدورد أن يُسرِّى عن
 نفسه من غير شك . لكن كل قسمة من قسمات مركزه الشاذ تبثت أمام
 ناظره على نحو فيه من التأثير ما جعله ينوء تحت عبء هذا النضال الأليم ،
 فخرت منه العبرات الدافقة : لقد أشاعت هذه العبارات الرقة فى فؤاده .
 أما متلر الذى لم يستطع أن يكذب حال تسرعه الطبيعى وقساوة
 مُخلِّقه ، وكان من شأن هذا الانفجار الأليم لوجدان صاحبه أن أبعده عن

الغرض من رحلته هذه ، فإنه عَبرَ عن عدم موافقة إدورد على مسلكه بصراحة جافة قاسية قائلا إن إدورد يجب أن يستجمع شجاعته ، ويجب أن يفكر فيما تقتضيه مكانته كرجل ، إذ يجدر به ألا ينسى أن الإنسان يبلغ درجة عليا من الشرف إن أظهر التجلّد في البأساء واحتمل بهدوء ورزانة صولة اللأواء ، كيما يظفر بالتقدير والتوقير ويتخذة الناس نموذجا عالياً .

ولما كان إدورد مليئا بالعواطف الأليمة والمشااعر المميّنة ، فإنه وجد هذه الكلمات خاوية عابثة . فصاح : « إن الرجل السعيد المطمئن يستطيع أن يتحدث كما يهوى ؛ لكنه سيسوخ من الحجل لو أنه رأى كيف أن هذا غير محتمل عند من يتألم . إنهم يطالبون بوجود صبر لا ينفد ، والناس السعداء يصرون على عدم الاعتراف بوجود ألم لا ينفد . أجل إن تمت أحوالا فيها يكون العزاء من شيمة الجبناء ، وفيها اليأس هو الواجب . وإن أحد اليونانيين المشهورين ، ممن يحسنون وصف الأبطال ، لا يجد حرجا في أن يحملهم بيبكون ويذرفون المبرات في لوحة آلامهم . بل إنه يضع كقاعدة أن الرجال الممتازين يعرفون كيف يبكون . ألا بُعداً إن كان جاف القلب جاف الميون ! إنى لألعن السعداء الذين لا يرون في الشق غير منظر يتلهون بمشاهدته . إنهم يريدون منه ، كي يحظى بتصفيقهم ، أن يلتزم سَمَمتاً نبيلاً إبان أسمى آلام البدن والروح ، ولكي يهتفوا له في اللحظة التي تفيض روحه فيها ، بحب عليه أن يموت تحت أنظارهم في هدوء ، كالمُجالد القديم . عزيزي متلر ، إنى أشكر لك زيارتك ؛ ولكنتك ستقدم لى دليلا عظيما على صداقتك لى إذا غدوت تترامض فى البستان وخلال الريف . وسنلتقى . وسأعمل ما فى وسعى كيما أكون هادئا أقرب ما أكون إليك .

غير أن متلر فضّل أن يلجأ إلى التنازل والترضى على قطع حديث لم يكن في وسعه استثنائه بسهولة . وإدورد من ناحيته كان مستعداً لموالة الحديث محاولاً أن يوجّهه نحو خدمة غرضه . فاستأنف الحديث قائلاً :
 — وأيم الحق أن مثل هذه الخواطر والمناقشات لن تؤدي إلى أى شيء ؛ ومع هذا فقد استطعت خلال هذه الأحاديث أن أتوب إلى نفسى ؛ وانتهيت إلى تقدير ما يجب على فعله ، وإلى ما استقر عزمى عليه . إننى أرى حياتى الحاضرة وتلك المقبلة يتبديان أمام ناظرى . وليس لى إلا أن أختار بين الشقاء والنعيم . أيها الرجل الممتاز ، أعلن طلاقنا ، فهو لا بد منه ، بل هو قد تحقق فعلاً . هات لى موافقة شرلوت . ولست أريد التوسع فى الأسباب التى تحملنى على الاعتقاد بأن من الممكن الحصول على هذه الموافقة . هيا ، صديق العزيز ، اعمل جهدك كيما نكون جميعاً فى سلام ! اجملنا سعداء !

فالتزم متلر الصمت والسكون . فاستمر إدورد :

— إن مصيرى مرتبط بمصير أوتيلى ارتباطاً لا يمكن انفصامه ، ولن نتحطم . انظر هذه الزجاجاة ! لقد نقشت أرقامنا عليها ؛ وقد ألقى بها فى الهواء أحد الصحاب المرحين ؛ وليس لأحد بعد أن يشرب فيها ، وكان من المنتظر أن تتحطم فوق الأرض الصخرية ، لكنها بقيت معلقة فى الهواء . ولقد استخلصتها بثمن فادح وإنى لأشرب فيها كل يوم منذ ذلك الحين ، كيما أقنع نفسى بأن المُقد التى كَوَّنها القدر لن تُحلّ أبداً :

— يا لشقائى ! هكذا صاح متلر ، أى صبر يعوزنى مع أصدقائى ! يجب أن أجد التطير حتى فى هذا المكان ، التطير الذى أبيضه كأبيض شيء يمكن أن يوجد عند الناس . إننا نلعب بالأمشاط والخيال والأحلام ، ونهب

أهمية لأنفقه أحوال الحياة . لكن حينما نصير الحياة نفسها جِداً ، ويضطرب كلُّ شيء حولنا و يُرْعِد ، حينئذ تريد هذه الأشباحُ من هول العاصفة . فقال إدورد : فى مضطرب الحياة هذا ، وبين المخاوف والرجاء ، دع للقلب الجريح نجماً مخلصاً يستطيع أن يستشرف بعيونه إليه ، حتى لو لم يكن عليه أن يوجه مجراه وفقاً له .

فأجاب متلر : بوى لوقبات هذا ، لو كان وراءه رجاء ؛ لكننى لاحظت دائماً أن الإنسان لا يحفل مطلقاً بالشواهد والمخايل التى تنذرهُ ؛ إنما يتجه الانتباه إلى ما منها يتملق الهوى ويفرى المرام ، ومن أجلها وحدها يكون الإيمان حاراً قوياً .

ولما رأى متلر نفسه قد أفضى بها إلى هذه المناطق الغامضة التى كان فيها دائماً يشعر بأنه فى غير مكانه فينتابه القلق كلما أمد فى إقامته — لما رأى هذا أرعى سمعه لتوسلات إدورد الذى ألح عليه فى الذهاب إلى شرلوت . وأيم الحق ، ماذا كان فى رصمه أن يعارض به البارون فى تلك اللحظة ؟ لم يبق لديه إلا أن يكسب الوقت ويلاحظ الأحوال النفسية التى يوجد فيها السيدان . فلقد كان هذا هو الحلّ الوحيد ، حتى من وجهة نظره هو .

فأسرع بالذهاب إلى شرلوت ، فوجدها على عادتها من الهدوء واطمئنان البال — وهى قد شاءت عن طيب خاطر أن تقص عليه نبأ ما حدث ؛ لأن أحاديث إدورد لم تنبئ متلر بشيء غير النتائج ، دون المقدمات . فراح متلر من ناحيته يعالج الموضوع بحذر واحتياط ، ولم يستبج لنفسه ، ولا حتى عرضاً ، أن يتفوه بكلمة الطلاق . لهذا كم كانت دهشته وذهوله — وهو على الأفكار التى كان يحملها فى نفسه — وكم كان سروره حينما قالت له شرلوت أخيراً ، بعد كل هذه الأمور الأليمة :

— يجب أن اعتقد ، وأن آمل أن يُسوَّى كل شيء ، وأن يقترب إدورد منى . كيف لا وأنا أُرَجِّى أن أكون أمّا ؟

— هل سمعتُ جيداً ما قلتيه ؟ هكذا صاح متلر .

— تماماً ، بهذا أجابت شرلوت .

— بُورك هذا النبأ ألف بركة ! هكذا استأنف حديثه ضامّاً يديه .
لأننى على علم بقوة هذه الحجة وسلطانها على قلب الزوج . وكَم من مرة شاهدت أن هذا كان كافياً للإسراع فى الزواج أو العزم عليه أو إصلاحه !
إن مثل هذا الأمل ينتج من الأثر أكثر مما تنتجه آلاف الكلمات ؛ والواقع أن هذا خير رجاء نستطيع التعلق به .

وتابع قائلاً : « ومع هذا ، ففيما يتصل بى ، قد كان كل شيء باعثاً على عدم الرضا . لكن مادام الأمر على هذا النحو ، فليس لدى ما أفاخر به . واهتمامى لاحق له فى شكرانك . إن مثلى مثل صديق الطبيب الذى كانت كل معالجاته موفقة ناجحة حينما يعالج مجاناً وإحساناً ، لكنه كان نادراً ما ينجح فى علاج الأغنياء الذى يجزلون له الدفع . فلحسن الحظ سوَّيت الأمور من تلقاء نفسها ، لأن مجهوداتى وبصائغى كانت ستذهب سدى » .
فسألته شرلوت أن يحمل هذا النبأ إلى إدورد ، وأن يحمل أيضاً رسالة ستكتبها إليه ، وأن يرى ماذا يجب عمله وإصلاحه . لكن لم يشأ موافقتها ، وصاح : «عمل كل شيء ؛ وفى استطاعة أى إنسان أن يحمل رسالتك كما أحملها أنا . وخليق بى الآن أن أحمل أقدامى إلى حيث الحاجة إلىّ أُلزم . ولن أعود إلا من أجل تهنئتك ، سأعود من أجل التعميد » .
وفى هذه المدة — كما فى مرات أخرى غيرها — لم تكن شرلوت راضية عن مسلك متلر . فإن مزاجه الحاد أحياناً ما يُسدى الخير ، لكن

تسرع واندفاعه كثيراً ما سبباً إخفاقاً . إذ ليس تمت إنسان يفوقه في الخضوع لتأثير اللحظة العابرة الحاضرة .

فبعث شملوت برسول إلى إدورد ، استقبله هذا في شيء من الجزع . فربما كانت الرسالة رفضاً أو موافقة . فتردد طويلاً في قضها ، وكم كانت دهشته واضطرابه وذهوله حينما وصل إلى هذه الكلمات وهو يقرأه ، وهي كلمات ختمت بها الرسالة :

« تذكر تلك الليلة التي زرت فيها - كما شق - زوجتك تلك الزيارة المفاجئة ؛ وجذبها بقوة لا تقاوم إلى فؤادك ؛ وضغطت عليها بين ذراعيك كأنها معشوقة أو خطيبي . فَلَنَسَبِحْ ، في هذه الظروف الغريبة ، بحمد هذه الهبة التي بعثها إلينا السماء التي شاءت أن تقيم بيننا رابطة جديدة ، في اللحظة التي أصبح فيها نعيم حياتنا مهدداً بالزوال والفناء » . ويشق على المرء أن يصف ما كان يجري آنذاك في نفس إدورد . ففي مثل هذه المواقف الأليمة تنتهي العادات القديمة والميول الماضية بأن تنبثق من جديد لقتل الوقت وملء الحياة . هنالك يصير القنص والحرب بالنسبة إلى النبيل موارد للسلى لا تتخلف . لقد اشتاق إدورد إلى الخطر الخارجي ، كما يحدث توازناً مع الخطر الداخلي ؛ لقد تشوق إلى الموت ، لأن الحياة أصبحت تهدد بأن تصير غير محتملة ولا مقبولة ، بل لقد كان عزاءً عنده أن يتمثل نفسه ، وقد زال عن الوجود ، وبهذا نفسه بمهد السبيل أمام سعادة من يؤثرهم بالحب . ولم يضع أحدٌ عقبة في سبيل مراده لأنه أبقى على قراره مكتوماً . وكتب وصيته في شكلها القانوني . وكم أَرْضَى نفسه أن يكون في وسعه أن يوصي بالضيعة المستكراة الجميلة لأوتيلي . وكفل مصير شملوت ، والطفل الذي تحمله في بطنها والكاتبين ، والخدم . وساعد على

تحقيق عزمه هذا أن الحرب قد بدأت منذ قليل . لقد سبّب له رؤساء وضعاء متاعب عدة إبان شبابه ، وكان ذلك السبب في تركه العسكرية ؛ أما اليوم فهو سميد بالخدمة تحت إمرة قائد يمكن أن يقال عنه إن « الموت تحت قيادته محتمل والنصر مؤكد » .

وما علمت أوتيلى بسر شرلوت — وقد أصابها الذهول كما أصاب إدورد ، بل وأكثر — حتى انطوت على نفسها . لقد انتهى كل شيء بالنسبة إليها . لارجاء لديها بعد ولا اشتها . وستهيء لنا « يومياتها » — التي نرى أن نقدم إلى القارئ بضع صفحات منها — أن نتبين ما كان يجري في أعماق نفسها .

القِسمُ الثاني

الفصل الأول

كثيراً ما نصادف في الحياة المادية أشياء أَلِفْنَا أن ننعتمها في الملاحم بأنها من نسج خيال الشاعر ، ونعني بها أن نرى أحياناً الشخصيات الرئيسية تتباعد وتختفي ويزول ما لها من أثر ، وسرعان ما يشغل مكانها شخص أو آخر ممن لم يلفتوا النظر من قبل ، باذلاً كل نشاطه ، مما يثير بدوره انتباهنا وشوقنا ، بل ويحملنا على تقديره وإزجاء المديح إليه .

وعلى هذا النحو حدث بعد رحيل الكابتن والبارون أن ازدادت شخصية المهندس في الظهور يوماً بعد يوم . فعليه وحده توقف توجيه أعمال عدة وتنفيذها ، وقد تبدى في أداء عمله دقيقاً ماهراً مثابراً . وأسدى في الآن نفسه كثيراً من الخدمات إلى السيدتين ، وعرف كيف يرقه عنهما في ساعات الصمت والملال . وكان يكفي حضوره لإشاعة الثقة والمطف .

لقد كان شاباً جميلاً ، بكل ما لهذه الكلمات من معنى ؛ فارح القوام ، أقرب إلى الإفراط في الطول ؛ وكان متواضعاً في غير تراؤيل ولا انقباض ، سريع التواصل في غير ثقل ولا عِباءة . وكان يأخذ على عاتقه القيام بكل ما يتطلب العناية والمشقة ، يتحملة بسرور وطيب خاطر ؛ ولما كان ماهراً في الحساب ، فسرعان ما أُشْرِك في شئون المنزل ، وكان له في كل شيء أثر ممدوح . وكان يوكل إليه عادة استقبالُ الغرباء ، وكان يحسن صرفَ الزيارات غير المتوقعة ، أو على الأقل يهيئ السيدتين لها ، إلى حد أنها لم تكن مضجرة لها .

وذات يومٍ أوقعه أحد القانونيين في عناء . فقد كان موفداً من قِبَل سيد من الجيران ليتحدث في مسألة لم تكن في الواقع ذات أهمية كبيرة ،

لكنها أحدثت في نفس شرلوت أثراً عميقاً . وخليق بنا أن نرى هذه المسألة ، لأنها أعطت الدافع لعدد من الأشياء التي كانت بدون هذا ستظل في سبات وقتاً طويلاً .

لم ننسَ بعدُ أن شرلوت قد أزمعت تبديل حال المقبرة . فنُقلت كل الأضرحة ، وُصِفَتْ على طول الجدار وحول أساس الكنيسة وُمُهِّدَت الأرض . وفيما عدا طريق طويل يفضي إلى الكنيسة وعلى طول البناء إلى الباب الصغير في الناحية الأخرى ، بُذرت التربة كلها بأنواع مختلفة من البرسيم كانت خضرتها وأزهارها بساطاً كأجل ما يكون المخمل . وكان على القبور الجديدة أن ترتب على نظام معلوم ، وبعد هذا تسوى الأرض وتلقى فيها البذور . ولم يكن أحد يشك في أن هذا التنظيم يهيئ للذين يفدون إلى الكنيسة ، منظرأ جيلاً باسمًا نبيلًا في أيام الآحاد والأعياد . وراعى الكنيسة نفسه ، وهو رجل متقدم في السن ، متشبث بالعادات القديمة ، بعد أن كان في البدء غير راض تماماً عن هذا الإجراء ، انتهى باغتيابه به ، حينما أتى مثل فيلمون يستريح مع بوقيسه^(١) تحت الزيزفون المتيق خلف المنزل ، فُسِّرَ إذ رأى أمامه — بدلا من أضرحة غير مستوية — بساطاً جيلاً مُفَوَّفاً ، سيفيد منزله من ناحية أخرى ، لأن شرلوت قد ضمنت لبيت الراعى التمتع باستغلال الأرض .

بيد أن بعض أعضاء الناحية قد ساء لهم رفع العلامات الدالة على

(١) بوقيس هي امرأة مجهوز من فريجييا . كانت تحيا حياة الكفاف مع زوجها فيلمون في كوخ حقير . وفي أثناء رحلة چوپتر ومركبه منتخفين في آسيا ، بلغوا هذا الكوخ ، فأصابا من أهله خير ضيافة ، حتى إن چوپتر سر من هذا الكرم إلى حد أنه كافأهما بأن أحال كوخهما إلى معبد ، وأقام بوقيس وفيلمون كهنة له ؟ وعاشا في أسعد حال حتى بلغا من الكبر عتياً ، وماتا في وقت واحد وفقاً لرغبتهما إلى چوپتر حتى لا يحزن أحدهما لفقد الآخر . وتحول بدناهما إلى شجر أمام باب المعبد .

الأماكن التي رقد فيها أجدادهم ، وبهذا سُحيت ذكراهم : والواقع أن الشواهد المحفوظة قد عُنيت ببيان حقيقة الشخص المدفون ، لكنها لم تبين في أى مكان دُفِن ، وكانت معرفة المكان هي الأهم في نظر كثير من الناس . فقد كان هذا رأى إحدى أسر الجيرة التي احتفظت لنفسها منذ سنوات عدة بمكان في هذا المرقد المشترك ، وفي مقابل هذا أقامت مؤسسة صغيرة لصالح الكنيسة . وقد أتى القانونى الشاب مُوفداً لإلغاء المؤسسة ، معلناً أنه لن يدفع لها بعدُ شيئاً ، لأن الشرط الذى به تم الدفع لها حتى الآن قد اُخلَّ به من جانب أحد المتعاقدين ، ولم يُحسب أىُّ حساب لكل الآراء والمعارضات . ولما كانت شرلوت هي الفاعلة الأصلية لهذا التغير ، فقد أرادت أن تتحدث بنفسها إلى ذلك الشاب الذى عرض حيثيات موكله بحماسة ، في غير تكبر ولا عجرفة ، مشيراً عند أصدقائنا ألوأنّا من الأفكار الجادة الخطيرة .

قال ، بعد استهلال قصير ، عرف كيف يبرر به إلحاحه : « هؤلاء أنتم ترون أن أصغر الناس وأكبرهم حريص على تعيين المكان الذى رقد فيه أجداده . إن الفلاح المسكين الذى يدفن ابنه ليجد نوعاً من العزاء في إقامة صليب هش من الخشب فوق قبره ، وتزيينه بإكليل ، كيما يحتفظ على الأقل بالذكرى طوال أله ، حتى لو عفى الزمان على هذه العلامة كما يُعفى على أحزانه . أما الموسرون فيستبدلون بهذه الصليبان الخشبية صليباناً من الحديد يصونونها ويحمونها بشتى الوسائل ، مما يؤدي إلى بقائها طويلاً . لكن لما كانت هذه الصليبان نفسها ستنتهى بالذئور والفناء ، فإن الأغنياء لا يفوتهم أن يقيموا حجراً ، يعمدُ بالبقاء طوال عدة أجيال ، ويستطيع الأُخلاف في الأجيال التالية أن يصلحوه ويجددوه . غير أن هذا الحجر ليس هو ما يسترعى انتباهنا : إنما هو ما انطوى تحته ، وما وُكِّل إلى التراب . فالناس لا تعنيهم

الذكرى بقدر ما يعينهم الشخص نفسه ؛ والأمر ليس أمر ذكرى ، بل أمر حضور . وإنى لأفضل عناق ميت عزيز على القبر منه على شاهده : لأن هذا ليس في ذاته بذى قيمة ظاهرة ؛ لكن الأزواج والأهل والأصدقاء لا بد لهم أن يلتفتوا حوله كلواء يضم شملهم ، حتى بعد موتهم ؛ ويجب أن يحتفظ الحى بحقه في إبعاد الغرباء وأهل السوء عن أحببه وهو يرقد في هذا المكان . لهذا فإني أؤكد إذاً أن موكلي له كل الحق في سحب المبلغ الذى يدفعه المؤسسة ؛ وهو بهذا يظهر كثيراً من روح الإنصاف ، لأن الضرر الذى أصاب أفراد الأسرة هو من ذلك النوع الذى لا يمكن التفكير فى أى تعويض عنه . لقد فقدوا المتعة العذبة الحزينة ، متعة حمل قربان جنازى لموتاهم الأعزاء ، فقدوا الأمل فى أن يرقدوا يوماً إلى جوارهم .

— فأجابت شرلوت : ليس لهذا الأمر كل تلك الأهمية ، التى تحمّلنا على الدخول فى متاعب قضية . إننى أبعد من أن أكون آسفة على ما فعلت ، لدرجة أنى سأعوض الكنيسة بطيب خاطر عن المنفعة التى فقدتها . لكن يجب على أن أصارحك بأن حججك لم تُقنعنى مطلقاً . فإن الشهور الصافية بالمساواة العليا الكلية ، على الأقل بعد الموت ، يبدو لى أبعث على الرضا من ذلك الاستمرار التحكمى العنيد لأشخاصنا وعلاقاتنا وصلاتنا الاجتماعية . وأنت ماذا ترى فى هذا ؟ هكذا وجهت شرلوت الخطاب إلى المهندس .

فأجاب : « لست أود فى مثل هذه المسألة أن أناقش أو أدلى بحكم . ولتسمح لى بأن أعبر فى تواضع عما عسى فى وطريقة تفكيرى عن قرب ، ما دمنا لا نملك من السعادة ما يسمح لنا بأن نضم إلى صدورنا بقايا أحبائنا المطمورة فى إجبانة ، وليس لدينا من الثراء ولا الصفاء ما يخول لنا الاحتفاظ بها فى حى من الفساد داخل نواويس نخمة واسعة ، بل لا نجد مكاناً حتى فى الكنائس لنا ولأهلنا ، وأنتا نظرد خارجاً فى الفضاء الفسيح — مادام

الأمر كله على هذا النحو فلدينا جميعاً ما يحملنا على الموافقة على ما فلتنيه
يا سيدتي البارونة . إن أبناء الأبروشية حينما يرقدون جنباً إلى جنب ، إنما
يرقدون وسط أهلهم وبين ظهرانيهم ، وما دام مصيرنا جميعاً إلى التراب ،
فلا شيء أقرب إلى الطبيعة وأنسب من تسوية كل الأكتات التي أقيمت
بغير نظام ولا تدبير ، وتهدمت شيئاً فشيئاً ، ومن مخيف عبء التراب عن
الجميع يبسط الغطاء عليهم أجمعين .

فقلت أوتيلي : إذاً لا بد أن يفنى كل شيء إلى غير رجعة ، دون
الإبقاء على أقل علامة للذكرى ، ودون أن تبدى للذاكرة أية إشارة .

— كلا ، هكذا استأنف المهندس ، ليس الواجب التخلي عن الذكرى
وإنما عن السكان . إن المهندس والنحات يعينهم تماماً ما ينتظره من فنونهم
ومن أيديهم من بقاء وجودهم واستمراره ، لهذا أود أن أرى آثاراً جيدة
التصميم متقنة الصنعة ، لا متناثرة متفرقة حيثما اتفق بل مقامة في مكان
يمكنهم فيه أن يأملوا البقاء . وما دام القديسون والمعلماء أنفسهم يصدفون
عن امتياز دفنهم في الكنائس ، فيجب على الأقل أن توضع في هذه الأبنية
أو في أبهاء جميلة حول المقابر آثارٌ ونقوشٌ . وهناك آلاف الأشكال التي
يمكن أن تعمل لها ، وآلاف الأنواع من التزيين الصالحة لتوشيتها .

فقلت شرلوت : أنت تقول إن الفنانين أثرياء بموارد فنونهم إلى هذا
الحد ! خبرني إذاً لماذا لا يخرجون أبداً عن شكل المسلة الصغيرة والعمود
المقطوع والإيجانة الرُفّاتية ؟ وبدلاً من آلاف الابتكارات التي تشيد بها
لم أشاهد مطلقاً غير آلاف التكرارات .

— لعل الأمر على هذا النحو عندنا ، بهذا أجاب المهندس ؛ لكن الحال
ليست كذلك في كل البلدان . ويلوح بوجه عام أن العاطفة والتطبيق
الناسيين هما شيء خاص . وفي مثل هذه الحالة خصوصاً توجد بعض

الصعوبات ؛ فيجب في الموضوعات الجدية إشاعة نوع من السحر ، وفي الموضوعات الأليمة عدم إيجاد أثر أليم . أما فيما يتصل بمشروعات الآثار من كل الأنواع ، فقد جمعت عدداً وافراً منها ، وسأوافيك بها عند الحاجة ، لكن أجمل أثر هو دائماً صورة الإنسان نفسه . فهي تعطي فكرة عما كان ، خيراً من أى شيء آخر ؛ وهي أحسن نص يمكن أن تضاف إليه قسمة نادرة أو عديدة . لكن يجب صنع هذا العمل حينما يكون الإنسان في أجمل سنوات عمره ، وهذا عادة هو ما يهمله الناس . فلا أحد يفكر في الاحتفاظ بالأشكال الحية ، ولو حدث هذا فإنه يتم بطريقة غير كافية ولا وافية . هنالك يسرع الإنسان بعمل تمثال من الجبس للميت ؛ ويضع هذا القناع فوق كتلة حجرية ، وهذا يسمونه تمثالا نصفيا . وما أندر ما ينجح المرء في إشاعة الحياة بقوة فيه !

فأجابت شرلوت :

لقد عثرت — وربما من غير علم ولا قصد — على فكرتي الحقيقية . فإن صورة الإنسان شيء مستقل قائم بذاته : أينما وُجدت ، وُجدت لنفسها ، ولن نسألها أن تمين لنا مكان الدفن . لكن ، أيتخلى بي أن أصارحك بشعور غريب ؟ إنني أنفر من الصور نفسها نوعاً من النفور . إنها تلوح لي دائماً كأنها توجه إلى لوماً خفياً . إنها تذكر بشيء بعيد ، شيء لم يعد بعد موجوداً حاضراً ، وتذكرني بمقدار ما هنالك من مشقة في تكريم ما هو باق على نحو ملائم . لو أفكرنا في عدد الناس الذين رأيناهم وعرفناهم ، ولو صارحنا أنفسنا بضآلتنا بالنسبة إليهم ، وفي نظرهم ، وبضآلتهم في نظرنا ، فماذا نشعر آنذاك ؟ نحن نلتقي بالرجل المبقرى دون أن نتحدث وإياه ، وبالعالم دون أن نتعلم في صحبته ، والرحالة من دون أن

نفيد من تجاربه ، والرجل العاطفي من دون أن نقول له شيئاً يتملق عواطفه ؛ ومن الأليم أن هذا لا يحدث مع من نلتقى بهم بطريقة عابرة وخدم : فإن الجماعات والأسر تسلك نفس المسلك نحو أعز أبنائها ، والذين نحو خيرة مواطنيها ، والشعوب نحو أكرم أمرائها ، والأمم نحو رجالها الصيِّد المتنازين .

« لقد سمعت أحداً يتساءل لماذا يذكر الناس محاسن الموتى بسخاء ، ومحاسن الأحياء بنوع من التحفظ ؟ وأجيب عليه : بأننا لا نخشى شيئاً من الأولين ، بينما الآخرون يمكن أن نلتقى بهم يوماً في طريقنا . وهذا هو الطابع النفى في عنايتنا بذكري الآخرين : إنه ليس غالباً إلا تسليية أثرة ، بينما الواجب أن نعد شيئاً جدياً مقدساً أن نُدعى دائماً للنشاط والحياة في علاقاتنا مع الباقين على قيد الحياة » .

الفصل الثاني

وفي الغد غدا أصدقائنا — وقد هزتهم هذه المسألة وما أثارته من أحاديث — إلى المقبرة ، وأبدى المهندس بعض الأفكار الجيدة من أجل تزيينها وتجميلها . لكن عنايته كان يجب أن تمتد أيضاً إلى الكنيسة ، لأن هذا البناء قد استغرق انتباهه منذ اليوم الأول .

لقد أنشئت منذ عدة قرون ؛ وكانت وفقاً للذوق والطراز الألمانيين ، مشيئة تبعاً لنسب جيدة ، ومزينة بطريقة ماهرة بارعة . وفي الوسع الاعتراف بسهولة بأن مهندس الدير المجاور قد لذ له أن يبرز كل ملكاته في إقامة هذا البناء أيضاً ، الذي وإن كان أقل حجماً فإنه أحدث أثراً ممتعاً رائعا ، على الرغم من أن التغيرات التي أجريت في التنظيم الداخلي ،

وفقاً للمذهب البروتستنتى ، كانت كفيّلة بأن تُفقد المعبّد شيئاً من جلاله الهادى .

وظفر المهندس من شرّوت دون عناء بمبلغ متواضع ، اقترح أن يعيد بواسطته إصلاح الجزء الخارجى والداخلى ، لكى يردّها إلى طرازها الأول ، وأن يؤثّم بينه وبين المقبرة الممتدة أمام الكنيسة . وعمل هو نفسه بكل مهارة وحِدْق ، واحتفظ ببعض المال ، ممن كانوا لا يزالون يشتغلون ببناء الصُفّة ، من أجل إتمام ذلك العمل الجليل .

وكان لزاماً إذاً زيارة البناء بكل ملحقاته وتوابه ؛ وكَم كانت دهشة المهندس وسروره حينما اكتشف مبعداً جانبياً صغيراً فات الناظرين ، كان بارع الهندسة خفيفاً ، ذا ترتيبات جميلة أنيقة . وكان يشتمل على بقايا قطع منحوتة وصور تنسب إلى المذهب القديم (الكاثوليكية) الذى يحسن التمييز بين مختلف الأعياد بواسطة الصور والأجهزة القديمة العديدة ، ويحتفل بكل منها على نحو خاص .

ولم يبالك المهندس من إدخال المعبّد فى الحال ضمن مشروعه ، وأن يعيد ذلك المكان الضيق بكل عناية ؛ حتى يعود كَأثر من آثار القرون الماضية يتفق وذوقها . وفكر فى تزيين الأماكن الخالية وفقاً لهواه ، واغتبط كل الاغتباط باستخدام ملكته فى التصوير ؛ لكنه جمل هذا الأمر سرّاً بالنسبة إلى مضيفه .

وقبل كل شيء أرى السيدتين ، كما وعد ، النسخ المختلفة والمُجمّلات التى للقبور القديمة ، والأواني وغيرها من الأشياء الماثلة . ولما انتقل الحديث إلى أضرحة الشعوب الشمالية بما فيها من بساطة ، أراها مجموعة الأسلحة والأدوات المختلفة التى وُجدت فيها . وهو كان قد رتب كل هذه الأشياء

لى خير ترتيب وأيسره للحمل ووضعها فى أدراج ذات عيون ، وعلى ألواح مشقوقة مكسوة بالجوخ ، حتى إن هذه الأمتعة العتيقة الجدية قد اتخذت بفضل عنايته مظهر الأناقة وأصبحت الميون تنو إليها بسرور ، كماهى الحال فى صناديق تاجر الأزياء الجديدة . ولما بدأ يمرض كنوزة ، وكانت الوحدة تدعو إلى الملامى والتسلية ، عمل على أن يظهر قسما منها كل مساء ، وكان أغلبها من أصل ألمانى : 'مُخَلَّفَات' ونقود وأختام وما إليها . وكل هذه الأشياء تعود بالخيال إلى اليهود القديمة ؛ ولما تَوَجَّح التسلية بمرض النماذج الأولى للطباعة والنقش على الخشب والنحاس — وبهذه الروح تبدت الكنيسة نفسها كأنها تتقهقر فى الماضى يوماً بعد يوم ، بواسطة الرسوم وبقية التزيينات — وصلت الحال بالمرء منهم أن يسأل هل هو يحيا حقاً فى العصر الحديث ، وعمّا إذا لم يكن حُلماً أن يجد نفسه منذ الآن وسط عادات وأخلاق ومعاملات واعتقادات مختلفة كل الاختلاف .

ولما تهيات النفوس على هذا النحو أحدثت حافظة أوراق كانت آخر ما أتى به المهندس ، أحسن الأثر . أجل إنها لم تكن تشتمل إلا على صور رسمت رسماً بسيطاً ، لكن طبعت على النماذج الأصلية حتى إنها احتفظت تماماً بطابعها القديم . وكل كانت فتنها فى نفوس سيدتنا ! وفى كل هذه الصور تكشف أصفى شعور ، وتبدى طابع من النبيل أو على الأقل من الإحسان ظاهر . فكان يقرأ على كل الوجوه التأمل السعيد ، وعبادة كائن أعلى ، والتسليم الوديع فى الحب والرجاء ، وكانت تنبض بهذا كل الحركات والإشارات . فالشيخ الأصلع ، والطفل ذو الشعر المقصوص ، والفقى المتوثب والرجل الجاد ، والقديس الطاهر ، والمَلَك الناشر أجنته ، كلها لاحت سميدة ترفل فى سرور برىء ، وتنعم برجاء ورع . وعلى أُنْفَه الأفعال سياء

الحياة السماوية ، وتبدت خدمة الله كأنها الرسالة الطبيعية لكل في الحياة .
وكان الجميع يتأملون هذا العالم كأنه عصر ذهبي انقضى ، أو جنة مفقودة .
ولعل أو تبلى كانت وحدها التي استطاعت أن تشعر بأنها في عالم أليف لها ،
عالم من جنسها .

ومن ذا الذي كان يستطيع أن يرفض عروض المهندس ، حينما اقترح ،
عناصرة هذه الأشكال والصور المثالية ، أن يرسم المساحات الموجودة بين عروق
قباب المعبد ، وبهذا يربط ذكراه بالسكان الذي أحسن فيه استقباله !
وعرض رأيه في هذه المسألة بشيء من الحزن ، لأنه رأى جيداً ، من شواهد
الحال ، أن مقامه في مثل هذه الجماعة الممتازة لا يمكن أن يستمر طويلاً ،
بل لعله لابد أن ينتهي وشيكاً .

وفضلاً عن هذا فإن هذه الأيام التي تمتلئ بالأحداث قد سببت كثيراً
من الأحداث الجديدة ؛ ولما لندهر هذه الفرصة كيما نقبض بضع مقتطفات من
« يوميات » أوتيلي مما ينتسب إلى تلك الفترة . ولسنا نجد وسيلة للانتقال
خيراً من تشبيه يخطر ببالنا ونحن نتصفح هذه المجموعة العريضة .

فالناس يتحدثون عن عادة غريبة متبعة في البحرية الإنجليزية . فكل
حبال البحرية الملكية ، من أغلظها حتى أرفعها ، قد قُتلت على نحو يجعل
خيطاً أحمر يخترقها كلها ، ولا يمكن فصله دون حلها جميعاً ؛ مما يسمح
بمعرفة أن أصغر الأجزاء ينتسب أيضاً إلى العرش . وبالمثل ، يسرى في
« يوميات » أوتيلي خيط غرام وحنان ، يربط الكل ويميزه بطابع خاص .
وعن هذا الطريق تصير هذه الملاحظات والتأملات والخواطر والأمثال
المستعارة ، وبقية الأشياء التي نجدها فيها ملائمة لن تكتبها ، ذات أهمية
خاصة لديها . وكل فقرة اخترناها واقتبسناها ستقدم على هذا الدليل الحاسم .

من يوميات أوتيلي

أغرب خاطر يحول بفكر الإنسان حينما يستشرف إلى ما وراء هذه الحياة هو الرقاد يوماً ما إلى جوار من أحببهم . « أن يُضَمَّ المرء إلى صحابه » : هذا تعبير بالغ التأثير !

هناك آثار وتذكارات من عدة أنواع تذكرنا بالموتى والغائبين . لكن لا شيء منها يفوق الصورة . فالتحدث إلى صورة عزيزة ، حتى لو لم يكن التشابه كاملاً ، فيه نوع من الفتنة والإغراء ، كما أنه من المفرد أحياناً أن يتجادل الإنسان مع صديق . إذ يشعر المرء على نحو لذيذ بأنه اثنان ، ومع هذا فالانفصال ليس من المستطاع .

أحياناً ما يتحدث الإنسان مع شخص حاضر وكأنه يتحدث إلى صورة . فليس من الضروري أن يتحدث أو يتطلع إلينا ، أو يهتم بنا : ومع هذا فنحن نراه ونشعر بصلاتنا به ؛ بل إن هذه الصّلات يمكن أيضاً أن تنمو وتزيد ، دون أن يعمل المرء شيئاً في هذا السبيل ، ودون أن يحس بشيء مما حدث ، إلى درجة أنه لا يكون في نظرنا إلا مجرد صورة .

لا يمكن المرء أن يرضى عن صورة الأشخاص الذين نعرفهم ؛ لهذا فإني رثيت دائماً لحال الرسامين الذين يشتغلون بهذا النوع . من النادر أن يطلب المرء المستحيل من الناس ، لكن هذا هو بعينه ما تقتضيه من هؤلاء الفنانين . نريد منهم أن يُدخلوا في رسمهم علاقات كل الأشخاص الرسميين وما بينه وبينهم من حب أو كراهية . ولا يجب عليهم أن يمثلوا الشخص كما يرونه ، بل كما يمكن كلاً أن يراه . لذا لا أدهش من كون هؤلاء

الفنانين يصيرون شيئاً فشيئاً عبيدين هوائيين غير مكترئين ولا مباشرين : وما كان لهذا الأمر من ضرر لولا أن نتيجته أن يزهد المرء في امتلاك صورة كثير من الأشخاص الأعزّاء .

ليس من شك في أن مجموعة المهندسين : هذه الأسلحة وهذه الأدوات القديمة التي دفنت مع الجثة في المقابر الكبيرة وتحت الأحجار الضخمة ، تدل دلالة قاطعة على مقدار عدم فائدة الاختبارات التي يتخذها الناس لصيانة شخصهم بعد الموت . وما أقل اتفاقنا مع أنفسنا ! .. لقد اعترف المهندس بأنه فتح بيده قبور الأسلاف هذه ، ومع هذا فهو يستمر على الاهتمام بإقامة التماثيل والآثار من أجل الأخلاف .

لكن لماذا نأخذ الأمور هذا المآخذ القاسي ؟ أفكل ما نعمله نعمله للخلود ؟ أفلا ترتدى ثيابنا في الصباح لنخلعها في المساء ؟ ألا نقوم بالأمسار لنعود إلى حيث كنا ؟ فلماذا لا نأمل في الرقاد إلى جوار أهلنا وصحابنا ، حتى لو لم يكن ذلك إلا لمدة قرن من الزمان ؟!

حينما يرى المرء كل أحجار الأضرحة هائيك مطمورة في التراب ، أو تُعفى عليها أقدام المخلصين بل وتنهار الكنائس نفسها فوق قبورهم ، حينما يرى المرء هذا كله يمكنه دائماً أن يتصور الحياة بعد الموت على أنها حياة ثانية ، يدخلها المرء بصورة أو نقش ، وفيها يبقى أطول مما يبقى في حياة الأحياء ؛ لكن هذه الصورة ، وهذه الحياة الثانية ، ستبقى إن عاجلاً أو آجلاً . إن الزمان لا يسمح بأن تسلب حقوقه عند الآثار أكثر منه عند الناس .

الفصل الثالث

ما أعذب الاشتغال بالأشياء التى لا نعرفها إلا معرفة ناقصة ! وليس
لإنسان أن يلوم الهاوى الذى يتعلق بفن لن يتعلمه أبداً ، ولا الفنان الذى
يتجاوز حدود فنه فيلذ له أن يقوم بجولة فى الميادين المجاورة .

بهذا الشعور العادل كان المهندس قد تهيأ لرسم المعبد . وكانت الألوان
مُعَدَّة ، والمقاييس قد أُخِذت ، والرسم التمهيدى قد خُطَّط : وهو لم يدع
الابتكار ، بل يتعلق بمجملاته ؛ وكان همه الوحيد أن يُحسن توزيع الأشكال
الجالسة والطائرة ، وأن يُعمل منها لهذا المكان زينةً جيدةً الذوق .

نُصِبَت القوائم وتقدم العمل ؛ ولما كانت بعض الأجزاء مما يثير
الاستطلاع قد تم إنشاؤها ، فإن الفنان لم يكن فى وسعه أن يفضب من
زيارات شلوت وأوتيل له . وكانت صور الملائكة تفيض كلها حياة ،
والأقنشة المتأوجة التى تنفصل عن زرقة سماوية تفتق العيون ، بينما كان مظهرها
الساكن الورع يهيب بالقلب أن ينطوى على نفسه ويتأمل ، ويدعو النفس
إلى الرقة والحنان .

صَعِدَت السيدتان على القوائم ؛ ولم تكذ أوتيل تبصر مقدار ما فى سير
العمل من سهولة ويُسر ودقة ، كأنه بالفرجار ، حتى لاحظت ثمار دراستها
الأولى كأنها نمت فى الحال وانبعثت ؛ فأخذت لوح الألوان والريشة ،
ورفقا للأرشادات التى قدمت إليها ، خططت قماشاً عديد الثنيات ،
بكل مهارة وصفاء .

ولما رأتها شلوت تشتغل بشئ وتسرُّى عن نفسها على نحو ما ، سرها
ما شاهدت ، فتركت الهاوىين يواصلان عملهما ، وابتعدت لئلا تفرُّغ

لأفكارها الخاصة ، وتناقل نفسها الحديث عن الأفكار والهموم التي لا تستطيع أن تفضي بها إلى أحد .

وإذا كان التافهون من الناس يشيرون فينا ابتسامة الشفقة ، حينما نشاهد المصايقات الصغيرة في الحياة اليومية تثير في نفوسهم قلقاً محمومًا ، فإننا نتأمل باحترام هذا القلب النبيل الذي يندرفيه جرثومة مصير كبير ويضطرب إلى الانتظار حتى النهاية ، انتظار أن تنمو هذه الجرثومة ، دون أن يجرؤ أو يقدر على التعجيل بما لا بد أن ينشأ عنها من خير أو من شر .

إن إدورد بعد أن تلقى في عزلته رسالة شرلوت ، رد عليها بطريقة نثم عن الصداقة والعطف ، لكن بلهجة أقرب إلى الجد والتحفظ منها إلى الألفة والتعاطف . وبعد زمان قصير اختفى ، ولم تستطع زوجته أن تكتشف ما آل إليه أمره . وأخيراً شاهدت بالصدفة اسمه في الجرائد ، مذكوراً بالتمييز ، بين الضباط الذين برزوا في مسألة هامة . فعرفت آنئذ أى طريق سلك ؛ واستطاعت أن تتبين أنه نجا من مخاطر كبيرة ؛ لكنها في الآن نفسه اقتنعت بأنه لا بد سيسمى إلى ما هو أكبر منها ، واستنتجت من هذا بكثير من اليقين أنه من العسير على كل حال أن يحال بينه وبين الاندفاع إلى أبعد الأطراف . فشغلتها هذه المخاوف في صمت ، وتواردت عليها في غير انقطاع ، ومهما قلبت الأمر على وجوهه ، فإنها لم تستطع أن تكتشف فيه ما يبعث في نفسها الطمأنينة .

أما أوتيل التي لم تحس شيئاً من هذا كله فقد أقيمت على عملها بجرارة وحاسة ، واستطاعت بسهولة أن تغفر من شرلوت بالإذن لها بمواصلته بانتظام . هنالك تقدمت بسرعة ، وسرعان ما ملأ الأزرق السماوي بسكان ممتازين . وبهذا الثمرين المتصل ظفر فنسانا ، في الصور الأخيرة ، بحرية في

الرسم أوسع . فجاءت أحسن كثيراً . والوجوه التي وُكل إلى المهندس وحده رسمها تبدت شيئاً فشيئاً ذات طابع خاص يستلفت النظر بشكل واضح : وقليلًا قليلًا شابهت كلها وجه أوتيلي . فإن حضرة هذا الإنسان الجليل لا بد أن تكون قد أحدثت أثرًا عميقًا في نفس ذلك الشاب الذي لم يكن قد ظفر بعد ، لا في الطبيعة ولا في الفن ، بأي نموذج سياء ، حتى إن كل شيء انتقل — من غير شعور — من العين إلى اليد ، دون فقدان شيء ، وأخيرًا تضافرت العين مع اليد في العمل على وفاق كامل : وبالجملة ، نجح أحد الوجوه الأخيرة نجاحًا كاملاً ، إلى حد أن المرء يخيل إليه أن أوتيلي نفسها ماثلة تلقى من علياء سمائها بنظراتها على الأرض .

ومت القُبَّة ؟ وكان الرأي أن تترك الجدران عارية ، إنما تغطي فقط بطبقة سمراء فاتحة ، عليها تبرز الأعمدة الرقيقة وزخارف النحت بواسطة لون أغمق ؛ لكن كما يحدث في مثل هذه الأحوال من أن شيئاً يقود دائماً إلى آخر ، فقد قر العزم على أن ترسم على الجدران أيضاً أكاليل من الأزهار والثمار ، من شأنها — على نحو ما — أن توحد ما بين الأرض والسما . وفي هذا أحست أوتيلي بأنها بنت بجديتها . وكانت البساتين خير نموذج تحتذي ، وعلى الرغم من أن هذه الزخارف قد عولجت براء واسع ، فإن العمل قد تم قبل الألوان المقدّر له .

ومع هذا فقد لاح كل شيء متبدّي الخشونة والإهمال : فالقوائم كانت مختلطة ، والألواح متناثرة بعضها فوق بعض ، والأرضية غير مستوية ، قد زاد من تشويهاها مختلف الألوان التي نشرت عليها . فسأل المهندس السيدتين أن يدعاه ثمانية أيام لا يدخلان فيها المبد . وأخيراً في أمسية جميلة دعاها للمجيء كلاً من ناحية ؛ ولكنه سألها أن يعفياه من مصاحبتها ، وانصرف .

— مهما يكن من الدهشة التي أوقعنا فيها حينما خرج ، هكذا قالت شرلوت — ، فليست لدى الآن أية رغبة في الذهاب إلى المعبد . فسكافى نفسك وحدها هذه المهمة ، وأبلىنى نبأ ما ستريين . وليس من شك في أنه عمل عملاً جيلاً ؛ وسأنعم به بواسطة وصفك أولاً وبالعيان ثانياً .

وكانت أوتيلي تعلم جيداً كيف أن شرلوت تلتزم الحذر في كثير من الأشياء ، وتتجنب كل الانفعالات ، ولا تريد خصوصاً أن تقع في دهشة ؛ لهذا سلكت سبيلها وحدها في الحال ، وبغير إرادة منها تفقدت المهندس بعيونها . ولكنه لم يظهر : ولعله قد اختفى في ركن ما . فدخلت المعبد ووجدته مفتوحاً . وكان قد تم منذ زمان طويل ، ونُظف وكُرس . فتقدمت ناحية باب الكابلة ، الذي انفتح بسهولة على الرغم من أنه كان ثقيلاً ضروداً بالبرنز ، وسمح لها ، في مكان كانت تعرفه ، برؤية مشهد لم يخطر لها على بال .

فن النافذة الوحيدة العالية كان يساقط نور قائم ، اختلط في جبال بأصباغ متنوعة هي أصباغ الزجاج الملون ، مما أعطى الكل لوناً غريباً ، وأحدث في النفس أثراً من نوع خاص تماماً . وزادت زخارف الأرضية من جمال القبة والجوانب ، وقد كانت الأرضية مكونة من طوب ذي شكل خاص مصروف وفقاً لنموذج جميل ومترابط معاً بواسطة طلاء من الجبس . وهذه المربعات ، هي والزجاج الملون ، قد أعدها المهندس سرّاً ، وكفاه وقت قصير لترتيب كل شيء . وحسب حساباً للجلوس : فبين أثاث الكنيسة العتيق كانت توجد بعض مقاعد الجلوة أنيقة الفحت ، فأسندت إلى الجدران التي تحيط بها على نحو ملائم .

نعمت أوتيلي بالأجزاء المعروفة لها وقد تبدت أمامها الآن كأنها مجموع

جديد . وقفت حيناً ، وغدت وراحت ، وتأملت وشاهدت ؛ وأخيراً جلست على أحد المقاعد ، ورفعت عينها إلى القبة ثم أجالتهما فيما حولها ، فلاح لها أنها موجودة وأنها غير موجودة ، أنها تشعر ولا تشعر ، وأن كل ما رآته على وشك أن يزول أمامها ، وأنها هي مستزول أمام نظر نفسها . ولم تخرج الفتاة عن أحلامها إلا حينما غادرت الشمسُ النافذة التي كانت ترسل عليها فيضاً من النور حتى ذلك الحين . ثم دأبت إلى القصر .

ولم تكتم نفسها أى زمن غريب جرت لها فيه تلك المفاجأة . لقد كان عشية عيد ميلاد إدورد ، وهي كانت قد أمّلت أن تحتفل به على نحو آخر مختلف تماماً . لكن كم صار كل شيء مزداناً من أجل هذا العيد ! الآن قد تفتحت كل أزهار الحريف الجميلة ، ولم يقتطفها أحد بعد . إن أزهار عباد الشمس هذه لتدير وجهها دائماً قِبَل السماء ، وهذا الأسطير يفيض عيونُه بتواضع نحو الأرض ، وتلك التي ضُفرت على هيئة أكاليل قد استخدمت كنماذج لتزيين مكان ، إن لم يكن له أن يبقى دائماً زوة فنان ، وإذا كان لا بد من تكريسه لمنفعة ما ، فإنه يلوح أنه لا يليق إلا أن يكون مقبرة مشتركة .

ثم تذكرت بأى نشاط صاحب تم الاحتفال بعيد ميلادها بفضل إدورد ؛ فأفكرت في البيت الجديد ، الذي اتَّسَدَ تحت سقفه على كثير من أسباب السرور ؛ وكيف كانت الشهبان النارية تتلألأ تحت سمعها وبصرها ؛ وكلما ازداد شعورها بوحدها ازداد انشغال خيالها ، لكن هذا لم يزد وحدتها إلا وحشة وكآبة . إنها لم تعد تستند بعد إلى ذراع إدورد ، ولم تعد تأمل بعد في أن تجد فيه يوماً سندها وعمادها .

من يوميات أوتيلي

يجب أن أسجل خاطر فنان شاب : الأمر عند الفنان التجسيمي شأنه شأن الصانع : فلا بد من الاعتراف بكل يقين بأن الإنسان لا يكون أقل مملكا لشيء منه لما ينتسب إليه حقا . إن أعماله تهجره ، كما تهجر الطيور الأوكار التي ولدت فيها .

ومن هذه الناحية يكون مركز المهندس غريبا كل الغرابة . فكم مرة يستخدم كل عبقريته وكل تعشقه للفن ، لإقامة أبنية يجب أن يخرج نفسه منها ! إن مساكن الملوك لتدين له بروعتها وجلالها ، ولا يسمح له بالتمتع بخير ما فيها ؛ وهو في العابد يرسم خط تحديد يفصل بينه وبين قدس الأقداس ؛ وليس له بعد أن يطاء الدرجات التي وضعها من أجل احتفال تهذيبي ، شأنه شأن الصانع الذي لا يستطيع أن يتعبد معرض القربان المقدس الذي رتب هو جواهره وميناءه إلا من بعيد . إن المهندس حينها يقدم مفتاح القصر إنما يسلم إلى الفنى كل المتع والذائد ، دون أن يشارك هو فيها بأدنى نصيب . وعلى هذا ، أفلا يجب على الفن إذا أن يتباعد عن الفنان شيئا فشيئا ، اللهم إلا إذا لم يردَّ العملُ الفعلَ على منشئه كالابن البار ؟ وأى تشجيع لا بد للفن أن يجده في نفسه ، حينما كان يلذ له ألا يشغل إلا بالأعمال العامة ، بما ينتسب إلى كل الناس وبالتالي إلى الفنان نفسه !

كانت لدى الشعوب القديمة فكرة قاسية ، يمكن أن تبدو رهيبة . لقد كانوا يتخيلون أجدادهم جالسين على عروش في داخل كهوف ضخمة يتحدثون في صمت ؛ فإذا أتاهم عضو جديد جدير بالتقدير ، وقفوا

له وانحنوا، إكراما لوفادته . وبالأمس ، حينما جلست في الكابينة ، ورأيت
قُبالة مقعدى المنحوت مقاعد أخرى عديدة ، مصفوفة من حولى ، تبثت لى
تلك الفكرة جميلة سارة . « لماذا لا نستطيعين أن نظلى جالسة ؟ هكذا
قلت لى نفسى ؛ ابقيْ جالسة ، صامتة ، متأملّة ، لزمان طويل ، طويل ،
حتى اليوم الذى يأتى فيه أصدقاؤك ، فتنهضين واقفة لمرآهم ، وبتحية
صادقة ، تشيرين إليهم بالمكان الذى ينتظرهم ؟ إن الألواح الزجاجية الملوّنة
لتجمل من النور أصيلا كايّا ، ولا بد أن يضع أحد الناس مصباحا دائما
كيلا يدع الليل مستغرقا فى ظلام شامل » .

فى أى مكان شئت أن توجد به يخيّل إليك دائما أنك تبصر وترى .
إننى أعتقد أن المرء يحلم لا لشيء إلا لكيلا يتوقف الإبصار والرؤية . فمن
الممكن أن يحدث أن ينبثق النور الباطن مرة من داخل نفوسنا ، بحيث
لا يكون غيرُهُ ضروريا لنا .

العام بسبيل الزوال ؛ والريح تمر فوق القش ، ولا تجد بعد شيئا تهزه ؛
والحبوب الحمراء لهذه الأشجار الفارعة تبدو هى وحدها التى تريد أن تذكرنا
ببعض الأفكار الباسمة ، كما أن الضربات الموزونة للدّراس فى الحقل تثير
فىنا فكرة أن الغذاء والحياة كامنان بوفرة فى السفينة المحصورة .

الفصل الرابع

بعد أمثال هذه الأحداث ، وبمسد أن نفدت مشاعر بطلان الشئون
الإنسانية فى كل أعماقها ، كم كان تأثر أوتيل حينما علمت (ولم يكن من
الممكن إخفاؤه عنها طويلا) أن إدورد قد أسلم نفسه لعواصف الحرب !

وا أسفاه ! لقد انسأقت وراء كل ما عسى أن يثيره هذا من تأملات وخواطر وأفكار . لكن لحسن حظ الطبيعة الإنسانية أنها ليست قادرة إلا على مقدار محدود من الألم . وما يزيد عنه يقتلها أو يدعها غير مكترثة . وهناك مواقف يختلط فيها الخوف والرجاء ، يوازن كل منهما الآخر ويفنيان في فقدان للشعور غامض . وإن لم يكن الأمر على هذا النحو ، فكيف نحتمل أن يكون أعز الناس لدينا بعيدين عنا مستهدفين لأخطار متصلة ، ومع هذا نمضى فى أعمالنا فى الحياة اليومية ؟!

يلوح إذاً أن ملاكا حارساً قد عُني بالسهر على أوتيل ، بأن أتى لها فجأة ، فى مأواها الهادئ الذى قبعت فيه وحيدة عاطلة من الأعمال ، بجيش جرار سبب لها خارجياً القيام بكثير من الأعمال التى انتزعت نفسها منها ، وفى الآن نفسه أيقظ فيها الشعور بقواها الخاصة .

فلوسيانه ، ابنة شرلوت ، لم تكد تفادر مدرستها حتى دخلت المجتمع ؛ ولم تكد يراها الناس فى بيت عمتها ، محفوفة بمجاعة عديدة ، حتى أرضت رغبتها فى الإغراء ، وسرعان ما شعر شاب واسع الثراء برغبة حارة فى امتلاكها . وقد كان يساره العظيم يعطيه الحق فى امتلاك خيار كل شئ ، ولم يُلح أن شيئاً عاد ينقصه بعد إلا الزوجة الكاملة التى لا بد أن تثير فى الناس الحسد ، كما يثير هذا غيره مما لديه من الأشياء .

وهذه مسألة كثيراً ما شغلت شرلوت حتى ذلك الحين ، فكرت لها كل أفكارها ، وكانت كل رسائلها تدور من حولها ، اللهم إلا تلك التى كانت لا تزال نكتبها كما تظفر بأخباره عن إدورد . لهذا فإن أوتيل قد أصبحت فى الأيام الأخيرة فى وُحدة أشد إبحاشاً عما قبل . أجل ، إنها كانت تعلم أنهم ينتظرون لوسيانه ؛ وهى قد أعدت فى المنزل كل ما يلزم ، لكن

لم يكن من المتوقع أن تكون الزيارة قرية كل ذلك القرب . وهم شاءوا أيضاً أن يكتبوا ويتفاهموا ويتفقوا على التفاصيل ، لكن العاصفة هبت فجأة على القصر وعلى أوتيلي معا .

قدم الوصائف والخدم في عربة ومعهم الحقائب والصناديق . حتى ليخيل إلى المرء أنه يرى في البيت أسرتين من السادة أو ثلاثاً . وعماً قليل أقبل الضيوف أنفسهم : العمة الكبرى ومعها لوسيانة وبعض صديقاتها ، والخطيب نفسه ومعها حاشية وافرة . وامتلاً الدهليز بالمتاع والحقائب والعِياب . وكان لابد من كثير من المشقة لتمييز كل هذه الأمتعة والصناديق ؛ ولم يقف الحل والتفريغ والجُر . وزاد في هذه المتاعب أنهم مار مطر دافق . أما أوتيلي فقد قابلت هذا الاضطراب الصاخب بنشاط مُتَزَن هادئ ؛ وتبدت نصاعتها ومهارتها بكل جلاء ؛ وفي وقت قصير وضعت كل شيء في مكانه ورتبته . واتخذ كل مسكناً طيباً رافها بتفق وهواه ، وُخِيْلَ إليه أنه ينعم بخدمة ممتازة ، لأنه لم يُمنع من خدمة نفسه بنفسه .

وبعد هذه الرحلة الشاقة كل المشقة ، كان كلُّ يود أن يحظى بشيء من الراحة ، وكان بود الخطيب أن يقترب من حَمَّاه ، كيما يتحدثها عن مشاعره وطيب نواياه ؛ لكن لوسيانة لم تُطِيق الهدوء .

ووفقاً لمشيئتها ، ظفرت أخيراً بجواد : وكان خطيبها يملك من الخيول أنواعاً نفحة ، وكان لابد من استخدامه في الحال . فلم تكن رداءة الجو والرياح والمطر والأنواء عقبات في ذلك السبيل : ولاح أن المرء منهم لا يحيا إلا ليلتلاً ثم يتجفف بعد . وإذا شاء للوسيانة هواها أن تخرج ماشية على قدميها ، فإنها لم تكن تحسب حساباً لثيابها ولحذاءها . وأرادت زيارة المنشئات التي سمعت عنها حديثاً طويلاً . وما كان غير ميسور لها ارتياده على الجواد ،

كانت ترتاده على قدميها . وبعد قليل كانت قد رأت كل شيء وقدرته . وإن شخصاً له مثل مالها من حرارة وحمية لا يتيسر له احتمال المعارضة بسهولة . وكَمْ شكت الجماعة منها في هذا القصر ، خصوصاً الوصيفات اللاتي كُنَّ لا يفرُغن من الفسيل والكي والخياطة والرفو .

وما كاد القصر وما حوله يستنفد حب استطلاعها ، حتى وجدت نفسها مضطرة إلى القيام بزيارات في كل المنطقة المجاورة . ولما كانت تسرع في سيرها كل الإسراع ، إما على الجواد ، أو في العربة ، فإن المنطقة قد امتدت إلى مدى بعيد . وأقيت على القصر وفود زاخرة من الناس الذي قدِموا للزيارة ، ولكي يضمن وجودهم ، حُدِّدت أيام للاستقبال .

وبينما كانت شرلوت مشغولة هي وعمتها ومدير أعمال الخطيب بوضع شروط العقد ، وبينما كانت أوتيلي تحسن الإشراف على كل شيء وتدير كل ما يحتاج إليه وسط هذا التدافع الكبير (وهي قد عبأت القفاصين والبستانين والصيادين والتجار) — كانت لوسيانه تتبدى دائماً كأنها نجم مذهب متوقد يجر وراءه ذنباً طويلاً مسترسلاً . ومرعان ما بدت لها أسباب التسلية العادية للجماعة تافهة خالية من كل طعم . وقليل ما كانت تترك للأشخاص الكبار شيئاً من الراحة عند منضدة اللعب . وكل من كان لا يزال قادراً على التحرك (ومن ذا الذي لا ينساق وراء مضايقاتها الفاتنة !) كان لابد له من المشاركة ، إن لم يكن في الرقص ، فعلى الأقل في هذه الألعاب المتوبة بالمراهنات والمقوبات والمكائد . وحتى لو لم يكن لكل هذه التسليلات ، وما يتلوها من فداء الرهائن ، من موضوع غيرها ، فإن أحداً ، وخصوصاً الرجال ، مهما يكن من طبعه وخلقه لا يمكن أن ينسحب منها دون أن يظفر بشيء . بل لقد نجحت أيضاً في إغراء بعض المُسنِّين ذوي المكانة المرموقة ، وذلك

باحترافها بأيام أعيادهم أو ميلادهم بعد أن تكون قد وقفت على أمرها . وعرفت بمهارة عجبية كيف تقنع كل إنسان - بما تشمله من عطف - بأنه الفضل عندها الأثير لديها ، وهذا ضعف كان أكبر الجماعة سنًا أولى الناس بأن يلوموا أنفسهم عليه .

ويبدو أن خطة لوسيانه هي أن تأسر قلوب الرجال البارزين الذين ينعمون بالمكانة أو الجاه أو الشهرة أو أية ميزة أخرى ، وأن تُذل الحكمة والفظنة وأن تجعل حتى أكثر الناس تحفظاً طوعاً أهوائها العاصفة . ولم يضع نصيب الشباب من هذا ؛ فلقد كان لكلّ حظه ويومه وساعته التي فيها تعرف كيف تغريه وتأسره . وبعد قليل لاحظت المهندس ؛ لكنه كان يحمل ، تحت شعره الجفاف الأسود ، سياء البراءة الكاملة ؛ فكان ينتحي جانباً ، وعليه مسحة البساطة والهدوء ؛ وكان يجيب عن كل الأسئلة بأجوبة موجزة حكيمة ، دون أن يبدو استعداداً للزيادة والاستزادة ، حتى إنها قررت في النهاية - عن حَسَنِّ يمازجه المكر - أن تجعل منه مرةً بطل اليوم وأن تدرجه من بين حاشيتها .

وهي لم تحضر كل هذا المتاع معها وبعد وصولها عبثاً : فإنها قد أرصدت أَهْبَتَهَا لتبديل زينتها باستمرار إلى غير نهاية . ففضلاً عن أنها كان يلذ لها أن تقوم كل يوم بثلاث زينات أو أربع وأن تظهر دائماً ، من الصباح حتى المساء ، بأثواب جديدة ، فإنها كانت تبدو في الأثناء في ثياب تنكرية على هيئة فلاحه أو امرأة صياد أو جنية أو بائنة أزهار ؛ ولم تستحش من التنكر في زى امرأة عجوز ، كما يتبدى وجهها الشاب أكثر نضارة تحت عُصابتها ؛ والواقع أنها كانت تمزج بين الخيال والواقع على نحو يجعل المرء يعتقد أنه على صلة قربي ومحالفة مع أنسدين نهر الزاله . بيد أنها كانت تستخدم هذه

التشكرات لمناظر المحاكاة ورقصاتها ، وفيها كانت تكشف عن قدرتها على التعبير عن مختلف الأشخاص ومحاكاتهم . وهي كانت قد صرّحت فارساً من حاشيتها على أن يصاحب حركاتها بيمض الألمان الضرورية يوقعها على البيان ذى المفاتيح . وكانت بضع كلمات قليلة تكتبها للتوافق ، وسرعان ما ينسجهان . وذات يوم أثناء استراحة في رقص وافر الحركة سئلت ، بإيعاز خفي منها -- لكن كأن الأمر مفاجأة -- أن تمثل منظراً من ذلك النوع ، فبدأ الاضطراب عليها والدهشة ، وعلى غير عاداتها اضطرت السائلين إلى الإلحاح . ولاح منها التردد ، تاركة الخيار للجماعة ، سائلة موضوعاً ، شأنها شأن كل مُصَنِّجٍ ؛ وأخيراً قام الفارس الذى كان يسايرها على البيان ، والذى ربما دبرت الأمر وإياه ، وبدأ يعزف لحناً جنازياً ودعاها إلى تمثيل أرتميسيه^(١) وهو دور أتقنته كل الإتيقان . ثم أبدت موافقتها ، وبمدغية قصيرة تبدت ، على ألحان اللحن الجنائزى الحزينة ونغماته المؤثرة ، فى ثياب الأرملة المسكينة ، بخطوات موزونة ، تحمل إجحاة بين ذراعها . ومن خلفها كانت تحمل لوحة سوداء كبيرة ، وفى مقلمة من الذهب قصعة من الطباشير جيدة الصنع .

(١) هى ملكة كاري (وهى مقاطعة فى جنوب أيونا وشرق وشمال البحر الإيكارى وغرب أفريقيا الصغرى فى آسيا الصغرى) ، وهى ابنة هيكتونوموس ملك كاري أو هليكارناسوس . تزوجت أخاها موسولس الصهير بوسامته وجاله . وقد بلغ من حبها لزوجها أنها -- حين مات -- شربت رماده فى فراها بعد أن أحرق بدنه ، وأقامت تمثالاً لذكراه عدّة من بين عجائب الدنيا السبع لما فيه من غمامة وجلالة . وأطلقت على هذا التمثال اسم «موسولوم» ، وهو اسم أطلق من بعد على كل ضريح فخيم . ودعت كل الأدباء فى عصرها وعينت جوائز ثمينة لمن يقول خير صرية فى زوجها ، ولم يُعجّد أى عزاء فى صرفها عن حزنها على زوجها ، فمات من القم بعد سنتين من وفاته .

ثم همست في أذن أحد أتباعها وعابديها بضع كلمات ، فانطلق لغوره يسأل المهندس ويلج عليه ، ويدفع به على نحو ما ، إلى داخل الحَلَقَة ، إلى حد أنه اضطر إلى أن يرسم ، بوصفه فناناً ، مقبرة موسول ، دون أن يقتصر على دور الدخيل ، بل لعب درواً جدياً في هذا التمثيل . وعلى الرغم مما بدا عليه من اضطراب (لأن ثوبه الضيق الحديث كان في مفارقة بارزة مع الأقمعة والكريب والهُدَّاب والشراريب وألوان الزينة والتيجان) ، فقد ظل مالكا لسلطان نفسه ، مما زاد في روعة المنظر . وبكل جِدٍّ ووقار وقف أمام اللوحة الكبرى التي كان يحملها خادمان ، ورسم بكل عناية ودقة مقبرة كانت أنسب أن تكون - والحق يقال - لملك لمباردي منها لحاكم كاريا ، لكن كان في نسبها من الجمال وفي أجزائها من دقة التدقيق ، وفي زخارفها من الحذق والبراعة ما جعلها تلذ الأعين حين بُدِئ فيها وتثير الإعجاب حين تمامها .

وطوال هذا الوقت كله لم يكذب يدير وجهه ناحية الملكة ، إذ وجَّه كل انتباهه إلى عمله ؛ وأخيراً حينما انحنى أمامها ، وأفهمها أنه أنفذ أوامرها ، قدَّمت هي إليه الإجابة ، مُبديّة رغبتها في أن تراها مرسومة في أعلى التمثال . فامتثل لكن عن أسف ، لأن هذه الإجابة لم تكن على انسجام مع مُجْمَله . وهكذا شعرت لوسيانة بأنها تخلصت من حَرَجِها . فهي لم تقصد مطلقاً إلى أن تطلب إليه رسماً دقيقاً : فلو أنه اقتصر على أن يرسم بصورة إجمالية وببعض ضربات من قلمه موضوعاً عليه مسحة تمثال ، فقد كان هذا أكثر ملائمة لمقاصدها وأغراضها . ولكن مسلك المهندس أوقع بها - على العكس من هذا - في حيرة لا مخرج منها . والواقع أنها على الرغم من أنها حاولت أن تدخل كثيراً من التنويع في آلامها ، وأوامرها وإرشاداتها ، وفي

الدأخ التي أسبغتها على العمل وهو يتقدم قليلا قليلا ؛ وعلى الرغم من أنها كانت أحيانا تحدث للفنان بعض الماكسات ، لكي تدخل في منظر معه ، فإنه قد أبدى من البرود ما جعلها مراراً على اللجوء إلى إيجانتها تضغطها على قلبها ، وترفع عينها إلى السماء . ولما كان المرء في مثل هذه المواقف يبالغ كثيراً ، انتهت بأن كانت أشبه بأرملة من أفسوس منها بملكة كاليا . واستطال النظر ؛ ولم يدر الفارس الصابر العازف على البيان ذي الفاتح إلى أية تنفيمات عليه أن ينتقل ؛ وحيد السماء حيناً رأى الإجابة واقفة على الهرم . ولما أرادت الملكة أن تمر عن شكراتها ، إنتقل — دون وعى — إلى نفمة فرحة ، إن أفقدت التمثيل طابعه ، فإنها أشاعت الطرب في الجماعة . وامتد السرور إلى لوسيانه لتهنئتها بحرارة على براعة محاسنها ، وإلى المهندس على رسمه الجميل الرشيق .

وتوجه إليه بالحديث خصوصاً خطيب لوسيانه .

قال له : « يؤسفني ألا يبقى هذا العمل طويلا . ألا فلتسمح لي على الأقل أن آمر بحمله إلى غرفتي ، وأنا أحادثك في شأنه » .

فأجاب المهندس : « إن كان هذا يسرك ، فسأطلعك على رسوم متقنة لأمثال هذه التماثيل ، التي ليس هذا إلا مجلداً سريعاً عارضاً لأحدها » .

ولم تكن أوتيلي غير بعيدة ، فتقدمت وقالت للمهندس :

— لا تنس أن تطلع السيد البارون على محافظ أوراقك ، وبهذه المناسبة أقول إنه مُحِب للفنون ولما هو قديم . وإنى لآمل أن تزيد معرفة كل منكم بالآخر .

وحضرت لوسيانه وسألت عما يتحدثون بشأنه . فقال البارون : عن مجموعة آثار ملكها السيد ، وسيتمفضل بإطلاعنا عليها يوماً ما .

— فليطلعنا عليها فوراً ؟ — هكذا صاحبت لوسيانة — أليس صحيحاً
يا سيدي أنك ستحضرها إلينا في الحال ؟ هكذا أضافت بصوت مُلّاطِف ،
وهي تمسك بيديه علامة صداقة .

فأجاب : يبدو لي أن هذا ليس وقته مطلقاً .

— لماذا ؟ — قالت لوسيانة بلهجة آمرة — أترفض أن تمتثل
لأوامر ملكتك ؟ » .

— لا تكن عنيداً ! هكذا قالت له أوتيلى بصوت خافت .

فغضى المهندس ، بعد أن أخى رأسه ، انحناء لم تكن رفضاً ولا قبولاً .
ولم يكذب يخرج حتى شرعت لوسيانة في المدو في البهو مع كلب سلوقي .
— آه ! كم أنا تَعِسَة ! هكذا قالت حينما اصطدمت بأمرها مصادفة .
لم أحضر معي نَسْئاسي ، فقد صرفوني عن هذا ؛ ولكنه كسل خَوَلْنَا
هو الذي حرمني من هذه اللذة . وعلى كل حال فإنني سأمر باستحضاره ،
وسيدهب واحد لتفقدته . آه لو كنت أستطيع أن أُرِيَه مجرد صورته ، إذاً
لكننت راضية . ولن أنسى أن أمر برسمه ، ولن يفارقني أبداً .

— لعل لدى ما يغريك ، هكذا قالت شرلوت ؛ فسأمر بإحضار مجلد
من المكتبة مليء بأغرب أشكال النسانيس .

فصاحت لوسيانة صيحة السرور ، وأحضر المجلد الكبير . ولذ لوسيانة
كثيراً منظر هذه الحيوانات الخيفة الشبيهة بالإنسان ، والتي زاد الفنان في
طابعها الإنساني . ووجدت لذة غريبة في أن تتفقد في كل من هذه الحيوانات
مشابهات لأشخاص معروفين .

— ألا يشبه هذا خالي ؟ — هكذا صاحبت بغير شفقة — ؛ وذلك
أولا يشبه م . ن تاجر الأزياء الجديدة ؟ وذلك الآخر ، وجه القسيس

س . . . ؟ وهذا ألا يحاكي . . . فلاناً . . . تماماً ؟ الواقع أن القردة هم غير المعقولين^(١) الحقيقيين ، ولا أفهم إمكان استبعادهم من المجتمعات الراقية . وهي قد قالت هذا وسط مجتمع راق ، ولم ير أحد في هذا ضيراً . فقد تملكهم عادة السماح لهواها بكثير من الأمور ، حتى إنهم كانوا يحتملون كل ما يصدر عنها من مخالف للآداب .

وخلال ذلك الوقت كانت أوتيلي تتحدث إلى الخِطِيب . وكانت تأمل أن يعود المهندس عما قليل ، وأن تخصّص مجموعته ، وهي جادة مليئة بالذوق الجماعية من كل هذه القردة . وفي تلك الأثناء كانت تحدث البارون ، متنقلة بين موضوعات شتى . لكن المهندس تأخر كثيراً ، وأخيراً حينما ظهر ضاع وسط الجماعة ، دون أن يُحْضِر شيئاً ، ودون أن يبدو عليه أنه يُطلب إليه شيء . فبقيت أوتيلي لحظة . . . أقول ساخطة مُحَنِّقة لا تحير جواباً ؟ إنها قد توجهت إليه بسؤالها بطريقة ودية ؛ وسرها أن تهيب للخِطِيب ساعة طيبة ، وقد كان يبدو عليه أنه غير راض عن مسلك لوسيان ، على الرغم من فرط حبه لها إلى غير حد .

وأخلت القردة مكانها لأكلة خفيفة . واستمرت ألعاب الجماعة والرقص نفسه وحديث خلا من كل لذة ، والسمي الباطل وراء لذة ذاهبة ، كل هذا استمر هذه المرة ، كما هي العادة ، إلى ما بعد منتصف الليل : لأن لوسيان

(١) « غير المعقولين » Incroyables هم طائفة من الشباب — إبان حكومة الإدارة في فرنسا ١٧٩٥ — ١٧٩٩ — الذين كانوا يظهرون كثيراً من النهم في ثيابهم وحرركاتهم وعاداتهم ولغتهم ، بحيث كانوا يحذفون منها حرف الراء . وقد جاءهم هذا اللقب من اللازمة التي كانت لهم ، وهي تكرار هذه العبارة : « هذا غير معقول ، بعرفي » C'est incroyable, ma parole, d'honneur ، يرددونها بكل مناسبة وغير مناسبة .

كانت قد اعتادت ألا تستطيع القيام ولا النوم .
ونحن لا نجد في هذه الفترة إلا قليلا من الأحداث المسجلة في
يوميات أوتيلي ؛ وفي مقابل هذا نرى كثيراً من الأمثال والحكم المتصلة
بالحياة أو المنترعة منها . لكن لما كان الجزء الأكبر منها لا يلوح أنه من
ثمار أفكارها الخاصة ، فمن المحتمل أن يكون أحدها قد أعارها مخطوطاً
اقتبست منه ما يلائمها . ومن السهل على المرء أن يتبين ، بواسطة الخيط
الأحمر ، بعض الأفكار الخاصة ، المنترعة من ينبوعها الباطن .

من يوميات أوتيلي

يلد لنا أن نمتد بأبصارنا إلى المستقبل ، لأننا نريد أن ندير على هوانا
— بالأماني الخفية — مختلف الأحوال التي تسبح في صدورنا .

من الصعب على المرء أن يجد نفسه في جماعة حافلة دون أن يصور
لنفسه أن الصدفة التي تجمع كل هؤلاء لا بد أيضاً أن تعيد إلينا أصدقاءنا .

عشنا يحاول المرء أن يعيش في خلوة ، فسرعان ما يصبح ، قبل أن
يعرف ، مديناً أو دائئاً .

لو قابلنا إنساناً يدين لنا بالشكران ، نخطر ببالنا في الحال هذه الفكرة .
لكن كم مرة يمكننا فيها أن نلتقي بهؤلاء الذين ندين لهم نحن به ، دون أن
يخطر هذا ببالنا !

الإفشاء بمكنون النفس إلى الآخرين ميل طبيعي فينا ؛ وتلقى ما يفضي
به إلينا على النحو الذي يقدم إلينا ، هو نوع من التهذيب .

لو عرف المرء مقدار إساءته فهم الآخرين لما أطال الحديث إليهم .

إذا كان الإنسان يبدّل كثيراً في أقوال الآخرين حين يرددها ، فما ذلك إلا لأنه لم يفهمها .

من يستأثر في المجلس طويلاً بالحديث دون أن يتعلق السامعين يُبْثِرُ النفور .

كل قول يُتَفَوَّه به يثير الفكرة المعارضة .

المعارضة واللق يجعل كلاهما الحديث ممجوجاً .

خير الجماعات جماعة يسود بين أعضائها التقدير الهادى .

لا شيء في الدنيا يُحَسِّن تصويرَ الناس بطبائع نفوسهم خيراً من الأشياء التي يسخرون منها .

المُضْحِك ينشأ عن تباين معنوى ، مُزج على نحو لا تجرح معه الحواس .

الشهوانى يضحك غالباً حيناً لا يكون ثمث للضحك بحال : فأى موضوع استشاره ، يكشف عن طيب مزاجه .

الرجل المريح يكاد يجد في كل شيء ما يُضْحِك ، أما العاقل فيكاد أن لا يجد شيئاً .

أنكروا على رجل مُسِن مغازلته الفتيات ، فأجاب : « هذه هي الوسيلة

الوحيدة لتجديد الشباب ، وذلك أمل الكل » .

يعرض المرء نفسه للعلام على نقائصه ، ويعرضها للعقاب ويتحمل بسببها كثيراً من الأشياء في صبر ؛ لكنه يقلق إذا وجب عليه التخلص منها .

بعض النقائص ضرورى لوجود الفرد . وكم يسوؤنا أن نرى أصدقاءنا القدماء ينخلصون من بعض الغرائب .

يقال عنمن يفعل على خلاف طبيعته وعاداته : « عما قليل سيموت » .

أية نقائص يجب علينا الاحتفاظ بها ، بل وتربيتها فينا وإعناؤها ؟ تلك التى تتعلق الآخرين أولى من أن تجرحهم .

ليست الوجدانات إلا فضائل أو رذائل غوى فيها .

إن وجداناتنا طيور من الفونقس^(١) حقيقية : إذا احترق القديم منها سرعان ما يولد الجديد من رماده .

الوجدانات الكبرى أمراض ميثوس منها : من يقدر على علاجها لا يفعل إلا أن يجعلها بالغة الخطورة .

الوجدان يهتاج ويهدأ بالاعتراف . ولعل الاعتدال لا يُطلب فى شيء قدر ما يُطلب فى الثقة والتحفظ فى صلاتنا بمن نحبهم .

(١) الفونقس أو الفنفس أو عنقاء مُغرِب هو طائر خرافى يعيش دهرأطويلا فى صحراء العرب على ماورد فى الأساطير ؛ ويحرق نفسه فى شعلة نار ، ثم يُبيت من الرماد من جديد .

الفصل الخامس

على هذا النحو كانت لوسيانة تملك على أصدقائها أنفاسهم دائماً ، فكانوا يحبون في دوامة من اللذات . وازدادت حاشيتها يوماً بعد يوم ، إما لأن حميتها كانت تستثير البعض وتغريه ، أو لأنها كانت تعرف كيف تجتذب البعض الآخر بما فيها من لطف وأريحية نفس . لقد كانت ظُهرة بؤوحاً بما في صدرها إلى أعلى درجة . ولما كان حنان عمتها وخطيبها قد أفرغ عليها آلاف الأشياء الجميلة الثمينة دفعة واحدة ، فقد لاحت كأنها لا تملك لنفسها شيئاً ، ولا تعرف قيمة الثروات التي تكسدت من حولها . فلم تتردد لحظة واحدة في أن تتنازل عن شال ثمين ، لتضعه على كتفي سيدة بدت في نظرها متواضعة اللبس جداً إذا ما قورنت بالأخريات . وكانت تقوم بهذه الأشياء ببراعة ومرح جملاً أحداً لا يستطيع أن يرفض هداياها . وكان أحد أتباعها يحمل دائماً كيساً ، ومهمته أن يستلم ، في الأماكن التي يغدون إليها ، عن الأشخاص المسنين والعَجَزة ، لتخفيف آلامهم ، مؤقتاً على الأقل . وعن هذا الطريق نالت في المنطقة كلها شهرة بالإحسان كانت أحياناً مصدر مضايقة لها ، لأنها اجتذبت إليها جمعاً ثقيلاً من المعوزين والمحتمجين .

لكن لم يساهم شيء في زيادة شهرتها أكثر من سلوكها المُفْرِط نحو شاب بائس كان يتجنب المجتمع ، لأنه مع جماله وحسن تكوينه قد فقد يده اليمنى في معركة توجته بالمجد والشرف . فأثار هذا التشويه في نفسه يأساً بلغ حداً جعله يتألم من كون كل شخص جديد يعرفه يتساءل دائماً عن سر شقائه ، فكان يفضل الاستئثار عن عيون الناس ، مُسَلِّماً نفسه إلى

القراءة والدرس ، قاطعاً بهذا كل صلة تربط بينه وبين المجتمع .
 بيد أن هذا الشاب لم يبق مجهولاً لدى لوسيانة . وكان لا بد له أن يظهر أولاً في دائرة صغيرة ، ثم في أكبر منها ، وأخيراً في أكبر المجتمعات .
 وهي قد استخدمت معه من التلطف ما لم تستخدم مثله مع أحد من قبل ، فاستطاعت بفضل اجتياها إياه أن يجد نوعاً من العذوبة والراحة في عاهته .
 لقد كانت على المائدة تجلسه إلى جوارها ، وتقطع له الماء كل حتى إنه لم يكن في حاجة إلى استخدام أداة غير الشوكة . وإن فصل بينها وبينه في الجلوس أناس أكبر سناً أو أعلى مرتبة كانت تبسط أيضاً عنايتها إليه على طول المائدة ، وكان على احتفاء الخدم أن يعوض عما لا تستطيع فعله لبُعدها . وانتهت بأن شجعت على الكتابة بيده اليسرى ، وكان عليه أن يوجه كل هذه المحاولات إليها : وهكذا كانت — عن قريب أو عن بعيد — على اتصال دائم به . فاستحال الشاب خلقاً آخر ؛ ومن ذلك الحين دخل فعلاً في حياة جديدة .

وقد يتبادر إلى الظن أن هذا النحو من السلوك لا بد أن يُسَخِّط الخِطِّيب ، لكن ما حدث كان على العكس . فقد وجد لوسيانة خليقة بكل إطرار على القيام بكل هذه الجهود . وزاد من طمأنينته بمقدار ما كان يعرف من مزاجها وميلها إلى إبعاد كل ما قد يبدو له مصدراً لأقل خطر — ميلاً لا يخلو من المبالغة . لقد كانت تحب أن تكون في ألفة ومودة مع الجميع ، حسبما تهواه ؛ وكان الكل معرضاً لأن يهاجم أو يضرب أو أن يشاكس على أي نحو من جانب لوسيانة ، لكن لم يكن لأحد أن يسمح لنفسه بأن يرد عليها بالمثل ؛ بل لم يكن أحد يجزؤ على أن يلصقها ، ولا أن يستبيح لنفسه معها أقل ما تستبيحه هي لنفسها معه . وهكذا وضعت

الجميع في أضيق حدود التواضع ، تلك الحدود التي لاح أنها هي التي كانت دائماً تخرج عنها .

وعلى العموم ، قد كان يخيّل إلى المرء أنها جعلت لنفسها كقاعدة أن تتعرض هي الأخرى للوم والمدح ، والرضا عنها والغضب . لأنها إذا كانت تشاقُّ الناس بذكرها لمعائبهم ، دون أن تُعفي من هذا أحداً ، فإنها لم تكن تزور أحداً في الجيرة ، ولم تكن تلقى في أى مكان حفاوة بها وبمحاشيتها في القصور ومنازل الريف ، إلا وتكشف عند عودتها من مقدار استعدادها — بأقوالها الخالية من كل اتران — لرؤية جميع الصلات بين الناس من جانبها المُضحك . فهو لاء ثلاثة أخوة جاوزوا سن الزواج لا شئ . إلا لأن كلاً منهم رفض — من باب الأدب ليس إلا — أن يتزوج قبل أخيه ؛ وتلك فتاة صغيرة قد اقترنت بزواج عجوز يفسن ؛ وفي مكان آخر حدث العكس : فقد اقترن شاب صريح بهير كغولة ثقيلة ؛ وفي بيت ما لا يخطو المرء خطوة حتى يمشي بطفل ؛ وفي آخر لا تكاد نجد دياراً ، على الرغم من وجود عدد وافر من الناس ، لأن الأطفال يُمسوزونه ؛ وهؤلاء الأزواج ليس لهم إلا أن يُدْفَنوا بسرعة ، كما يُرى إنسان في البيت يضحك ، إذ ليس لهم ورثة مباشرين ؛ وهذان الزوجان الآخران يحسن بهما السفر والتجوال ، لأن البيت لا يسير جيداً . ولم يقتصر حديثها على الأشخاص ، بل امتد أيضاً إلى الأشياء والأبنية والأثاث والأواني ؛ وكانت البُسط والسجاجيد خصوصاً هي التي تثير تأملاتها الساخرة ، ابتداءً من أنعم السجاد القديم حتى أحدث الورق ، ومن أجل صور الأسرة حتى أشفه النقوش الجديدة ، كل هذا كانت تمرقه ، بل تحطمه بسخريتها القاتلة ، إلى حد أن

المرء ليدھش متسائلا : هل بقى بعد من سخریتھا شیء فى كل المنطقة المحیطة على بعد خمسة أميال ؟ !

ومن العدل أن یقال إنه ربما لم یكن فى هذا المیل إلى التحقیر أدنى خسة وشر ، فإن الحاجة إلى الضحك یمكن كثيراً أن تستثیره ؛ إلا أن لوسیانه قد كشفت فى علاقاتھا مع أوتیل عن شراسة حقا . فنشاط هذه الفتاة المھادى المتصل الذى كان موضعاً للثناء والتنويه من الجميع لم یثر فى نفس بنت خالتها إلا الاحتقار ؛ ولما تحدث القوم عن العناية التى توجھھا أوتیل إلى البساتین والمشاہد بدأت لوسیانه بالسخرية منها وتظاهرت بالدهشة من عدم رؤیتھا أزهاراً ولا ثماراً (ناسية أن الوقت كان منتصف الشتاء) ؛ ثم أمرت بإحضار مقدار وافر من الخضرة والأغصان التى تنمو فیھا أصغر البراعم ، وأسرفت فى استهلاكھا لتزین الأبهاء والمائدة كل يوم ، إلى درجة أن البستانی وأوتیل قد حزنا أبلغ الحزن لرؤية آمالھا فى السنة الماضیة وربما لوقت طويل قد تبددت .

وقلیلا ما تركت لوسیانه أوتیل تتفرغ للأعمال المنزلیة التى كانت تلذھا إلى حد بعيد ، بل كانت مضطرة إلى حضور أدوار اللذات ، وسباق المركبات الزاحفة ، وشهود الرقص الذى كان یقام فى الجيرة : فهى تستطيع أن تتحمل الثلج والبرد والایالى العاصفة ، مادام الكثیرون من الناس لم یموتوا منها . غیر أن الفتاة الرقیقة (أوتیل) أصابتها من جراء هذا آلام قاسية ، دون أن تكسب لوسیانه من وراء هذا شیئا : فالواقع أنه على الرغم من أن أوتیل كانت تلبس ثیاباً بالغة البساطة ، فإنھا كانت أجمل الجميع ، على الأقل فى نظر الرجال . فجاذبیته العذبة قد جمعت الكل من حولھا ، سواء أوجدت فى هذه الأبهام الفسیحة فى المكان الأول أم الآخر منها .

بل إن الحِطِّيب نفسه كان كثيراً ما يتحدث إليها كلما سأله النصيحة والمعونة في مسألة تشغله .

وهو قد عقد مع المهندس معارفه ووثقى فقد فحص مجموعته من الأشياء النادرة، وتحدث إليه طويلاً في تاريخ الفن ؛ وفي مناسبات أخرى ، وعلى الأخص عند زيارة الكابلية ، عرف كيف يقدر مواهبه والبارزون كان شاباً وكان غنياً ، وكان يهوى جمع التحف ويريد البناء ، وكان ذوقه رُفَهاً ومعارفه قليلة الغُور ؛ فُخِّيلَ إليه أنه وجد في المهندس الرجل الذي يستطيع معه أن يحقق أكثر من غرض . وهو قد تحدث من قبل مع رُخْطِيَّاه عن هذا المشروع ، فأيدته بحماسة ، وأعجبت أَيْماً إعجاب بهذا الاقتراح ، ولكن لعل هذا كان بالأحرى بدافع رغبته في أن تسلب أوتيل هذا الشاب الذي خيَّلَ إليها أنها لاحظت لديه ميلاً إلى ابنة خالتها ، أولى من أن يكون من أجل الانتفاع بمواهب هذا الفنان في تحقيق مقاصدها . والواقع أنه على الرغم من أنه ظهر مليئاً بالنشاط في الأعياد التي اقترحتها لوسيانه ، وأنه أبدى كثيراً من الجهود والذكاء في تلك أو تلك من الاستعدادات ، كانت تمتد هي في داخل نفسها أنها تعرف الأشياء خيراً منه ؛ ولما كانت اختراعاتها عادية ، فإن مهارة خادم غرفة ذكي كانت كافية لتنفيذها بمقدار ما تكفي مهارة أكبر فنان . فحياها لم يكن يستطيع أن يذهب إلى أبعد من مذبح تقوم عليه القرايين ، ومن تتويج يتم إما على رأس من الجبس أو رأس حية ، حينما تريد أن تتوجه بتحيةة عيد إلى أحد الناس ، إما بمناسبة عيد زواجه أو عيد ميلاده .

واستطاعت أوتيل أن تدلى إلى الحِطِّيب بأدق المعلومات عن الصلات القائمة بين المهندس ومضيفيه . وهي كانت تعلم أن شرلوت قد عنيت من قبل أن تهيب له مركزاً : لأنه لو لم تأت هذه الجماعة ، لكان الشاب قد

ارتحل في الحال بعد إتمام السكابة ، لأن كل الأبنية كان مقدراً لها أن تتوقف إبان الشتاء . فكان من المرموق إليه إذاً أن يستخدم هذا الفنان الصَّنَاع ويشجع بواسطة حامٍ جديد

ولقد كانت العلاقات بين أوتيلي وبين المهندس على أتم ما يكون من البراءة . فجلس هذا الشاب المُجِدِّ اللطيف قد شاق أوتيلي ومسرّها ، كما لو كانت في صحبة أخٍ أكبر . وعواطفها نحوه لم تذهب إلى أبعد من العطف الهادئ الساكن القليل النور الذي توحى به القرابة . فقلبها لم يكن فيه مكان لأحد بعد ، لأنه كان عامراً كله بحب إدورد ، والله وحده ، العالم بكل شيء النافذ في كل مكان ، هو الذي كان يمكن أن يشاركه فيه .

ومع هذا فإنه كلما تقدم الشتاء وازدادت العواصف وتغطت الطرقات ، تبدى من الفتنة قضاءً هذا الفصل المدهم في مثل هذه الصُّحبة البديمة . ثم إنه حدث بعد فترات قصيرة أن الزيارات قد غمرت القصر من حين إلى حين . فجاء الضباط أفواجاً من الحاميات البعيدة ؛ ومن كان منهم مهذب الطباع كان يلقي خيراً استقبالا ؛ أما الآخرون فكانوا عبثاً على الجماعة . ولم يخل الزائرين أيضاً من أشخاص مدنيين . وأخيراً رؤى الكونت والبارونة ذات يوم قادمين عليهم على حين غيرة .

ولاح أن حضورهما قد أوجد نوعاً من البلاط الحقيقي . فالناس الممتازون بمكانتهم وأدبهم أحاطوا بالكونت ؛ والسيدات قد عاملن البارونة بما يليق بمقامها . ولم يطل الوقت على الدهشة من رؤيتهم معاً وسعيدين : فقد عرف القوم أن زوج الكونت قد توفيت ، وأنه سيمقد أواصر جديدة ، طالما تسمح التقاليد والعرف بذلك . وتذكرت أوتيلي زيارتهما الأولى وكل كلمة قيلت عن الزواج والطلاق ، والارتباط والانفصال ، والرجاء والانتظار

والزهد والحرمات . وهما هذان الشخصان اللذان لم يكن باب الرجاء أمامهما مفتوحاً قد صار الآن أمامها بلسان السعادة المأمولة ، فلم تهالك أن زفرت من قلبها زفرة حارة .

ولم تكذ لو سيانه تعلم أن الكونت يعشق الموسيقى حتى نظمت حفلة موسيقية واقترحت أن تغنى فيها بمصاحبة قيثارة ، فأجيبته إلى طلبها . وهي كانت تغزف عليها بطريقة لا بأس بها ، وكان صوتها مقبولا : أما عن الكلمات فإنها لم تكن تفهم إلا بدرجة قليلة ، هي تلك المعتادة حينما تغنى الألمانية جميلةً بمسيرة قيثارة . ومع هذا فقد كان الجميع يؤكدون أنها غنّت بكثير من التعبير والتأثير . وكان في وسعها أن تكون راضية عن التصفيفات الصاخبة التي ظفرت بها ؛ لكنها أساءت التقدير هذه المرة إلى درجة غريبة . فقد كان في الجماعة شاعر أمّلت أن تأسره هو خصوصاً ، لأنها كانت تود منه أن يوجه إليها بعض قصائد من شعره . ورغبةً في تحقيق هذا الأمل لم تفنّ طوال تلك الليلة تقريباً إلا من أغانيه . وكان كثيره من الحاضرين مهذباً رقيقاً معها ، لكنها أمّلت في أكثر من هذا ، ونبهته مراراً إلى غايتها هذه ، دون أن تستطيع الظفر منه بأكثر مما فعل . وأخيراً وقد غلبها القلق وجهت إليه واحداً من محبّسيها كيما يعرف رأيه ، وعما إذا لم يكن قد أخذ بسماع أغانيه الجيدة تُغنى على هذا النحو الممتاز . « أغاني ؟ هكذا قال مدهوشاً . اسمح لي ، سيدي ، أن أقول إنني لم أسمع إلا حروفاً صائتة ، بل وهذه أيضاً لم أسمعها كلها . لكن لا خير . فن واجبي أن أشهد بشكراني على مثل هذه النية الطيبة » . فالتزم صاحبها الصمت ، واحتفظ بما سمع لنفسه ؛ وحاول الشاعر أن يخرج من المأزق ببعض من التحيات الجوفاء . غير أن لو سيانه أوضحت له رغبتها في أن تظفر

منه أيضا ببعض الأسماء المنظومة من أجلها . ولولا ما سيكون في الأمر من إخلال بالشرف ، لكانت قد قَدِّمَت إليه حروف الهجاء ليؤلف منها كما يهوى أنشودة مديح فيها على أية نعمة كانت . لكن لم يقدِّر لها أن تخرج من هذه المغامرة دون أن تعاني بعض المهانة : فقد عرفت بعد قليل أن الشاعر قد نظم على لحن محبوب من أوتيلي أشعاراً عذبة جاوزت حد الجمالة . وحاولت لوسيانة الإلقاء ، شأنها شأن لداتها من الأشخاص الذين يخلطون دائماً بين ما هو نافع لهم وما هو ضارّ . والحق أن ذاكرتها كانت قوية ، لكن إلقاءها كان خالياً من الفهم ، وفيه اندفاع من غير حماسة ولا وجدان . فألقت أغاني وأقاصيص وقطعاً أخرى صالحة للإلقاء . وهي من ناحية أخرى كانت قد اتخذت هذه العادة البائسة ، عادة مصاحبة الإلقاء بحركات وإشارات ، وعن هذا الطريق كان النوع الملتحمي والفنائي مخلوطاً بينه وبين النوع المسرحي بطريقة فاسدة بدلاً من أن يوصل ما بينه وبينهما .

واستطاع الكونت بعد قليل بما له من ذكاء نافذ أن يتبين حال الجماعة : ميولها وعواطفها وأذواقها ؛ وفكر في أن يشير على لوسيانة بنوع جديد من التمثيل يصلح لها فيما يبدو ، وهي فكرة لسنا ندرى أخطأ فيها أم أصاب .

قال : « أرى هنا أشخاصاً عديدين حَسَنِي التكوين ، ومنهم كثيرون يعرفون من غير شك كيف يقلدون الحركات والمواقف المؤثرة المصوّرة . ألم تحاولي يوماً أن تمثلي اللوحات المشهورة ؟ إن هذه المحاكاة تقتضي فعلاً بعضاً من الإعدادات الشاقّة ، لكن لها سحرًا لا يوصف » . وسرعان ما فطنت لوسيانة إلى أنها في هذا النوع ستجد نفسها في

مكانها الطبيعي . فإن لها في قوامها الفارع وقسماتها الجميلة ومحياها المنتظم المعبر معاً وغدائرها السمراء ، وجيدها الأنيق — إن لها من هذا كله ما يجعلها قد خلقت لتكون نموذجاً ولو عرفت إلى جانب هذا أنها أجمل في السكون منها في الحركة ، لأنها في هذه الحالة الأخيرة كانت تصدر عنها حركات يعوزها الضبط والرشاقة ، لكانت قد انصرفت بكل نفسها إلى هذا النوع من النحت الطبيعي .

فتفقد القوم رسوم لوحات مشهورة . فاختراروا أولاً لوحة بليساريوس افان ديك . فكان لابد من رجل فارع كامل التكوين متقدم في السن لتمثيل ذلك القائد الأعلى وهو جالس ؛ وكان على المهندس أن يمثل المحارب الواقف أمامه مع تعبير يدل على الحزن والعطف ، والواقع أن المهندس كان يشبهه بعض الشيء . ولوسيان من ناحيتها قد اختارت — في شيء من التواضع — المرأة الشابة المائلة في أعماق اللوحة وهي تمدُّ في راحتها المنبسطة الصدقة الوفيرة التي تخرجها من صندوق نقودها ، بينما تلوح امرأة عجوز كأنها تصرفها عن فعلتها هذه بحجة أنها ضافية المعروف جزيلة العطاء . ولم ينسوا أيضاً تمثيل امرأة أخرى تتصدق على هذا الشيخ العجوز (بليساريوس) .

واستفرغ القومُ وسعهم بكل جدير في هذه اللوحة وغيرها أيضاً . وأسدى الكونت بعض النصائح الخاصة بالترتيبات اللازمة إلى المهندس الذي سرعان ما أقام مسرحاً لهذا الغرض وبذل العناية اللازمة للاضائة . وكان العمل قائماً على قدم وساق حينما تبين لهم أن مثل هذا العمل يقتضى نفقات باهظة وأنه يعوزهم من أجله الكثير من الأشياء الضرورية التي لا توجد في الريف في الشتاء . غير أن لوسيان عملت على تذليل كل صعوبة

بأن قطعت كل ما في خزانة ملابسها تقريباً قطعاً قطعاً ، من أجل إيجاد الملابس المختلفة التي رسمها الفنانون على ما يتفق وأهواءهم .
وأخيراً عُرض المنظر ذات مساء أمام جمع حافل أَرْضاء . وشحذ من الانتظار تقديم موسيقى حاد . وافتتح بليساريوس المنظر . وكانت المواقف من الدقة ، والألوان من حسن التوزيع ، والإضاءة من براعة التوجيه إلى حد جعل الحاضرين يَخَيِّل إليهم أنهم أُسْرَى بهم إلى عالم آخر . اللهم إلا أن حضور الواقع بدلا من الظاهر قد أحدث أثراً أليماً لا يدري المرءُ كنهه .

وأسدلت الستارة ؛ لكنهما رُفِعَت أكثر من مرة وفقاً لطلب الحاضرين . وتحلل التمثيل فاصل موسيقى سر الجماعة التي أُرِيد مفاجأتها بلوحة من طراز أعلى هي لوحة پوسان المشهورة : إِسْتَر أمام أحشوريش . وفي هذه المرة كان دور لوسيانه بارزا . فكشفت عن كل فتنها في شخص المُنْعَمِ عليها ؛ وأحسنَت في اختيار النسوة اللائي سيُحطَن بها ويُمكن ، فاخترتهن فتيات رائعات الجمال فائنات التكوين ، لكن لم تكن منهن واحدة يمكن أن تقارن على أى وجه بها . واستُبعدت أوتيل من هذه اللوحة كما استُبعدت من غيرها . ولتمثيل الملك ، وهو يشبه چوپتر ، وضعت لوسيانه على العرش الذهبي أقوى الحاضرين وأجلهم إلى حد أن هذه اللوحة قد بلغت من الكمال مرتبة لا تُداني

واختيرت لوحة التأنيب الأبوى لِرُبْرُج كلوحة ثالثة : ومن منا لا يعرف الرسم الممتاز الذي عمله رسامنا قِلَه لهذه اللوحة ؟ والد ، فارس نبيل جالس ساقاً على ساق ، ويلوح أنه يوجه كلمات قاسية إلى ابنته الواقفة أمامه ؛ وهي فتاة ذات قوام بديع ، قد تدرت بفُستان من السَّتان الأبيض الواسع

الثنايا ، ولا تُرى إلا من الخلف ، ومع هذا فإن وِصَتها تؤذن بأنها تغالب نفسها . لكن التأنيب ليس حاداً ولا مُهيناً : كما يبدو من وجه الوالد وحركاته . أما الأم فيلوح أنها تخفى شيئاً من الحيرة والاضطراب ، لأنها تتأمل في زجاجة خمر كانت بسبيل تجرعها .

وفي هذه الفرصة كان لابد للوسيانة أن تظهر في كل بهائها : ففدائها المصفوفة ، وشكل رأسها وجيدها وأكتافها كانت كلها ذات جمال لا يبلغ مداه التعبير ، وقوامها الذي كانت ثيابها المصرية ذات الاتجاه القديم تخفى منه الكثير ، هذا القوام الرشيق الفارع الخفيف كان يرسم في الثياب ذات الطراز العتيق على خير نحو ؛ وعنى المهندس من ناحيته بترتيب ثنايا السَّتان الأبيض الواسعة بأناقة طبيعية ، إلى حد أن هذه المحاكاة الحية كانت من غير شك أسى من الأصل مما أحدث سحراً في الجميع على السواء . حتى إن القوم لم يفتروا عن طلب إعادة اللوحة ؛ وبلغت الرغبة — وهي رغبة كلها طبيعية — في رؤية مثل هذه الشخصية الجميلة حداً جعل أحد المدَّلهَّين يصيح في قلبه : « أديرى ، إن سمحت ! » وهي عبارة كثيراً ما تكتب في أسفل الصفحة . ولقيت هذه الصيحة موافقة من الجميع . لكن المثاليين كانوا من العلم بمظمة ما فعلوه ، ومن صدق النفوذ إلى معنى هذه اللوحة إلى حد الرضوخ لهذه الصيحة العامة . وبقيت الفتاة — في موقف اضطراب — ساكنة ، دون أن تُرى النَّظارة تميز وجهها ؛ وظل الوالد جالساً ، في موقف من يقوم بالتأنيب ، ولم ترفع الأم بصرها ولا أنفها إلى مافوق الزجاج الشفافة التي تظاهرت بالشرب منها دون أن ينقص ما فيها من خمر .

وكم بطول بنا الكلام كثيراً لو تحدثنا أيضاً عن التمثيليات الصغيرة التي اختيرت لها مناظر نُزِّلَ وأسواق هولندية !

وارتحل الكونت والبارونة ، واعدن بالعودة في الأسابيع الأولى من زواجهما القريب . وأمّكت شرلوت ، بعد شهرين من التعب ، في أن تتخلص من بقية الجماعة . وقد كانت على ثقة بأن ابنتها ستكون سعيدة ، حينما تهدأ اللشوة التي أثارها في نفسها كوشها خِطِيبِي وفتاة ، لأن الزوج يعتقد في نفسه أنه أسعد الناس بهذا الزواج . فإلى جانب اليسار الوفير والطبع المعتدل ، بدا أنه يُزهِى كثيراً بامتلاكه زوجاً لا بد أن تنال رضا الجميع . ولقد كان من خواص طبعه أنه كان يعزو كل شيء إليها ، وإلى نفسه عن طريقها هي وحدها ، حتى إنه كان يألم إذا قدِمَ قادم ولم يوجه كل انتباهه إليها أولاً ، أو إذا جذبته مناقب البارون — كما يحدث غالباً مع الرجال المتقدمين في السن — فسمى لتوطيد الصلة بينه وبين البارون دون أن يحفل كثيراً بخِطِيباه . وتم الاتفاق مع المهندس على أن يلحق بالبارون في السنة الجديدة ويقضى معه الكرنفال في المدينة ، حيث لوسيانه تأمل في المتعة الكبرى باللوحات المتقنة الترتيب ، وبكثير من الأشياء الأخرى ؛ خصوصاً أن عمته وخِطِيبها لاح أنهما لا يحفلان بأية نفقات تقتضيها لذائذها .

وكان لا بد إذاً من الافتراق ، غير أن هذا لا يتيسر إتمامه بالطريقة العادية . وتعال صرخات السخرية الموجهة ضد شرلوت ، لأن الزاد الذي ادخرته للشتاء كان — فيما قيل — قد أوشك على النفاد . هنالك صاح السيد الذي مثّل بليساريوس وكان واسع الثراء ، صاح في شيء من الرعونة وقد جذبته مفاتن لوسيانه فكان يحتفل لها منذ وقت طويل — : « هيه ، لنعمل على الطريقة البولندية ! نعالوا فكلوُنِي بدوري ، وهكذا إلى تمام الحلقة ! »

— ليكن كما تقول ! » بهذا أجابته لوسيانه .

وفي الفد حُزِمَت الأمتعة وانقض الرُّكْب على ضيعة أخرى ، وجدوا فيها المكان فسيحاً ، لكن اللذائذ والنظام لم يكونا على ما يرام ، مما أحدث بعض المضايقات التي سَرَّت لوسيانه في البدء كثيراً . وصارت الحياة من يوم إلى يوم أكثر جنوناً وأعلى صَخَباً . ونظمت رحلات قَنَص تجميى في الثلج العميق وكل ما يمكن تخيله من صعب عزيز المنال . ولم يجروء السيدات على الهرب منها شأنهن شأن الرجال . وعلى هذا النحو ظلوا بين قَنَص وركوب على الجياد وجرى بالمرزقات وصَخَب ورحلات ، وتنقل من قصر إلى قصر حتى بلغوا مقر الإمارة . هنالك أعطت أنباءُ مسرات القصر والمدينة للنفوس اتجاهات مختلفة ، وجَرَّت لوسيانه — برغبتها — هي ومن معها إلى دَوَّامة جديدة ، سبقها إليها عماتها .

من يوميات أوتيلي

الناس يُؤَخَذون في الدنيا بما يظهرون عليه ، لكن لا بد من الظهور على نحوه ما . فاحتمال الثَّقَلَاء أيسر من احتمال التافهين .

يمكن فرض كل شيء على المجتمع اللهم إلا ما له عواقب .

لا نحسن العلم بالناس إن أتوا هم إلينا ؛ بل لا بد أن نذهب نحن إليهم كيما نعلم حقيقتهم .

أرى طبيعياً أن نجد كثيراً مما يلام عليه لدى هؤلاء الذين يأتون لزيارتنا ، وأن نحكم عليهم بقليل من الرحمة حاملوا يرحلون : لأن لنا الحق ، على نحو ما ، في أن نقيسهم بمقياسنا . بل إن العادلين الحكماء من الناس يشق عليهم هم أنفسهم أن يمتنعوا ، في مثل هذه الحالة ، عن التقدير الصارم والنقد القاسي .

أما إذا كان الأمر على العكس فكنا نحن الزائرين لهم ، ورأيانهم في محيطهم وعاداتهم ومركزهم الضروري الذي لا مفر لهم منه ، وشاهدنا كيف يعملون في هذا الوسط أو يتكيفون وإياه ، فإنه يكون من الجنون والخُرقُ وسوء النية أن نجد مضحكا ما يجب أن يبدو محترماً من أكثر من وجه .

ما نطلق عليه اسم السلوك وحسن المعاملة يجب أن يجعلنا نظفر بما لا نستطيع الظفر به إلا بالقوة ، أو حتى لا نقوى على الحصول عليه بها .
مجالسة النساء مصدر حسن المعاملة وسراوة الأخلاق .

كيف يمكن قيام الخلق والعبقرية الخاصة بالإنسان إلى جانب إجادة فن السلوك مع الناس في الحياة ؟!

يجب أن يكون الخلق قد سما أولاً بفضل فن السلوك . كل الناس يحبون ما يميز بشرط ألا يكون ذلك مُضْجِراً ثقيلاً .

لا أحد عنده من الميزان في الحياة عامة ، وفي العلاقات الاجتماعية أكثر مما للرجل العسكري المصقول .

أما العسكريون الأجلاف فيظلون على الأقل في نطاق طبعهم ، وكما أنه توجد نزعة إلى الخير دائماً تقريباً وراء القوة ، فيمكن المرة التفاهم معهم أبصاً ، حينما تقتضى الحال .

لا أحد أكتشف ظلاً من ثقيل مدني (غير عسكري) ، فالفروض الرقة فيه ، لأنه لا يعمل في عمل خشن غليظ .

حين نعيش في وسط أشخاص مرهقي الإحساس بآداب اللياقة ، نتألم لهم إذا حدث ما يخالفها . وهذا هو ما أشعر به نحو شرلوت ومن أجلها ، حينما يهتز إنسان فوق كرسيه أمامها ، لأنها تتألم من هذا المآل يبلغ حد الموت .

لو عرف الإنسان أن النساء يفقدن في الحال الرغبة في النظر إليه والتحدث معه إذا دخل على مجلس أنس وعلى أنفه عوينات ، لما فعل هذا .
المؤانسة التي تقوم مقام الاحترام هي دائماً مدعاة للضحك والسخرية .
وما من إنسان سعيده لبس قبعته حالاً ينتهي من تحية الجماعة ، لو أنه عرف كيف أن هذا يبدو مضحكاً .

ليس ثمت شاهد خارجي على الأدب لا يتضمن معنى أخلاقياً عميقاً .
والترتبية الحقة تنحصر في إظهار الشاهد والمعنى معاً .
المعاملات مرآة يطبع فيها كُـلُّ صورته .

للقلب آداب على صلة وثقى بالعطف . ومن هذا الينبوع تفيض أيسر آداب المعاملات .

الخضوع الإرادي أجمل حال ، وكيف يتيسر دون عطف ؟
لا نكون أكثر بُعْداً عن الغاية من رغباتنا إلا في اللحظة التي نخيل إلينا فيها أننا امتلكنها الهدف المرغوب .

لا إنسان أسوأ عبودية من ذلك الذي يعتقد أن نفسه أنه حر دون أن يكونه .

يكفى المرء أن يصرح بأنه حر كما يشعر في الحال بأنه خاضع : أما إذا
تجاسر المرء على التصريح بأنه خاضع فإنه لا يشعر بأنه حر .

خير وسيلة للنجاة ضد المناقب الكبرى لشخص آخر هي العطف
والحنان .

ما أتمس حال رجل ممتاز يتظاهر له الحق والجهال !

يقال إن المرء لا يكون بطلا في نظر خادم غرفته . والعملة الوحيدة في
هذا هي أن البطل لا يمكن أن يقدّره إلا البطل . لكن من المحتمل أن
يعرف خادم الغرفة كيف يقدّر مَنْ على شاكلته .

أكبر عزاء للرّضاة والتفاهة أن العبقرى ليس خالداً .

عظاء الناس ينتسبون إلى عصرهم في ناحية من نواحي الضعف .

الناس يُصوّرون عادةً أخطر مما هم بالفعل .

الحقّي والعقلاء كلاهما غير ضار : فالخطر أكبر مع أنصاف الحقّي
وأنصاف العقلاء .

الفنون أسلم طريق للأزواء عن الناس والدنيا ، وهي في نفس الآن
أسلم طريق للاتحاد وإيّاهم .

نحن في حاجة إلى الفنان حتى في أوج السعادة وفي هاوية الشقاء
على السواء .

الفن يعني بما هو صعب وجيد .

من رؤية الصعب يُنفَّذ يُسرّ ، تأتي فكرة المستحيل .

تزداد الصعوبات كلما اقتربنا من الهدف — البَذْر أَقْلُ مشقة من الحصاد .

الفصل السادس

كانت الزيارة التي تلقّتها شرلوت مصدراً لكثير من المضايقات ، لكنها تعوّضت منها بما تيسر لها من الحكم على ابنها بكل دقة ، من حيث مقدار العون الذي ظفرت به من معرفة الدنيا والحياة العالية . ولم تكن هذه أول مرة تلتقي فيها بمثل هذا الخلق الفريد ، لكنها لم تره واضحاً كما كان في هذه المرة . بيد أن التجربة علمتها أن الحياة ومختلف الأحداث والروابط الأسرية يمكن أن تُنسى عند هؤلاء الأشخاص نضوجاً فائتاً محبوباً : فتقلّ الأثرة ، ويتخذ النشاطُ الصاخبُ أجهاها إيجابياً . وكانت شرلوت على استعدادها لأن ترى بعين الرضا ما عسى من الأشياء يحدث أراً بغيضاً في الآخرين ، شأنها شأن الأهل الذين يليق بهم دائماً أن يأملوا ، بينما القُرباء لا يريدون إلا التمتع ، أو على الأقل لا يرغبون أن يُثقل عليهم أحدٌ من الناس .

بيد أن شرلوت بعد رحيل ابنها كان لديها ما يسبب ألمها على نحو خاص غير مُتوقع ، نظراً إلى أنها خلفت من ورائها آثاراً بغيضة ، لا يعود أكثرها إلى ما كان في سلوكها مما يستحق الملام بقدر ما يعود إلى أشياء كان يمكن أن تُرى 'جديرة بالثناء' . لقد بدا أن لوسيانه قد اتخذت لنفسها كقانون أن تكون مريحة مع المرحين ، حزينة مع الحزانى ؛ ولكي تطلق العنان لروح المناقضة كانت أحياناً تحزن المرحين وتفرح الحزانى .

فكانت في كل أسرة تزورها تحيط خُبراً بالمرضى والمعجزة الذين لا يستطيعون الظهور في المجتمعات ، فتزورهم في مخادعهم ، وتطبّ لهم ، وترغمهم على تناول أدوية قوية مأخوذة من صيدلية السُفر التي تصاحبها أينما ارتحلت . وكان العلاج — كما هو متوقع — حيناً صائب النتيجة وأخرى فاسدها ، حسبما تقضى الصدفة وبإشاء الاتفاق .

وكانت تعارس هذا اللون من الإحسان في شيء من القسوة الحقيقية ، ولم يفلح شيء في جعلها تقلع عنه ، لأنها كانت مقتنعة تمام الاقتناع بأنها تسلك السبيل القويم . لكنها كانت سيئة الحظ في محاولتها علاج مرض معنوى ، وكان هذا مصدراً لكثير من الهموم عند شرلوت ، لأن المسألة قد صارت ذات ذبول ومُضْغَةً في كل الأفواه . أما هي فلم تعرف عنها شيئاً إلا بعد ارتحال لوسيانه . وكان على أوتيل التي صحبت لوسيانه في هذه الزهرة أن تطلع شرلوت على تفاصيل هذا الحادث .

ذلك أن فتاة من أسرة محترمة شاء لها سوء طالعها أن تكون السبب في موت أختها الصغرى ، فأثر في نفسها هذا الحادث إلى حد لم تستطع معه أن تُشفي ولا أن تجدد عنه المزاء . فكانت تحيا وحيدة في مخدعها ، في سُخْل وهدوء ، غير قادرة على احتمال رؤية أهلها ، إلا إذا جاءوا فرادى : لأنها إن رأت جماعاً منهم سرعان ما تظن أنهم يفكرون فيما بينهم في أمرها وحالها . أما إذا كان القادم شخصاً واحداً ، فإنها تملك نفسها وتستطيع التحدث معه طوال عدة ساعات .

عرفت لوسيانه هذه المسألة ، فأملت في نفسها أن تأتي بمعجزة في هذا المنزل حيناً تغدو إليه ، كيما تردّ الفتاة إلى المجتمع . وسلكت في هذه المناسبة سلكاً أكثر حيطة وحذراً من المعتاد ؛ فعرفت كيف تدخل وحدها على

المریضة ، وفيما يبدو استطاعت أن تطفر بثقتها بواسطة الموسيقى . لكنها في النهاية أخطأت وُخِذِعَتْ عن نفسها : فقد شاءت ذات مساء أن تثير انفعالا في الخواطر ، فخرّت الفتاة الجميلة الشاحبة وأدخلتها فجأة على جماعة راقية حافلة ، بعد أن ظنت أنها هيأت الفتاة تهيئة كافية . وكان من الممكن أن تُفلح هذه الحيلة لو لم يسلك الحاضرون ، بدافع الاستطلاع والقلق — مسلکاً ينطوى على الخرق والحماقة ، بأن تجمعوا حول المريضة ثم تجنبوها بعدُ ، وأثاروا فيها الهياج والاضطراب ، وهم يتهايمسون ويسرون الكلام إلى الآذان . فلم تستطع أعصابها الرقيقة أن تحتمل هذا المنظر ، ففرت مذعورة وهي تصرخ صرخات مرعبة ، كأنما الجزع تولاهها أمام وحش رهيب يُلقى بالوعيد والتهديد . وسرى الخوف إلى الجماعة فقتشت . وكانت أوتيلي من بين الأشخاص الذين عادوا بالفتاة إلى مخدعها وقد أصابها كامل الإغماء .

غير أن لوسيان ، على عادتها ، وجهت لوماً عنيفاً إلى الجماعة ، دون أن تفكر مطلقاً في أنها هي وحدها السبب في كل هذا الشر الذي حدث ، ودون أن يحملها هذا الإخفاق وغيره على الإفلاع عن تجاربها .

ومن ذلك الحين وحال الفتاة تزداد سوءاً ؛ فقد تقدم الداء بخطوات واسعة جعلت أهلها لا يستطيعون الإبقاء على الفتاة المسكينة لديهم ، فاضطروا إلى إيداعها المستشفى . ولم يبق أمام شرلوت إلا أن تسمى لتخفيف الألم الذي سببته ابنتها لدى هذه الأسرة ، فسلكت نحوها مسلکاً ينطوى على كل عطف وحنان . وهذا الحادث قد ترك في نفس أوتيلي أثراً عميقاً . وزاد من تأثرها لحال تلك الفتاة المسكينة أنها كانت مقنعة — كما قالت هذا بصراحة لشرلوت نفسها — بأن المريضة كانت ستظفر بالشفاء لو

كان الملاج قد جاء ملائماً .

ولما كان الإنسان حينما يعود بالذاكرة إلى الماضي يحلوه أن يكثر من الحديث عن الأشياء الأليمة أكثر منه عن الأشياء السارة ، فقد انتهى حبل الكلام إلى مشاجرة خفيفة جرت بين أوتيلي والمهندس ، في نفس المساء الذي رفض فيه أن يُبين مجموعته على الرغم من الرجاء الودى الذى وجهته هى إليه ، وهذا الرفض قد حملته فى قلبها باستمرار ، لسبب ليست تدريه . لكنه كان شعوراً عادلاً : فما تطلبه فتاة مثلها يجب ألا يرفضه فنى كالمهندس . لكنه انتحل أعذاراً فيها بعض الوجاهة ، رداً على اللوم الخفيف الذى وجهته إليه عابرةً .

قال لها : « لو عرفت بأية خشونة وجلافة يمايل كثير من الناس - حتى المهذبين منهم - روائع الفن ، لبسطت عذرى فى عدم إظهار روائى أمام ذلك الحشد من الناس . فإنا منهم أحد يعرف كيف يمسك بالآلية من طرفها ؛ وإنهم ليتحسسون بأصابعهم أجل القوش وأنصع السطوح ؛ ويردّدون بين السبابة والإبهام أرقّ القِطْع . وكأن تقدير جمال الأشكال يتم على هذا النحو . وبدلاً من أن يقدر الواحد منهم أن الورقة الكبيرة يجب أن تُمسك بكلا اليدين ، يمسك بيد واحدة الصورة التى لانصاب لها قيمة ، والرسم الوحيد ، ومثله مثل السياسى المدعى الذى يمسك بالجريدة طاوياً أوراقها مبدياً مع هذا رأيه مقدماً فى الأحداث الجارية . وما من أحد يقدر أنه لو فعل عشرون شخصاً - الواحد بعد الآخر - هذه الفعلة مع أترفى ، فإن الشخص الحادى والعشرين لن يجد شيئاً ذا قيمة ليراه بعداً »

- أو لم أبتدِ أنا نفسى إليك بعضاً من هذه المخاوف ؟ هكذا قالت له الفتاة . أو لم يحدث لى أن أتلفت - دون وعى منى - بعضاً من كنوزك ؟

— أبدأ ! بهذا أجب المهندس ، أبدأ ! هذا مستحيل عليك : فإن
الشعور باللياقة مفروز في طبعك .

فأردفت قائلة : على كل حال لا ضير من إدخال فصل صريح عن الطريقة
التي يجب سلوكها في دهايز الآثار الفنية والمتاحف ، فصل يكتب في متون
آداب السلوك بعد الفصول التي فيها آداب المائدة .

فقال : « لا شك أن في مثل هذا ما يشجع الحراس والهواة على عرض
كنوزهم » .

كانت أوتيلي قد غفرت له منذ زمان طويل ؛ لكن نظراً إلى أنه بدا
متأثراً بهذا الملام ، ولم ين عن الاحتجاج بأنه يسره كثيراً أن يعرض
مجموعته وأن يجامل أصدقاءه ، فإن أوتيلي أدركت أنها جرحت رقة شعوره ،
وأحست على نحو ما بأنها مدينة له . لهذا لم تستطع أن ترفض بصراحة
فضلاً سألها إياه إثر هذا الحديث ، على الرغم من أنها وقد أفكرت في الحال
لم تعرف كيف يمكنها أن تلبي رغبته .

أما هذه الرغبات فإليك بيانها . لقد جرح أبلغ جرح حينما رأى
غيرة لوسيانه تُبْسِد ابنة خالتها عن تمثيل اللوحات ؛ كما لاحظ من ناحية
أخرى — آسفاً — أن شرلوت بسبب انحراف مزاجها لم تستطع حضور
هذه التسلية الرائعة إلا غرراً . فلم يشأ هو الارتحال دون أن يقدم شاهد
عرفانه بالجميل بأن نظم — لشرف الواحد ولتسلية الأخرى — حفلة تمثيلية
أجل كثيراً من الحفلات السابقة . ولعل باعماً خفياً أن يكون قد انضاف
أيضاً ، دون شعور منه : هو أنه كان يشقُّ على نفسه أن يغادر ذلك المنزل ؛
إنه لم يقو على تحمل فراق أوتيلي التي كانت نظرتها المذبة الساجية هي الشيء
الوحيد الذي أشاع الحياة في كيانه طوال تلك الأيام الأخيرة .

واقتربت حفلات عيد الميلاد ؛ وسرعان ما تبين أن هذه المحاكيات للوحات على هيئة نحت بارز إنما تعود في أصلها إلى ما يطلق عليه اسم « البريسيبي » ومناظر التقوى التي كانت تكرر ، في تلك الأزمان المقدسة ، للآم الإلهية (مريم) وابنها ، وهي تلقى آيات الطاعة والخضوع من الرعاة أولاً والملوك من بعد .

وأدك تماماً إمكان تمثيل مثل هذه اللوحة . فظفروا بطفل جميل نضير ؛ ولم يعوزهم الرعاة ، ولا الراعيات : لكن لم يكن من الممكن عمل شيء بدون أوتيل . فقد هيأها الفتى (المهندس) لتمثيل دور أم الإله (مريم) ، فإن رفضت فلا شك في فشل المشروع كله . حارت أوتيل في هذا الاقتراح ، فطلبت إليه أن يعرضه على خالتها . فأعطت شرلوت الإذن بكل ارتياح ، بل أنها هدأت من مخاوف ابنة أختها التي ترددت في تمثيل هذه الشخصية المقدسة . وواصل المهندس العمل بالليل والنهار ليكون كل شيء مُعَدّاً عشية ليلة الميلاد .

أجل واصل العمل بالليل والنهار ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى . وهو لم يكن في حاجة إلى كثير من الأشياء ، وكان حضور أوتيل كافياً ليكون له عزاء وسلوى . إنه كان حينما يعمل من أجلها ، لا يشعر بحاجة إلى النوم ؛ وإذا اشتغل في سبيلها ، خيّل إليه كأنه يستطيع الاستغناء عن الغذاء . لهذا تم كل شيء وتهيأ لعشية العيد . كما استطاع أيضاً أن يؤلف موسيقى عذبة تعزف بألات النفخ التي ستعزف استهلالاً وتحياء النفوس للرجو المطلوب . فلما رفعت الستارة أحست شرلوت بعفاجأة حقيقية . فإن اللوحة التي عُرضت أمامها كانت قد أُظهِرت من قبل مراراً إلى درجة أن المرء لا يكاد ينتظر منها تأثيراً جديداً . لكن الحقيقة ، ها هنا ، كانت لها في

الصورة مزايا خاصة . وكان المنظر كله في الظلام أولى منه في الأصيل ، ومع هذا فلم يَبْدُ أى جزء مختلطاً غير واضح . واستطاع الفنان أن يحقق الفكرة الرائعة ، فكرة جعل النور كله ينبعث من الطفل ، وذلك بواسطة جهاز لإضاءة مبتكر ، نستره الأشكال الموضوعة في القسم الأمامى ، تلك التى لم تكن تتلقى غير حِزَم قليلة من الضوء . وأحاطت بالطفل فتيات وفتيان يتدفق المرور من أعطافهم ، وتشرق الأضواء المنبعثة من أسفل على وجوههم الناضرة . وبجَلَّت الملائكة كذلك ، بيد أن بهاءهم قد غطى عليه فيما لاح بهاء الله ؛ إذ بدت أجسامهم الأنثوية النورانية مادية قائمة لو قورنت بجسم الله الإنسان .

وكان الطفل قد أغنى — لحسن الحظ — فى أجلِ وضعة ، إلى حد أنه لم يكن ثمة شىء ليعكر صفو الانتباه ، حينما تتوقف النظرة عند الأم التى أزاحت — بلطف لا يوصف — نقاباً كىما تكشف عن الكنز المستور . وفى هذه اللحظة لاح الوجه ثابتاً غير متحرك . والشعب الذى أحاط به قد بدا — بعيون مبهورة ونفوس مشدوهة — أنه قد قام بحركة منذ لحظة ، كىما يشيح بميونه التى بهرها الضوء ، ثم أعادها — فى استطلاع جذلان — إلى موضوع نظرها وهى تطيرُ ، مُعْبِراً بهذا عن دهشة ولذة أكثر منه عن إعجاب وإجلال : لكن هذه المواطن لم تُغفل أيضاً ، ووكل إلى بعض وجوه الشيوخ أن تقوم بالتعبير عنها .

أما قوام أوتيلى وحركاتها ووجهها ونظرتها فقد فاقت كل ما رسمته ريشة أى فنان . ولو رأى الدواقة من أهل المواطن هذا المنظر لكان خليقاً بأن يخشى منها أن تقوم بأية حركة ، مما من شأنه أن يُبْسَد رضاه . لكن اسوء الحظ لم يكن ثمة شخص قادراً على إدراك أثر الكل . والمهندس

وحده هو خير من تذوق اللوحة ، وقد كان مائلاً على هيئة راع ذى قوام فارع ينظر جانباً من فوق هؤلاء الذين ركعوا ، دون أن يتخذ موضع النظر الحقيقى . لكن من كان يستطيع وصف تعبير ملكة السماء الجديدة ؟ خشوع أوفى على الغاية ، وتواضع بلغ النهاية ، فى حُضْنٍ مجد رفيع غير مُستأهل وسعادة لا توصف ولا تقدر ، كل هذا كان يرسم فى قسماها ، من حيث أنها كانت تعبر عن شعورها الخاص وعن فكرتها التى كونتها عن المنظر الذى كانت تمثله .

تَمَلَّتْ شرلوت بهذه اللوحة الرائعة ، وكان أجمل ما أثر فيها منظر الطفل . ففاضت شئون الدمع من عيونها ، وأصابها قشعريرة حادة ، حين خطر ببالها أنها تستطيع أن تأمل فى أن تهدد عما قليل على ركبتها كائناتاً عزيزاً مثل هذا .

وأسدل الستار ، إما لإعطاء الممثلين شيئاً من الراحة ، أو لإجراء بعض التعديلات فى اللوحة . إذ خطر ببال الفنان أن يُحْمِلَ منظر الليل والخشوع إلى منظر نهار ومجد ، ومن أجل هذا أُعِدَّ فى كل ناحية قدراً وفيراً من الأضواء التى أُشْعِلَتْ فى فترة الاستراحة .

وكانت أوتيللى فى موقفها نصف المسرحى قد ظلت حتى ذلك الحين هادئة كل الهدوء ، لأنها كانت مقتنعة بأنه - فيما عدا شرلوت وبعض الأصدقاء - لم يرَ أحداً من قبل ذلك التمثيل الفنى التقيّ . لهذا انتابها شيء من الاضطراب ، حينما لحّت فى الاستراحة وصول أحد الغرباء الذى استقبلته شرلوت أجمل استقبال . فمن عسى أن يكون هذا الغريب ؟ هذا ما لم يستطع أحد أن يدلها عليه . فأسلمت أمرها كيلا تحدث أى خلل واضطراب . وأضيئت الشموع والمصابيح ، وأحاطت بها أضواء تهر العيون . ورفعت

الستارة . ياله من منظر أخذ بالباب الحاضرين ا كانت اللوحة عامرة بالنور ، وبدلاً من الظلال التي اختفت نهائياً ، لم تبق إلا الألوان ، وكان في حسن اختيارها ما لطف من بهير الأضواء . وأبصرت أوتيلي — قبل أن ترفع جفونها الطويلة — رجلاً جالساً إلى جوار شرلوت . لم تعرفه ، لكن خيل إليها أنها تميز فيه صوت معلم المدرسة الداخلية . فاستولى عليها تأثر بالغ . فكم من أحداث مضت منذ أن لم تسمع فيها صوت هذا المعلم المخلص ! ومرت أمام خاطرها مواكب مسراتها وآلامها . وساءت نفسها : « أستجسرين على أن تقولي له كل شيء وتعتري به ؟ كم أنت غير خليقة حقاً بالظهور أمامه في هذه الصورة المقدسة ! وكم سيبدو غريباً أن يرى مقنعةً تلك التي كان يراها دائماً طبيعية ! » تصارعت العاطفة والتفكير في نفسها بسرعة ليس لها مثيل ؛ وضاق قلبها ، وامتلأت عينها بالدموع ، بينما كانت تجاهد دائماً كيما تظهر ثابتة . وكم كان سرورها ، حينها بدأ الطفل يتحرك ! فاضطر الفنان إلى أن يشير بإسدال الستارة .

وإذا كانت العاطفة الأليمة والشعور القاسي بعدم إمكان الإهراع لاستقبال صديق موثّر قد انضافت ، في اللحظات الأخيرة ، إلى أحساس أوتيلي الأخرى ، فقد صارت الآن في حالٍ من البلبال أكبر . أفيخلق بها أن تتقدم إليه في هذا اللبس والتزين الغريبين ؟ أم يجدر بها أن تبدل ثيابها ؟ وبدون تدبر ، سلكت المسلك الثاني ، وبذات وسمها لتستعيد هدوءها وطورها في تلك الأثناء ؛ لكنها لم تعد إلى نفسها تماماً إلا حين استعادت ملابسها العادية ، فاستطاعت أخيراً أن تُحيي القادم الجديد .

الفصل السابع

وأخيراً كان على المهندس أن يفارق سيدتيه . فحمل لهما أطيب الأمانى ، وسرّه ألا يفادرها إلا وهما فى محبة ذلك المعلم البجّل . لكنه كان يفار على توجيه كل عطف إليه ، فأحسّ بشيء من الألم وهو يشاهد بديلاً له قد حل محله سريعاً واستطاع أن يشغل مكانه كاملاً ، كما تبين لتواضعه . لقد كان متردداً حتى ذلك الحين ، أما هذا الحادث ، حادث وصول المعلم ، فقد قطع عليه سبيل التردد فى الرحيل : فماعسى أن يألم له بهدوء وهو بعيد ، لم يشأ أن يراه عياناً وهو حاضر .

ووجد مصيرفاً لهذه العواطف الحزينة فى هدية قدمتها إليه السيدتان عند رحيله : كانت صُديراً مطرزاً بأيديهما . وهو قد رآها منذ زمان طويل مشغولتين كليتهما بهذا العمل ، ومازجه حسد مستور لهذا المجهول السعيد الذى سيملكه يوماً ما . ومثل هذه الهدية أجل ما يظفر به رجل محب محترم : لأنه لا يستطيع التفكير فى هذه الأيدي الناعمة الخفيفة الحركة الدائبة العمل ، دون أن يعنى نفسه بأن القاب أيضاً قد ساهم بنصيب فى مثل هذا العمل الثابر .

والآن قد صار لدى السيدتين ضيف جديد ، تحملان له كل خير ، وتتمنيان رضاه فى ضياقهما . إن للنسوة شوقاً خاصاً مستوراً ثابتاً ليس فى وسع شيء فى الدنيا أن يحول يدهن وبينه ؛ لكنهن فى العلاقات الاجتماعية يُسلمن أنفسهن بارتياح وسهولة للرجل الذى يشغلهن . وسواء بالمقاومة وبالخضوع ، بالعناد وبالتساهل ، يفرض من السلطان ما لا قبيل لأى رجل فى العالم المتمدين بتجنّبه .

لقد أظهر المهندس مواهبه ومارسها وهو يبدو في مظهر من يتابع ذوقه وهواه ، أظهرها على مرأى من صديقاته ترفيهاً عنهن وحرصاً على خدمتهن ؛ وبهذه الروح ووفقاً لهذه النظرة نظمت الأعمال ورُتبت الملامح . بيد أن وصول المعلم أفضى إلى أسلوب في الحياة جديد مغاير . إذ كانت موهبته الكبرى في حسن الكلام وجمال العرض ، في أثناء الحديث ، للعلاقات المتبادلة بين الناس ، خصوصاً فيما يمسّ تربية الشباب . وعلى هذا النحو نشأت معارضة ظاهرة ضد العادات التي اتبعت حتى ذلك الحين ، خصوصاً أن المعلم لم يكن موافقاً تمام الموافقة على الأشياء التي اقتُصر على العناية بها من قبل وحدها .

لم يقل كلمة واحدة عن اللوحة الحية التي استقبلته لدى وصوله . وفي مقابل هذا ، لم يستطع أن يخفى رأيه ومشاعره حيناً للوقوف أن يطلموه على الكنيسة والكابلة وكل ما إليها . فقال : « أما أنا فلا أحبّ هذا التقريب ، وذلك المزج بين الأشياء المقدسة وما يبهز الحواس ؛ لا أحب أن يكرّس الناسُ بعض المظاهر الخاصة ويميزوها ، ليفتدوا على هذا النحو العاطفة الدينية بطريقة لا تدع مجالاً لغيرها . فما لحَرَم كائناً ما كان ومهما تكن بساطته أن يعكر فينا صفو الشعور بالآلوهية ، هذا الشعور الذي يمكن أن يصاحبنا في كل مكان وأن يصنع من كل ناحية معبداً . وإني لأفضل القيام بفروض العبادة داخل المنزل في قاعة الطعام ، حيث يجتمع القوم للمأذات والألعاب والرقص . إن أنبل ما في الإنسان وأسماءه لا شكل له ولا لون ، ويجب علينا أن نتفادى تصويره إلا بالأعمال النبيلة » .

وسرعان ما أدخلته شرلوت في نطاق نشاطها ، وقد كانت على علم سابق بمشاعره ، وفي وقت قصير سمعها أكثر وأكثر ؛ — بأن

استعرضت أمامه في البهو الكبير ، البستانيين الصغار الذين استعرضهم المهندس منذ قليل قبل رحيله . فتبدوا في أجل مظهر وهم يرتدون بزاتهم النظيفة الزاهية ، ويأتون حركات منتظمة وأعمالاً خفيفة الحركة طبيعية . وفحصهم المعلم وفقاً لمزاجه ، وبعد أسئلة ومحاورات متعددة اكتشف أخلاق هؤلاء الأطفال ومواهبهم واستعداداتهم ، وفي أقل من ساعة ومن غير أن يظهر بهذا المظهر كان قد علمهم وأفادهم إلى حد كبير .

فكانت شذوحت ، حينما انصرف الأطفال : « ماذا فعلت وكيف ؟ لقد استمعت بانتباه شديد ؟ ولم يدر السؤال إلا عن أشياء معروفة تماماً ، ومع هذا فلست أدري ماذا أصنع كيما أعرضها يمثل هذا الترتيب ، وفي مثل هذا الوقت القصير ، خلال كل هذا الخليط من الأقوال .

— لعل من الواجب على المرء أن يجمل من فضائل مهنته ومزاياها سرّاً ، هكذا استأنف المعلم كلامه ؟ ومع هذا فلست بمستطيع أن أكتفيك المبدأ البسيط الذي يمكن بمهنته الظفر بهذه النتيجة وأكثر منها . خذى أى شئ ، مادة أو فكرة ، كما يشاء الناس أن يسموها ؛ واحتضنيها بكل قوة ، واصنئ منها تصوراً واضحاً كل الوضوح في جميع أجزائه : هنالك سيسهل عليك أن تتعرفى ، بالحديث مع فرقة من الأطفال ، ما يعلمون فعلاً عن ذلك الشئ . وماذا يجب تعليمهم عنه أيضاً ، والإيحاء به إليهم كذلك . ومهما تكن أجوبتهم عن أسئلتك ، فسادمت تدريبهم من بعد إلى الفكرة أو الموضوع ، ولا تدعين نفسك تنأى عن وجهة نظرك ، فلا بد أن ينتهى الأطفال بإدراك ما يريد المعلم أن يلقيهم إياه ، وفهمه والنفوذ إليه بمقولهم ، بالطريقة التي يريد عليها أن يفهموه ويعلموه . وإنما عيبه الأكبر أن ينجر وراء تلاميذه ، وأن يمجيز عن إيقافهم عند

النقطة التي يمالجها حالياً . جرتني هذا قريباً ، أى سيدتى ، وستجدين فيه تشويقاً كبيراً ولذة .

— هذا بديع ! هكذا قالت ؛ إن التربية الجيدة هى إذا عكس المعاملة الجيدة . ففى المجتمع يجب ألا يتوقف الإنسان عند أى شىء ، بينما فى التعليم القانون الأعلى هو محاربة كل خروج عن الموضوع واستطراد .

— التنويع بلا تشتيت هو بالنسبة إلى كل من العلم والسلوك فى الحياة أجهل قاعدة وخير مثال ، لكن هذا التوازن السعيد شاق الاحتفاظ به . وبعد أن أفضى بهذا الجواب ، راح العلم يستمر فى الحديث ، حينما ألحّت عليه ثرلوت فى أن ينظر مرةً أخرى إلى الأطفال ، بينما كان جميعهم يَحترق الفِئاء فى تلك اللحظة . فعبر عن رضاه لإخضاعهم لرى واحد مشترك .

قال : « يجب أن يرتدى الناس الزى المشترك منذ نعومة أظفارهم ، إذ عليهم أن يتعمدوا العمل مشتركين ، والاختلاط ببلداتهم وأقاربهم ، والطاعة للمجموع والعمل للصالح العام . وفضلاً عن هذا ، فإن كل لون من الزى المشترك يفدّى الروح العسكرية والتربية الدقيقة الثابتة النظامية . ثم ، أليس الأطفال يولدون جميعاً جنوداً بطبعهم ؟ يكفى المرء أن يشاهدهم وهم يلعبون ويتحاربون ويتصارعون ويهجمون ويتسلّقون .

— فقالت أوتيلى : لكنك لن تلومنى على أنى لم ألبس فتيانى على هذا النحو ؟ . . . حينما أعرضهن عليك ، أمل أن أُمسِكَك بالزيج والتنويع .

— أوافق على هذا تماماً ، بهذا أجب . إن النسوة يجب أن يتنوع لباسهن إلى أبعد حد ، كلاً على هواها ، كيما تعرف كلٌ كيف تحس بما

بلائها . وثمت سبب أهم من هذا هو أنه قد قدر عليهم أن يكن متوحدات ، وأن يعملن وحيدات ، طوال حياتهن .

— هذه — فيما يبدو — مفارقة غريبة ، هكذا قالت شرلوت : إننا نحن لا نكاد نحيا مطلقاً من أجل أنفسنا .

— على العكس ، بهذا أجاب المعلم ، إنكن لا تحمين إلا من أجل أنفسكن حقاً ، بالنسبة إلى النسوة الأخريات . فلينظر الإنسان المرأة عاشقة أو خطيبي أو زوجاً أو أمّاً أو ربة بيت ، فسيجدها دائماً بمنزلة متوحدة وتريد دائماً أن تكون كذلك . بل إن أكثرهن غروراً لعل هذه الحال كذلك . إن كل امرأة تستبعد غيرها من النساء : هذا في طبيعتها ، لأن المرء يتطلب من كل منهن كل ما يجب أن يؤديه كل جنسهن بتمامه . وليس الأمر كذلك بالنسبة إلينا معشر الرجال . فالرجل منا في حاجة إلى الرجل ، وإذا لم يجده خلقه لنفسه ؛ أما المرأة فتستطيع أن تحيا الدهر كله ، دون أن تفكر في إيجاد قريبتها .

— فقالت شرلوت : يكفي أن يقال الحق بطريقة غريبة كيما ينتهي الغريب نفسه بأن يبدو حقاً هو الآخر . سنقتطف خير ما في ملاحظاتك ، ومع هذا فنحن كنسوة سنكتاف سويّاً ، وسنعمل أيضاً معاً كيلا نترك للرجال مزايا كبرى علينا . بل اسمح لي بهذا السرور الماكر الذي سنزداد شعوراً به في المستقبل حينما نرى الرجال لا يتفوقون كثيراً فيما بينهم » .

ثم درس المعلم الفطن من بعد بكثير من العناية الطريقة التي تعامل بها أوتيلي تلميذاتها الصغيرات ، وشهد بموافقة الصريحة على ما تفعل . قال لها : « لك الحق كثيراً في أن توجهي اهتمام تلميذاتك إلى الأشياء التي في المرتبة الأولى من الضرورة ، وحدها . إن النظافة تحمل البنات الصغار

على حسن تقدير أنفسهم ، وما أعظم المكسب حينما ندفعون إلى السرور بما يفعلون والرضا عما يعملون .

وفضلاً عن هذا فقد شاهد بعين مليئة بالرضا أنه لا يُوجَّه أى اهتمام إلى المظهر الخارجى ، بل على العكس كل شئ ، يُعَمَل من أجل الباطن ومن أجل الحاجات الضرورية . ثم صاح : « ما أقل الكلمات التى نحتاج إليها لمرض نظام التربية كله ، لو كانت هناك آذان تسمع ! »

— أولاً نودّ أن نحاول معي ؟ هكذا قالت أوتيلى بصوت هادئ .

— بكل ارتياح ، لكن لا تخويني ! لو نشئ ، الأولاد ليكونوا خادعين والبنات ليكوننّ أمهات لسار كل شئ ، على ما يرام .

— أمهات — هكذا قالت — ، النساء يمكنهن أن يقبلن ، لأنهن بدون أن يكنّ أمهات يجب عليهن دائماً أن يتأهبن ليكون مربيات أولاد ؛ لكن الشبان يعتقدون فى داخل نفوسهم أنهم أسمي كثيراً من أن يقوموا بدور الخادمين : إذ يستطيع المرء أن يلهج من مظهر كُلى أنهم يحسبون أنفسهم أقدر على السيادة والقيادة .

— وهذا هو السبب فى أننا نجعل لهم من هذا أمراً مستمراً وسراً ، هكذا قال المعلم . يتعلق الإنسان نفسه فى مجرى الحياة ، لكن الحياة لا تتعلّقنا . أفيعرف الكثيرون كيف يستلمون طَوْعاً واختياراً بما هم ملزمون فى النهاية بالتسليم به ؟ وعلى كل حال ، فلندع هذه الأفكار الغريبة عما يشغلنا .

« إني لأهنتك على استطاعتك استخدام منهج جيّد مع تلميذاتك . وإذا كان أصغر فتياتك يتلهون بمرائهن ، ويخطن لمن بعض القصاصات قطعة قطعة ؛ وإذا كانت الأخوات الكبريات يُعَسِّن بالصفريات ، وإذا

كان البيت يكفل نفسه بنفسه — فإن الخطوة الباقية للدخول في حومة الحياة ليست واسعة ، والفتاة التي تُعَدُّ على هذا النحو تجد عند زوجها ما خلفته من ورائها عند أهلها .

« أما الطبقات العالية فالهمة بالنسبة إليها معقدة كل التعقيد . إذ يجب أن نحسب حساباً لملاقات أسمى وأدق وألطف ، خصوصاً العلاقات الاجتماعية . من أجل هذا يجب أن ننشئ المظهر الخارجي عند تلميذاتنا . هذا ضروري لا غنى عنه ، ويمكن أن يكون جيداً ، إذ لم يتجاوز الحد المعقول . ذلك أن التفكير في تنشئة الأبناء من أجل دائرة أوسع يقضى إلى الرجوع بهم في طريق غير محدود دون أن نتدبر حقاً فيما تقتضيه طباعهم . وتلك هي المشكلة التي يتفاوت حلها أو الإخفاق فيها بين المربين . إننا نعلم تلميذاتنا في المدرسة الداخلية كثيراً من الأشياء التي تدع في نفسى قلقاً واضحاً ، لأن التجربة تدلني على قلة استمهالن لها في مستقبل الحياة . لكن كم من أشياء لا تُعْمَحَى ولا تُنْسَى حالما تدخل الفتاة بيتاً وتصبح أمّاً ! » ومع هذا ، وما دمتُ قد كرسْتُ نفسي لهذه الأعمال ، فلا أود أن أحرم نفسي الرغبة الصادقة في النجاح يوماً ما ، بمعونة رفيقة مخلصه ، في ألا أنسى في تلميذاتي من المعارف إلا ما سيحتججن إليه حينما يدخلن في ميدان النشاط الصحيح والاستقلال ، حتى يكون في وسعي أن أقول : إن تربيتهن ، بهذا المعنى ، قد اكتملت . ومن الحق أيضاً أن تتلوها دائماً أخرى غيرها تنشأ في كل سنة من سني حياتنا تقريباً ، صادرة إن لم يكن عن أنفسنا ، فمن الظروف التي تلابسنا . »

كم تبدت هذه الملاحظة صادقة في نظر أوتيلي ! وكم من الأشياء علمها وجدان غير متوقع ، اشتمل بها في السنة التي انقضت ! كم من محسن

رأت نفسها مهددةً بها ، حتى فيما يتصل بمستقبلها القريب جداً وحده !
وهذا الشاب (المعلم) لم يتحدث عبثاً عن مساعدة ورفيقة ؛ فهو على
تواضعه لم يستطع أن يملك نفسه من الإشارة إلى أغراضه من طرف خفي
بعيد . وثمت كثير من الظروف والأحداث التي حملته في هذه الزيارة على
أن يخطو بضع خطوات أخرى في سبيل غرضه .

لقد كانت مديرة المدرسة متقدمة في السن ، وكانت قد بحثت منذ زمان
طويل بين المعلمين والمعلمات الذين يساعدونها عن شخص يمكن أن يكون
شريكاً لها ؛ وأخيراً توجهت إلى المعلم الذي نال كل تقئتها فاقترحت عليه
أن يشاركها في إدارة المدرسة ، وأن يشرف عليها كأنها مدرسته ، وأن
يقوم مقامها بعد وفاتها ، بصفته وراثاً ومالكاً وحيداً . وكان المهم عنده
أن يجد امرأة تشاركه أفكاره . وأوتيلي كانت تشغل قلبه سرراً وعقله ؛
لكن تبدت بعض الشكوك التي وازنتها بعض الأحداث الملائمة . ذلك أن
لوسيانة قد غادرت المدرسة ، ففى وسع اليتيمة (أوتيلي) إذاً أن تعود إليها
كيفما شاءت ؛ أجل إن علاقاتها بإدورد قد تناقلتها بعض الألسن ؛ لكن
الأمور قد نُظِرَ إليه بشيء من عدم الاكتراث ، شأنه شأن أمثاله من
المغامرات ؛ بل إن هذا الحادث نفسه لم يكن أن يعمل على الإسراع بمودة
أوتيلي إلى المدرسة . لكن لم يكن ثمت ما يؤدي إلى اتخاذ أى قرار ،
ولا التقدم أية خطوة ، لولا أن زيارة مفاجئة قد أعطت المسألة دافعاً خاصاً ؛
فحضور الأشخاص البارزين في أية جماعة لا يمكن أن يظل دون أثر
ولا نتائج .

ذلك أن الكونت والبارونة رأيا أنفسهما موضعاً للاستشارة في قيمة
المدارس الداخلية المختلفة ، لأن أولياء الأمور يكادون يحارون في اختيار

التربية الصالحة لأبنائهم ؛ فخطر ببالها أن يستطلما أمر تلك المدرسة التي سما عنها أخيراً لإطراء كثيراً . وقد صار في وسمها أن يقوم بهذه الزيارة سوياً ، بعد وضعها الجديد . كما أن البارونة كانت ترمي إلى مقاصد أخرى . فقد تحدثت إلى شرلوت إبان إقامتها الأخيرة لديها حول كل ما يتصل بإدورد وأوتيلي . فأصرت البارونة على إبعاد الفتاة . وبذلت جهدها كيما تطمئن شرلوت التي كانت تخاف دائماً تهديدات إدورد . فاستعرضا الحلول الممكنة ، ولما وصلا إلى فكرة المدرسة الداخلية ، تطرق الحديث إلى غرام المعلم — فزاد هذا من عزيمة البارونة على القيام بالزيارة المقترحة .

قدّمت وتعرّفت إلى المعلم وتفقدت المدرسة وتحدثت عن أوتيلي . ولد للكونت نفسه هذا الحديث عنها ، لأنه ازداد معرفة بها أثناء زيارته الأخيرة . لقد اقتربت من الكونت ، وشمرت بأنجذابها نحوه ، لأنها وجدت عنده ، في حديثه الممتع المتين ، ما ظل مجهولاً لديها حتى ذلك الحين . وكما كانت في أحاديثها مع إدورد تنسى الدنيا ، فإنها في حضرة الكونت بدت الدنيا لها مرغوباً فيها لأول مرة . كل ميل متبادل . لقد أحس الكونت عيلاً إلى أوتيلي إلى حد أنه كان يلذ له أن ينظر إليها كابنة له . في هذه المرة أيضاً كانت عقبة أمام البارونة ، أكثر مما كانت في المرة الأولى .

ليت شعري ماذا كانت ستفعله ضد هذه الفتاة حينما كانت لا تزال عارمة الوجدان ! هنالك كفاها أن يجعلها ، بواسطة الزواج ، أقل خطراً على البيت .

عرفت كيف تفهم المعلم بلباقة — لكن بنجاح — أنه يجب عليه أن يعمل على القيام برحلة صغيرة إلى القصر ، ويمجّل بتحقيق أمانيه ومشرعاته التي لم يخف أمرها عن البارونة .

ومن هنا قام بهذه الرحلة ، بموافقة تامة من المديرية ، وهو يُفَضِّلُ في قلبه أجل الآمال . إنه ليعلم أن تلميذته لا تكرهه ؛ وإذا كان بينهما عدم تكافؤ في المركز الاجتماعي ، فإنه لا يلبث أن يزول بسهولة أمام الأفكار المصرية . كما أن البارونة ، من ناحية أخرى ، قد أفهمته أن تلك التي يحبها ستظل دائماً فتاة فقيرة . إن الانتساب إلى بيت غني لا يعطى أية ميزة : ففي حالة الثروات الضخمة ، يتردد الناس في استقطاع مبلغ كبير من هؤلاء الذين يبدو أنهم أحق بالامتلاك ، بسبب زيادة قرابتهم . والحق أنه ليس أقل من هذا غرابة أن لا ينتفع الإنسان إلا نادراً — من أجل إفادة من يحبهم — بالامتياز الكبير الذي يخوّل له أن يتصرف في أملاكه بعد وفاته ؛ وأن يدعو للتوريث من سيميلكون ثروته من بعده ؛ حتى لو لم تكن لديه أية نية .

كان قلبه يقول له طوال رحلته إنه كفء لأوتيلي . وقوى من آماله ما لقيه من حسن استقبال . أجل إنه وجدها هذه المرة أقل إفضاءً له بما في نفسها مما كانت من قبل ؛ لكنها قد صارت الآن أنمي وأفضل تكويناً ، وعلى وجه العموم يمكن أن يقال إنها أظهر لمكنون نفسها مما عرفها . ثم إنه أُطْلِعَ — في ثقة كاملة — على كثير من المسائل ، خصوصاً تلك التي تتصل بحالته . لكنه كان حينما يريد الاقتراب من هدفه ، يمنعه دائماً نوع من الخوف والتهيب .

يبد أن شرلوت هيأت له الفرصة يوماً ، حينما قالت له في حضرة ابنة أختها :

« الآن وقد تفقّدت جيداً كل ما يجري في البيت ، فقل لي رأيك في أوتيلي . وأحسب أنك لن تهيب القول في حضرتها ؟ »

فأجاب المعلم بكثير من الحصافة والحكمة ، وبلغة بالغة الهدوء والرزانة ، قائلا إنه قد وجدها قد تغيرت إلى أحسن فيما يتصل بيسر المعاملة ، ولطف الحديث ، وعلو الفهم لشئون الدنيا ، مما يبدو في أعمالها أكثر منه في أقوالها ؛ ومع هذا فهو يمتقد أنها يمكن أن تكسب كثيراً لو أنها عادت بمضاً من الزمان إلى المدرسة ، كما تمتلك علماً ثابتاً راسخاً مرتباً ما لا تعلمها إياه الحياة إلا بطريقة جزئية غير منظمة ، أدعى إلى إحداث الاضطراب منها إلى جلب الرضا ، وأحياناً ما تتأخر كثيراً . ولم يشأ أن يطيل عنان القول في هذا فقد كانت أوتيلي تعرف خيراً من أى إنسان آخر مقدار الدروس التي أكرهت على تركها .

لم يكن في وسع الفتاة أن تنكر هذا ، لكنها لم تستطع أيضاً أن تصرح بما تشعر به بإزاء هذه الكلمات ، لأنها لا تكاد تعرف ماذا تقول . إنها لم تعد ترى في الدنيا أى نقص عام ، حينما تفكر في الذى تحبه ، ولم تتصور وجود أى انسجام بدونه .

أما شرلوت فقد أجابت عن هذا الاقتراح بلطف موزون . قالت إنهما كانا يأملان في عودة أوتيلي إلى المدرسة . أما الآن فلا غنى لها عن حضور مثل هذه الصديقة العزيزة ومعاونتها . لكن في المستقبل إذا كان هذا من رأى أوتيلي فإنها لن تحول بينها وبين العودة إلى المدرسة ، لإتمام دراساتها التي ابتدأتها ، وتمثل كل المعارف التي توقفت عن تحصيلها .

فتلقى المعلم هذه العروض بسرور . ولم تستطع تلميذته أن تعترض بشيء ، على الرغم من أن هذه الفكرة قد أثارت في نفسها القشعريرة والاضطراب . وشرلوت من ناحيتها أفكرت في كسب الوقت . إذ كانت

تأمل أن يكون في صيرورة إدورد والدًا ما يعيد رشدَه إليه ويرده إليها ؛
وكانت واثقة من أن كل شيء بعد هذا سينظم ، وأن مصير أوتيلي سيقدر
ويرتب على نحو ما .

كل حديث جدي يسام فيه المتجاورون كلُّ برأيه الخاص يُتلى
غالبًا بوقفة يلوح أنها تدل على نوع من الضيق مشترك . لقد كانوا يفدون
ويجيئون في غرفة الاستقبال ؛ وتصفح المعلم بعض الكتب ؛ وأخيرًا وقع
في يده كتاب ظل في ذلك المكان منذ أيام لوسيانه . فلما رأى أن هذا
الكتاب لا يشتمل إلا على رسوم قردة ، ألقاه في التو . لكن يلوح أن
هذا الحادث قد أفضى إلى حديث ، إذ نرى أثرًا له في « اليوميات » التي
نحن بسبيل الاقتباس منها الآن أيضا .

من يوميات أوتيلي

كيف يأخذ المرء على عاتقه أن يرسم قردة حقيرة بكل هذه العناية !
إنه نوع من الأخطا مجرد حساباتها حيوانات : لكنه شاهد على الخبط
حقًا أن يُسلم المرء نفسه للذة نشدان أناس معروفين تحت قناع هذه الرسوم .

لا بد من وجود نوع من الضلال في الروح عند من يله له أن يشتغل
بالرسوم الهزلية والغريبة . إنني أدرك لعلمنا النبيل بفضل عدم انشغالي
بالتاريخ الطبيعى : إذ لا يسمنى مطلقًا أن أشعر بالمطف نحو الدود
والجعلان (الخنافس) .

في هذه المرة اعترف لى بأنه يشعر مثلى ، قال : « يجب ألا نعرف من
الطبيعة إلا الأشياء التي تعيش من حولنا وبالقرب منا » . إن لنا صلة

حقيقية بالأشجار التي تحضر وترى وتثمر من حولنا ؛ بالشجيرة التي نمرّ بالقرب منها ؛ بكل عود من العشب نطؤه بأقدامنا ؛ إنهم شركاؤنا في الوطن حقاً وأبناء جلدتنا . والطيور التي تتواكب على غصون أشجارنا ، وتغنى في أيكتنا ، تنسب إلينا ؛ إنها منحدره إلينا منذ نعومة أظفارنا ، وتعلمنا كيف نفهم لغتها . ويسأل المرء نفسه عما إذا لم يكن كل مخلوق غريب ينتزع من وسطه يحدث في نفوسنا آثاراً أليمة لا تهدأ إلا بالتمود . ولا بد للمرء أن يحيا حياةً مشقة صاخبة ، كما يحتمل إلى جواره القردة والبيغاوات والزوج .

حينما تأخذني الرغبة أحياناً في مشاهدة هذه الكائنات الغريبة ، أحسد الرحالة الذي يشاهد هذه العجائب في صلات حية مستمرة بعجائب أخرى . لكنه هو نفسه يستحيل خَلْقاً آخر : فما من أحد يستطيع أن يتجول تحت النخيل دون أن يتأثر ، وأفكارنا تتغير من غير شك في وطن يكون فيه القيلة والفرقة في مكانها الأصلي .

لا عالم طبيعياً جدير بالاحترام إلا ذلك الذي يعرف كيف يصور لنا ويمثل أغرب الكائنات وأعجبها في داخل بيئته وكما هو في محيطه ، وفي وسطه . كم يحلو لي أن أسمع همبولت^(١) ، ولو مرة واحدة ، يقص رحلته !

(١) هو فريدرش هينرش ألكسندر فون همبولت (سنة ١٧٦٩ — سنة ١٨٥٩) : عالم بالتاريخ الطبيعي ألماني ، ورحالة مشهور . رحل إلى الريف في سنة ١٧٩٤ فكتب كتابه الأول بعنوان : «ملاحظات على بازات الريف» . ثم درس في فريبورج ، حيث قام بعدة تجارب على الكهرباء الكلفانية . وخلال السنوات من سنة ١٧٩٧ — سنة ١٨٠٤ قام برحلات إلى أمريكا الجنوبية والمكسيك والولايات المتحدة ، وعاد منها مزوداً بكثير من المعلومات في كل فروع التاريخ الطبيعي . ومن =

إن مكتب التاريخ الطبيعى يمكن أن يبدو لنا على هيئة ضريح مصرى ،
ترى فيه الحيوانات والنباتات المختلفة مرتبة ومحنتة . ويليق حقاً ببطيخة
كهنوت أن تشغل بها فى ضوء ضعيف مُسْتَسْر . لكن هذه الأشياء
يجب ألا تشغل مكاناً فى التعليم العام خصوصاً بقدر ما هى من شأنها أن تطرد
ما هو أنفع منها وأقرب إلينا .

إن المعلم الذى يستطيع أن يشعرنا بعمل نبيل أو قصيدة جيدة ليؤدى
خيراً أكبر من ذلك الذى يمرض لنا أصنافاً كاملة من الإنتاجات الطبيعية
بكل ما لها من أشكال وأسماء ؛ لأن النتيجة كلها (ونستطيع أن نعرفها
بطريقة أخرى) هى أن الإنسان يحمل فى نفسه أنواع من السموم
والامتياز الخاص — صورة الألوهية .

لندع لكل الحرية فى الانصراف إلى ما يجذبه ويفر به ويبدوله مفيداً :
لكن الدراسة الجوهرية للإنسانية هى دراسة الإنسان نفسه .

الفصل الثامن

قليل من الناس يعرفون كيف ينشغلون بالماضى القريب كل القرب .
فتحن بين خصلتين : فإما أن نكون أسارى الحاضر ، وإما أن نضلّ فى
بيداء الماضى البعيد ، ونسى قدر استطاعتنا لاستعادة ما ضاع إلى غير رجعة .

== سنة ١٨٠٨ — سنة ١٨٢٧ أقام فى باريس واشتغل مع جى لوساك فى إقامة
التجارب الكيميائية . وبرعاية القيصر نقولا قام فى سنة ١٨٢٩ برحلة استكشافية
إلى آسيا الصغرى والوسطى ، فزاد من العلم بلاسل الجبال وعلم المناخات المقارن .
ونفرغ بعدها لوضع كتابه « الكون » الذى يمد من أعظم الأسفار فى فلسفة العلم .

بل إن العادة حتى في الأسر الكبيرة الموسرة التي تدين بالكثير لأجدادها ، قد جرت بالتفكير في الجد الأعلى أكثر منها في الأب .

انساق معاً إلى هذه الخواطر يوماً من تلك الأيام الجميلة التي يقدم لنا فيها الشتاء الراحل صورةً خادعة للربيع ، بينما كان في طريقه إلى التريض في السستان الفسيح المتيق الخالص بالقصر ، وكان يعجبه فيه مخارف الزيفون المالية ، والفروشات المنتظمة التي تعود إلى أيام والد إدورد . وقد نجحت نجاحاً باهراً وفقاً لفكرة من غرسها ، والآن وقد تبدي هذا النجاح وأمكن التمتع به ، لم يعد أحدٌ يتحدث عنه ، ولا يكاد أحد يزورها ؛ فلهوى والإسراف قد اتخذا اتجاهاً آخر وانتقلا بعيداً إلى مسمعان الريف .

ولما عاد المعلم إلى القصر ، أبدى هذه الملاحظة لشرلوت ، فتلقها بشيء غير قليل من الارتياح . وأجابت : « إن الحياة تسوقنا ، وبخيل إلينا أننا نعمل من تلقاء أنفسنا ، ومختار أعمالنا وملذاتنا ؛ والواقع أن ذوق المصر وتقويماته هي التي تفرض علينا اتباعها .

— بدون شك ، هكذا استأنف المعلم ؛ ومن ذا الذي يقاوم سيل الحوادث ؟ إن الزمان ليحجر سائقاً المواطف والآراء والأفكار السابقة والأذواق . فلو أمضى الابن شبابه في زمن الثورة ، فن المؤكد أنه لن يشبه أباه في شيء . ولو عاش الأب في عصر يميل الناس فيه إلى الامتلاك الخالص والتحديد والتضييق على الأشياء ، والتمتع بالملذات القوية وحيداً بعيداً عن الناس ، فإن الابن لن يقصّر في السمي لبسط ما قصّره الأب ونشره والتوسع فيه وبذله للآخرين .

— فقالت شرلوت : والمصور الكاملة تشبه هذا الوالد وذلك الابن

الذين نصفهما . فنحن لا نكاد نستطيع أن نكون فكرة عن تلك الأزمنة التي كان لا بد لكل مدينة فيها من خنادق وأسوار لها خاصة ؛ حين كان يُبنى بيت النبيل في حَمَاة ، وكانت أقل القصور لا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة جَمَر متحرك يُرْفَع ويُزَل . أما اليوم فالدنُّ الكبرى نفسها تدُّكُ أسوارها ؛ والخنادق حول قصور الأمراء قد ملئت ؛ والمدن لا تبدو اليوم إلا كمساحات منبسطة واسعة ؛ وإن الرحالة الذي يشاهد هذه التغيرات لا بد له أن يعتقد أن السَّلم العالمي قد صار مكفولاً ، وأن العصر الذهبي على الأبواب . لم يعد يلذ للواحد منا أن يرى بستاناً إلا إذا كان مشابهاً للريف المنبسط ؛ ولا شيء يجب أن يذكر بالصنعة والصنق ؛ إننا نريد أن ننعم بكلُّ يسر وحرية . فهل عندك فكرة ، يا صديقي ، عن إمكان الرجوع عن هذه الحالة إلى أخرى ، إلى تلك التي سبقتها ؟

— ولم لا ؟ هكذا قال ؛ إن لكل موقف مساوئه ، سواء المقيد والمتحرر . إن هذا الأخير يفترض الوفرة ويفضي إلى الإسراف . فلنقف عند المثل الذي سُمِّقته : فهو بارز يستلفت النظر . فحالما يشعر الناس بالحاجة يعودون إلى الاعتدال . فالناس المضطرون لاستغلال أراضيهم يحيطون حدائقهم بالأسوار من جديد ، كيما يكونوا على ثقة بالمنتجات . وعن هذا الطريق تأخذ الأمور مظهراً آخر شيئاً فشيئاً . فتكون السيادة لما هو نافع ، وأخيراً يعتقد الفنى أنه يجب عليه أن يستغل كل شيء . . صديقي أنه من الممكن أن يهمل ابنك كل تجميلات البستان ، وينجز من جديد خلف الأسوار السكائية وتحت الزيفون العالي الذي غرسه جده .

وأحست ثرلوت بسرور خفي حينما سمعت يبشرى ابنها ، مما جعلها

تفقر النبوءة المضايقة التي قال بها المعلم ، فيما يتصل بالمصير الذي يمكن أن يلقاه بستائنها الجميلُ يوماً ما ، بستائنها الحبيب . وأجابت بلطف كامل :

« لسنا كلانا في السن التي تجعلنا مرات كثيرة شهوداً على أمثال هذه المناقضات ؛ لكن إذا عُدنا إلى زمان الشباب الأول ، وتذكرنا شكاة الشيوخ ، ولا حظنا المدن والأرياف ، فلعلنا لن نجد شيئاً نجيب به عن ملاحظتك . لكن ، أفلا يَسْعُنَا أن نعرض هذا السير الطيبي أي اعتراض ؟ أفلا نستطيع أن نوفق بين الأب والابن ؟ لقد تلطفت فتنبأت لي بولد : فهل من الضروري قطعاً أن نكون وإياه على طرفي نقيض ؟ وأن يهدم ما كان أهله قد بنوه ، بدلاً من إتمامه وإكماله وإتمامه ، بأن يستمر عاملاً بنفس الروح ؟

فأجاب المعلم : لعل هناك وسيلة ناجمة ، لكن الناس نادراً ما يستخدمونها ، فإينشئ ، الوالد ولده على أنه شريك له ؛ وليدعه يبني ويفرس معه ، وليسمح له ، كما سمح لنفسه ، بحرية بريئة . إن في الوسع إيلاجَ نشاط في آخر ؛ لكن لا يمكن ضم الواحدة إلى الثانية ؛ فالنصن الصغير يتحد بسهولة وارتياح مع الساق العتيق الذي لا يمكن أن يطمم عليه بعدُ فرعٌ كبير . »

واغتنبط المعلم لأنه وجد الفرصة لكي يقول لشرلوت كلاماً طيباً ، وأن يستجلب عطفها ورضاها من جديد ، في اللحظة التي رأى نفسه فيها مضطراً إلى توديعها . لقد طالت غيبته عن منزله ، ومع هذا فإنه لم يقدر أن يعقيد المزم على الرحيل إلا بعد أن اقتنع تمام الاعتقاد أنه لا يمكنه الأمل في قرار نهائي أبداً كان فيما يتصل بأوتيلي قبل أن تضع شرلوت . فأسلم أمره واستسلم للظروف ، وعاد بهذا الأمل والرجاء إلى المدير .

واقترَب ميماد وضع شرلوت . فازداد حرصها على التزام مخدعها وعدم الخروج . وكانت النسوة اللاتي اجتمعن حولها صحتبها الوحيدة في تلك العزلة وذلك الاعتكاف . ووقع عبء الشئون المنزلية على أوتيلي دون أن تكاد تفكر في الدور الذي تلعبه . والواقع أنها قد لاذت بالتسليم الكامل ؛ ورغبت في أن تتركس نفسها دائماً وبكل إخلاص وتفانٍ لخدمة شرلوت ، وابنها وإدورد ، لكنها ما كانت لتتبين كيف يمكن هذا أن يكون . ولم ينقذها من هذا البلبال التام ، إلا انكبابها على أداء واجبها كل يوم .

ومن ميمون جد البارونة أنها وضعت غلاماً ذكراً ، وافق النسوة على التصريح بأنه صورة كاملة من أبيه : أما أوتيلي فقد حملت في نفسها كلاً آخر ، حينما غدت تهنيء الواضع ، وتضم إليها الوليد الجديد بكل لطف ورقة . إن شرلوت حينما كانت تهنيء الترتيبات اللازمة لزواج ابنتها ، كان وقع غياب زوجها أليماً كل الألم في نفسها ، والآن لم يكن للأب أن يشاهد ميلاد ابنه ، ولم يكن له أن يحدد أى اسم سيختاره له !

وأول الأصدقاء الذين أقبلوا لتقديم التهاني كان متلر الذي كان قد وضع رقباء لإخباره بهذا الحادث من دون تأخير . أقبل وكان موفور السرور . ولم يستطع أن يخفى انتصاره في حضرة أوتيلي ؛ وعبر عن نفسه بصوت جهورى أمام شرلوت ، وكان رجلاً قادراً على تبديد كل بلبال ، وإزالة كل عقبة ؛ فلم يكن من الواجب تأجيل التفتيس . والقسّ الشيع الذي كانت إحدى قدميه في القبر سيموحّد بتبريكه بين الماضي والمستقبل ؛ وسيدعى الطفل باسم أوتو : فليس له أن يحمل اسماً آخر غير اسم الأب والصديق . وكان لا بد من حزم هذا الرجل وإصراره كيما يتيسر إزالة آلاف الصعوبات والاعتراضات وألوان التهاؤ والتردد ، والأفكار الأنسب ،

والآراء المتفاوتة ؛ والشكوك ، والأقوال والردود ونقائض الأقوال : إذ العادة في هذه الأحوال أن إزالة صعوبة يؤذن ميلاد أخرى جديدة ، وأن بعضاً من أنواع اللياقة يخالفه المرء وهو يحاول أن يراعيها كلها .

وكتب متلر بنفسه كل وسائل التعريف بالحادث السعيد . وكان لا بد من إرسالها بدون إبطاء ، لأنه كان هو نفسه يودُّ من أعماق قلبه أن يُبلغ العالم — الراغب في الإساءة والسُّلم أحياناً — نبأ الحادث السعيد الذي كان يَعُدُّه على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى الأسرة . والواقع أن العواصف التي أثارها العواطف حتى ذلك الحين لم يُخَفِّ أمرها على الجمهور ، هذا الجمهور الذي يعتقد أن كل ما يحدث إنما يحدث لسبب واحد هو أن يكون لديه شيء يقوله ويذيعه ويتحدث عنه !

وجرى الاحتفال بالتفطيس مهيباً رائعاً ، لكنه كان على هذا قصيراً مقصوراً على الأهل والأصدقاء الذين التأم جمعهم . وكان مقدراً أن يقدم متلر وأوتيلي الطفل على أنهما عرَّاباه ؛ فتقدم القسُّ الراعي الشيخ مستنداً إلى البواب بخطى بطيئة . ثم انتهت الصلاة ، ووضع الطفل على ذراعي أوتيلي ، ولما انحنت نحوه بلطف وحنان ، انتابها فزع غير قليل وهي تنظر في عينيه المفتوحتين ، لأنها خيَّلت إليها أنها ترى فيهما عينيها هي . وكان مثل هذا التشابه خليقاً باسترعاء نظر الكل . ومتلر من ناحيته حينما تلقى الطفل بعدها دُرْهشَ كذلك حينما وجد في قَسَماته مُشابهةً واضحةً بالسكاكين ، لم ير من قبل لها مثيلاً .

بيد أن ضعف القس الشيخ الطيب قد حال بينه وبين أن يضيف في هذا الاحتفال شيئاً إلى الليتورجية العادية . هنالك تذكر متلر — وقد امتلاً بموضوعه — مهنته القديمة ، وما اعتاده عادةً من التفكير وفقاً لما

يتيح الكلام والتعبير . وفي هذه المرة قلل من إحجامه أنه لم ير حوله إلا جمعاً صغيراً من الأصدقاء . لهذا فإنه عند ختام الحفل قام مقام القس ؛ وفي خطاب حتى عرض واجباته كمرآب وما يجيش في صدره من آمال توقف عندها طويلاً ، معتقداً أن شرلوت مغتبطة بما يقول ، كما يبدو على محياها . وكان بود الشيخ الطيب أن يجلس ، لكن الخطيب القوي لم يتنبه إلى هذا ، كما لم يخطر بباله أنه بسبيل إحداث ضرر أكبر ؛ لأنه بعد أن عبر بقوة عن صلات كل من الحاضرين بالطفل ، ووضع تجسّد أوتيلي في محبة قاسية ، اتجه إلى الشيخ ووجه إليه هذه الكلمات : « أما أنت ، أيها الأب الجليل ، ففي استطاعتك بعد أن تقول مع سمان : « ربّي ، دع عبدك يذهب في سلام ، لأن عيني أبصرتا منقذ هذا البيت » .

وكان متلر بسبيل ختم خطابه بطريقة براقة ، حينما لاحظ فجأة أن الشيخ — وقد قدّم إليه الطفل — لاح في البدء أنه يميل عليه ، لكنه سقط في الحال إلى الخلف . ولم يكد يُنهض من كبوته حتى وُضع على كرسى ، وبالرغم من كل الإسعافات السريعة ، مات حقاً .

إن رؤية الميلاد والموت يتواليان ، والمهد واللحد يتجاوران ، ولا ينفصلان ، وإدراك هذه التقاض الرهيبة لا بالفكر فحسب ، بل وبالعين أيضاً — كل هذا كان ذا وقع بالغ في نفوس الحاضرين ، وزاد من روعته مفاجئته . أما أوتيلي فكانت وحدها التي تأملت الشيخ بمين الحسد ، الشيخ الراقد محتفظاً بسمائه الأنيقة اللطيفة . لقد قضى على حياة النفس ، فلماذا يبقى البدن ؟ !

وإذا كانت الأحداث الحزينة في ذلك اليوم قد حملتها على التفكير في تفاهة الشئون الإنسانية ، وفي الانفصال والخسران ، فقد جاءها العزاء من

جانب رؤى ليلية أكّدت لها وجود حبيبها ، مما زاد في إنعاش وجودها
 هي وإشاعة القوة فيه . فقد لاح لها وهي راقدة في فراشها تهدهدها
 الأحساس المذبة ، بين النوم واليقظة ، أن نظراتها تنفذ إلى مكان أكمل
 أضاءه نور هادي رقيق . ورأت فيه إدورد بكل وضوح ، في ملابس لم تره
 عليه من قبل ، ملابس الجندي ، وكل مرة في وضعة جديدة ، ومع هذا
 فهو بطبيعته تماماً ليس فيها أى شئ ، خيالى ، أحياناً واقفاً وأخرى سائراً ،
 أوراقداً أو متمطياً جواداً . وكانت الرؤيا كاملة في كل تفاصيلها ، تتحرك من
 تلقاء نفسها أمامها ، دون أن تكون الفتاة في حاجة إلى أى فعل إرادى ،
 أو جهد يبذله خيالها . وآونة كانت تراه محوطاً بمختلف الأشكال المتحركة ،
 ذات اللون الكابى أكثر من الخلفية المنيرة ؛ بيد أنها تبينت بصعوبة
 خيالات لاحت لها من حين إلى حين على هيئة رسوم لأناس وخيول وأشجار
 وجبال . ثم نامت وسط هذه الرؤيا ، وحينما استيقظت فى الصباح بعد ليلة
 هادئة ، سرى إليها الانعاش وشاع في نفسها العزاء والسُّلوآن ؛ لقد
 أحست باقتناعها أن إدورد لا يزال حياً وأنها هي لا تزال وإياه في أجمل أحوال .

الفصل التاسع

وإلى الربيع أخيراً فانتفاً جذلاً ، فأبصرت فيه أوتيل نواياها : الزرع
 ينحصر في البستان مزدهرأ ، فى أنسب الوقت مغموراً بأزهار ؛ ووفرة من
 نبات ظل محتسباً ، بمشبر محكم التشييد مغروس ، قد صار فى الجو تحت
 الشمس منتعشاً ؛ وكل ما كان من همهم ومن عمل ، ما عاد من نصيب
 يغرى به أمل ، بل صار حقاً متاعاً موقفاً بهجاً .

ومع هذا فكان عليها أن تعزى البستاني عن أنواع الاضطراب التي أحدثها لوسيانة في أزهار الأواني ، وعن ضياع التماثل في تيجان كثير من الشجيرات . وقالت له إن هذا كله سيُصلَح من شأنه عما قريب ؛ ولقد كان ذا شعور عميق وفكرة صافية عن مهنته ، بحيث يتأثر بهذه التمازى . وكلا أبعد البستاني عن نفسه ما يصرفه عن ذوقه وميوله ، استمر السير الهادى الذى يتبعه النبات كما يصل إلى كماله الثابت العابر . إن النبات يشبه أصحاب الأهواء من بنى الإنسان الذين يمكن المرء أن يحصل منهم على كل شيء ، إذا عاملهم وفق ما تقتضيه طبائعهم . وما من إنسان كالبستاني يُطلب منه السهر بعين هادئة ، والانتباه الساكن المتصل من أجل عمل كل ما يلائم فى كل فصل وفى كل ساعة .

والرجل كان يملك هذه الصفات إلى أعلى درجة ؛ لهذا كان يلذ لأوتيل أن تشغف معه . بيد أنه منذ زمان لم يعد بعدُ يستطيع أن يمارس موهبته الخاصة بلذة وشغف . فهو إن كان يفهم جيداً كل ما يتصل بالبستان ذى الثمار والمبقة ، وكل ما تتطلبه حديقة من الطراز العتيق (لأن هذا الجزء أو ذاك يصلح أكثر من الآخر لهذا دون ذاك) ؛ وإن كان يحسن الإشراف على بستان برتقال والعناية بالأبصال ذات الأزهار ، والقرنفل وآذان الضيع إلى حد أنه يتيسر له أن يتحدى الطبيعة نفسها — فإن الأزهار المصرية وأشجار الزينة الجديدة ظلت غريبةً عنه بعض الشيء ؛ فإن ميدان علم النبات ، وهو يتسع باستمرار ، والأسماء الغريبة التي كانت تطن وترن في أذنيه كانت تحدث في نفسه نوعاً من الجزع والخوف . شاع الحزن في نفسه ولاح له أن ما بدأه سادته في العام الماضى من أعمال كأنه إنفاق في غير طائل وإسراف ، خصوصاً وقد رأى أن عدداً كبيراً من النباتات الثمينة لا يزال

ناقصاً ، حتى إنه لم يكن على وفاق كبير مع القاعين على المشابر لأنهم فيما يرى لم يكونوا يخدمونه بإخلاص ظاهر

هنالك ، وبعد محاولات عدة ، وضع تصميمًا شجعتهُ أوتيل على الاستمرار فيه ، لأنه أقيم على أساس عودة إدورد ، الذي كان غيابه ، في هذه المسألة وفي كثير غيرها ، يزداد سوء نتائجهُ يوماً بعد يوم .

وكما زادت جذور النباتات والأغصان ، ازداد شعور أوتيل بارتباطها بهذا المكان . لقد مضى عام كامل على مجيئها إليه في هيئة أجنبية غريبة ، وشخص لا قيمة له : لكن كم أحرزت منذ تلك اللحظة ! إنها لم تكن يوماً أكبر ثراء ولا أشد فقراً منها في ذلك اليوم ؛ وتوات هذه المواقف في غير انقطاع ، وتجوّلت في فؤادها ؛ ولم تجد لها دواءً خيراً من الانكباب على واجبات اللحظة الحاضرة بكل شوق وحماسة .

أما أن الأشياء التي تشوق إدورد أكثر من غيرها كانت موضوع عنايتها ، فهذا من اليسور تصوُّره ؛ ولماذا لا تأمل في عودته عما قريب ، حتى إذا ما حضر استطاع أن يلاحظ ، شاكراً ممتناً ، ما أدته هي من خدمات خالصة نحو الغائب النازح ؟

ثم إنها بذلت نفسها لخدمته بطريقة أخرى كذلك . فقد أخذت على عاتقها العناية بالطفل ، خصوصاً أنه لم يُعطَ ظئراً ، كما تقرر تغذيته بلبن مخلوط بشيء من الماء . وشاءوا في هذا الفصل أن يجعلوه يستنشق الهواء الطلق الصافي ؛ فكان يلذ لها خصوصاً أن تحمله إلى خارج البيت وتتربض به ، وهو نائم لا يأبه لكل ما يحيط به ، وسط النباتات ذوات الأزهار التي سيقدر لها يوماً أن تبتسم لطفولته ، وبين الشجيرات الفضة التي لاح أنها قدّر لها أن تنمو وإياه . وحينما كانت تجيل بصرها فيما

حواليها ، كانت تقدر جلال الشأن والغنى اللذين ولد فيهما هذا الطفل : فكل ما تبدى أمام نواظرها لا بد يوماً أن يدخل في حوزة ابن شرلوت . فكم كان مرغوباً فيه إذاً أن ينمو تحت عيني أبيه وأمه ، وأن يقوى اتحادهما وقد تجدد لحسن الحظ !

أحسّت أوتيلي بكلّ هذا على نحوٍ من الوضوح جعلها تتصور الأمر كأنه واقع ، ونسيت نفسها تماماً . وتحت هذه السماء الجميلة ، وعلى ضوء تلك الشمس الباهرة النور ، لاح لها واضحاً في الحال أن جها لا بد له ، كما يبلغ السكّال ، من أن يتحلل من كل نظرة نفعية ، وفي بعض اللحظات كانت تعتقد أنها بلغت فعلاً تلك الأعالى . إنها لم تكن تأمل في غير سعادة صديقتها ؛ واعتقدت أنها قادرة على العزوف عنه والزهد فيه ، بل وأن تفارقه إلى الأبد ، لو عرفت أنه سعيد . لكن عزمها قد انعقد تماماً على ألا تنتسب هي إلى أي فردٍ آخر .

وبذلت العناية اللازمة كيما يكون الخريف رائعاً روعة الربيع . فكل أزهار الصيف ، وكل تلك التي تنمو بدون توقف إبان الخريف ، وتزكو تماماً عند اقتراب زمان الصقيع ، والأسطير من كل الألوان ، كلها قد بُدِرت بوفرة وغزارة ، ثم نقلت إلى كل موضع ، فثلت على الأرض كأنها سماء مزينة بأبهى النجوم .

من يوميات أوتيلي

يلد لنا أن نسجل في يومياتنا فكرة جيدة قرأناها ، أو كلمة بارزة سمعناها ، بيد أننا لو عنيينا أيضاً بتدوين الملاحظات الخاصة ، والنظرات الطريفة والكلمات الحاذقة التي نجدها متناثرة في رسائل أصدقائنا ، لوفعلنا

هذا لصرنا أترىء بعد حين . إننا لنحتفظ أحياناً برمائل لا نقرأها من بعدُ أبداً ؛ ثم نمرّزّها أخيراً من باب الاحتياط ؛ وعلى هذا النحو يذهب إلى غير رجعة — بالنسبة إلينا وإلى الآخرين — أجل صفحة حياتهم وألصقتها بأعماق النفس . لذا أقترح لإصلاح هذا الإهمال .

أهكذا أيضاً قدر لنا أن نرى العام يستأنف تاريخه مرة أخرى ! وهانحن أولاء ، بحمد الله ، قد عُدتنا إلى أجل فصل فيه . والبنفسج وزنبق الوادى هما بالنسبة إليه كالصورة الأمامية أو التوشية الاستهلالية . وإننا لنشعر بإحساس لذيق حينما نراها من جديد ، ونحن نفتتح كتاب الحياة .

إننا لنزجر الفقراء ، خصوصاً الأطفال منهم ، الذين يتجولون ويتسولون على طول الطريق : أفلا نلاحظ أنهم يعملون ، حالما يكون هناك مجال للعمل ؟ لا تكاد الطبيعة تَفُضُّ كنوزها الجميلة ، حتى يُقبل الأطفال ليجعلوا منها صناعة : فلا يتسول أحدٌ بعد ؛ ويقدم كلٌّ منهم إليك باقة . لقد اقتطفها هو نفسه قبل استيقاظ الآخرين ، ويسم لك طالبُ الإحسان كما تبسم الهدية التي يقدمها إليك . لا يتقدم وفي وجهه المسكنة من يشعر بأن له حقاً في السؤال .

لماذا يكون العام حيناً قصيراً وآخر طويلاً ؟ لماذا يلوح هكذا قصيراً وطويلاً في الذكري ؟ هكذا تبدّى لي العام الماضي : ولم أتاثر في أى مكان قدر ما تأثرت في البستان من رؤية الفانى والخالد مترابطين . ومع هذا فلا طابرهما يكن يمر دون أن يترك أثراً ، دون أن يخلف عِدْله ونظيره .

في الشتاء أيضاً نوع من السحر . إذ يخيل إلينا أننا نفرّج عن نفوسنا

ونمتد بها بحرية أكبر ، حينما يمتد نظرنا خلال الأشجار المعرّاة . إنها قد صارت نوعاً من العدم ، لكنها أيضاً لا تخفى شيئاً . أما حين تظهر البراعم والأزهار ، فإن المرء لا يصبر على رؤية الأوراق تركو ، والنظر يتخذ كامل كيانه ، والشجرة صورة تقف دوننا .

كل ما هو كامل في نوعه يجب أن يتسامى إلى ما فوق هذا النوع ، يجب أن يصير شيئاً مغايراً لا يعدل له ولا مثيل . إن الليل في بعض أهاليجه لا يزال طائراً ، ثم لا يلبث أن يرتفع فوق صفه ، ويلوح كأنما يريد أن يرى جميع سكان الهواء ما هو الغناء حقاً .

إن الحياة بلا حب ، بالتقرب من المحبوب ، ليست إلا مسرحية هزلية متنافرة الفصول رديئة ، يُفتح الواحد منها بعد الآخر ، ويُفلق ليُنتقل إلى التالي . فكل ما يحدث من سعيد وخطير ضعيف الوشيجة موهون الرابطة . ويجب دائماً البدء بالبداية ، ويود المرء دائماً أن يبلغ النهاية .

الفصل العاشر

اطمأنت بشرلوت الحال وأخحت مسرورة البال ، تجد نعيمها في الطفل المرير الوسيم الذي كان يحياه المليء بالآمال شغلاً شاغلاً لعينها وفؤادها . فمن طريقه دخلت في صلات جديدة مع الدنيا ومع امتلاك الثروات ؛ فتنبه نشاطها القديم ؛ وأبنا تولت بيمينها ، رأت أن الكثير قد أنجز في العام الماضي ، فاعتبطت لاسم . وكانت تصعد ، متأثرة بشعور خاص ، إلى كوخ الطحلب مع أوتيل والطفل ، وحينما تضعه على المنضدة الصغيرة ، وكأنها

مذبح منزلى ، كانت ترى أن ثمت مكانين خاليين ؛ فتطوف بها ذكري
الماضى ، وترفأ أمامها وأمام أوتيل آمال جديدة .

ولعل الفتيات إذ يلقين عادةً نظرات خفريات إلى هذا الشاب أو ذاك ،
متسائلات سرّاً عما إذ كنّ يأملن فيه كزوج ؛ أما الرجل الذى يعنى بأمر
ابنته أو من يلى أمرها فيمتد ببصره إلى آفاق أبعد . وهذا هو أيضاً ما حدث
فى تلك اللحظة لشرلوت ، التى لم تر مستحيلاً أن تربط بين ابنة أختها والكاتب ،
وقد رأتهما جالسين الواحد إلى جوار الآخر فى هذا الكوخ . ولم تكن
تجهل أن الأمل فى الظفر بزواج موفّق قد تبدد وانقضى .

وتابعت شرلوت زهتها . وكانت أوتيل تحمل الطفل ، بينما انساقت
البارونة وراء أحلامها وتأملاتها . إن للأرض اليابسة أيضاً أنواعاً من
الفرق خاصة : ومن الجميل المحمود أن ينجو الإنسان بأسرع ما يمكن .
وعلى كل حال فليست الحياة إلا سلسلة من المكاسب والخسائر . ومن لم
يضع تصميماً ولم يره نهباً للاضطراب والفقدان ! وكم مرة لا نتخذ طريقاً ثم
نُصرف عنه ! كم مرة أرغنا إلى بلوغ غاية أسعى ، فشغلنا عن تلك
التي تعهدناها بعيوننا ؟ إن المسافر يرى — والأسف عملاً نفسه — إحدى
عجلاته قد تحطمت ؛ وعن طريق هذا الحادث السار يتفق له أن يظفر بمعارف
وصلات ما أسعدها وما أشد أثرها فى حياته كلها . إن القدر يحقق أمانينا ،
لكن على طريقته الخاصة ، كما يستطع أن يعطينا أشياء فوق أمانينا .

وسط هذه الخواطر وما إليها بلغت شرلوت الأعلى عند البناء الجديد ،
هنالك تأيدت هذه الخواطر كلها أبلغ تأييد : فالمنطقة المجاورة كانت أجمل
مما يظن ؛ وكل ما كان من شأنه إفساد الأثر ، وكل الأشياء الصغيرة
كانت بعيدة ؛ وجمال الريف كله ، وما أحدثته الطبيعة وأجراه الزمان تبدى

في كل صفائه وأعشى العيون ؛ والمغارس الفنية التي قصد بها إلى إكمال ما تعمرى وضم الأجزاء المختلفة علتها الحضرة وتملكتها النضرة .

وكان البيت نفسه صالحاً للسكنى ؛ والمنظر الذي يشرف عليه ، خصوصاً من الطوابق العليا ، متعدد الألوان إلى أبعد حد . وكلما اتجه البصر حوله ، اكتشف مفاتن جديدة . وكل من آثار بديعة لا بد أن تحدثها هنا ساعات النهار المختلفة والنور والقمر والشمس ! كل ما فيه يوحى بالرغبة في سكناه ؛ فاستيقظت في قلب شرلوت الرغبة في البناء والإنشاء ، وقد رأت كل الأعمال الرئيسية قد كملت . نجار ، صاحب أبسطة ، رسام يحسن العمل وفقاً للنماذج ووضع صبغة خفيفة : هذا كل ما كان مطلوباً ، كما يكون المنزل مهيئاً في وقت قليل . وأصلح السرداب والمطبخ توأماً : لأن البعد عن القصر القديم يحتم جمع كل الأشياء الضرورية في المنزل . وجلست السيدتان والطفل على الرابية ؛ ومن هذا المسكن تجلت أمامهما مواضع للنزهات غير منتظرة ، وكانهما بإزاء قاعدة للنظر جديدة ؛ وفي الجِواء الجميلة يتمتعان في رفقٍ من هذا الموضع العالي بهواء أكبر إنعاشاً ولطفاً .

والنزهة المحبوبة عند أوتيلي — وحدها ، أو مع الطفل ، — كانت أن تهبط إلى الدُّلَب بواسطة شِعب صريح يقضى من بعد إلى النقطة التي يرسو عندها أحد زوارق العبور . وكان يلذ لها أحياناً أن تتريض فوق الماء ، لكن بدون الطفل ، لأن شرلوت أبدت بعض المخاوف من هذه الناحية ؛ غير أن أوتيلي لم تتخلف عن زيارة البستاني كل يومٍ في حديقة القصر ، وأن تشارك — بحرص لطيف — في عنايته بتلاميذه ، هذه النباتات العديدة التي تحيا الآن في الهواء الطلق .

وخلال هذا الفصل الجميل ظفرت شرلوت بزيارة موفقة كل التوفيق

من جانب إنجليزى عرف إدورد إبان رحلاته ، والتقى به عدة مرات ، وتمنى رؤية المثآبر الجميلة التى أشيد بها أمامه كثيراً . وكان يحمل رسالة توصية من الكونت ، وقدم رجلاً هادئاً كل الهدوء ، لكنه لطيف المباشرة جداً ، بوصفه رفيقه فى السفر والطريق . وتجوّل فى المنطقة المجاورة ، أحياناً بصحبة السيدتين ، وأخرى مع البستانيّين والقناصين ، ومراراً عدة مع صديقه المرافق ، وبمض الأحيان وحيداً ، وكانت له ملاحظات تدل على أنه خبير بهذه الأعمال والمنشآت وهما و لها . وهو نفسه قد أمر بالقيام بكثير من نوعها فى أراضيّه . وكان متقدماً فى السن ، ومع هذا فقد كان يشارك مشاركة طيبة فى كل ما يزيد فى جمال الحياة ويُضفى عليها بهجة التشويق . وفى صحبته نعمت السيدتان أخيراً بكل ما تحتويه المنطقة المجاورة . إذ كانت عينه المثمرة تدرك كل الآثار ، وكانت لهذه المبدعات فى عينه لذة أكبر لأنه لم ير الإقليم من قبل ، ولم يكن يعرف كيف يميز بين ما كان من صنع الطبيعة وما أضافوه هم إليها .

ويمكن أن يقال إن ملاحظاته الفضل فى توسيع البستان وإغنائه . فقد كان يعرف مقدماً ما عسى أن تَعِدَ به الأغراس الناشئة . ولم ينس أنه بقعة يمكن أن تضاف إليها فتنة جديدة أو تحظى بجمال خاص . فكان يلفت النظر إلى ينبوع ، هنا ، يبتسّر حينما يطهر بأن يصير زينة لشطر كبير من الغابة ؛ وإلى كهف ، هناك ، لو أزيلت عنه الأنقاض ووُسِّع لكان مقاماً مريحاً فائتاً : ويكفى اقتلاع بضع أشجار لرؤية كتل هائلة من الصخر تتبدى هناك . وهنأ السادة على أنه لا يزال أمامهم الكثير ليعملوه ، وأوصاهم بعدم العجلة ، والاحتفاظ بلذة الترتيب والإنشاء للسنوات التالية .

يضاف إلى هذا أنه لم يكن ليشفلهم كثيراً أو قليلاً — فيما عدا الساعات التي تقضى في الاجتماع سوا ، لأنه سُفِل ، النهار كله تقريباً ، برسم الأوضاع الجميلة للبستان في غرفة مظلمة تحمل في اليد ، جامعا بهذا — لنفسه وللآخرين — ثماراً لرحلاته جميلة . وكانت عنايته بهذه الناحية منذ عدة سنوات في كل الأماكن الرائعة التي زارها ، وعلى هذا النحو ظفر بمجموعة بالغة الحسن والتشويق . وأرى السيدتين حافظلة أوراق كبيرة كان يحملها معه دائماً ؛ وأثار شوقهم إما بالرسومات أو بالشرح والتفسيرات . ولذا لهما أن يجتابا العالم هكذا برفق وسهولة وهما قابعتان في وُحدثهما ، وأن يريا الشواطئ والمرافئ والجبال والبحيرات والأنهار والمدن ، والقصور والكثير غيرها من الأماكن التي تحمل أسماء في التاريخ وهي تمر أمام نواظرهما .

ولكل من السيدتين في هذا لذةٌ مختلفة عن لذة الأخرى : فشرلوت كانت تتعلق خصوصاً بما هو عام ، بالأماكن ذات الذكرى والصيت ؛ أما أوتيلي فكانت تفضل البلاد التي أكثر إدورد من الحديث عنها ، أو أقام بها سعيداً ، أو تردد عليها مرارا . فلكل إنسان أقاليم — غربية أو نائية — تجتذبه وتلائم مزاجه الخاص ، بسبب الأثر الأول الذي كان لها في نفسه أو بسبب بعض الظروف والملابسات ، أو بحكم المادة وطول الإلف .

وأفضى هذا بأوتيلي إلى سؤال اللورد عن أى الأماكن أحب إليه ، وأنها يود أن يستقر به لو كان له الاختيار . هنالك أشار إلى كثير من الأقاليم الجميلة ، وقصَّ عليها بطريقة رقيقة عذبة ، في فرنسية غريبة النبرة ، ما جرى له في كل منها وجعلها حبيبة إلى قواذها .

لكنه حينما سُئِلَ عن المكان الذى يكثر المكث به عادة ،
والذى يود التردد إليه كثيراً ، أجاب بصراحة كاملة وعلى نحوٍ
دهشة السيدتين :

تعودتُ الشعور بأننى فى بيتى فى كل مكان أحِلُّ به ؛ وبالجملة يلذ لى أن
يبنى الآخرون ويفرسون ويقومون بشئون المنزل من أجلى . ولست
مستشعراً رغبة فى العود إلى أملاكى الخاصة ، لأسباب سياسية ، ثم خصوصاً
لأن ابنى الذى عملت من أجله كلَّ شئٍ وهيات له كل أمره وقدرت أن
أورثته كل شئ ، لا يجد لذة فى أى شئ من هذا ، وقد ارتحل إلى بلاد
الهند ، شأنه شأن كثيرين غيره ، كما يستخدم مواهبه وحياته على نحوٍ
أحسن أو يبددها ويُفنيها .

« الحق أننا نقوم بكثير من الاستعدادات للحياة . فبدلاً من أن نرضى
بمركز متواضع ، نطمع فى الكثير كما نزيد فى متاعبنا . فمن ذا الذى ينعم
الآن بنشئائى وبستانى وحدائقى ؟ لست أنا الذى أنعم ، وليس أهلى وحدهم .
إنهم الضيوف الغرباء والشغوفون بالاستطلاع والرحالة القَلِقون .

« بل بالرغم من وجود الكثير من الموارد ، لانشرع مطلقاً بأننا
مرتاحون إلا نصف ارتياح ، خصوصاً فى الريف ، حيث يعوزنا الكثير
مما تعودناه فى المدينة . فالكتاب الذى نحتاج إليه أكبر احتياج لانجده
فى متناول أيدينا ، وما هو ألزم إلينا ينسى ويُفعل . وإنما لنهياً دائماً
للانتقال من جديد ، وإذا لم يكن هذا من أثر إرادتنا وهوانا ، فإنه نتيجة
صِلاتنا وعواطفنا ، والأحداث والضرورة ، وليت شعرى أى شئ
آخر أيضاً ! »

ولم يقدر اللورد ما لحدثه هذا من أثر عميق فى نفوس السيدتين . ولم

من مرة يتعرض المرء لهذا الخطر ، حينما يستسلم لخواطر عامة ، حتى في جماعة يعرف المرء علاقتها ! ولم يكن جديداً على شرلوت أن ترى نفسها قد جُرِحَتْ هكذا عرضاً ، حتى من جانب أشخاص أصدقاء طبيبي النفوس . وفضلاً عن هذا فإن العالم قد انبسط بوضوح أمام عينيها ، فلم تعد تشعر بأى ألم خاص ، حتى لو اضطرها أحدهم - إن طيشاً أو سهواً - إلى التوجه ببصرها تلك الناحية أو هذه مما يؤلمها من الأماكن . أما أوتيلي فكانت على العكس من هذا ، بحكم شبابه الفقير في التجربة ، تحدس أكثر مما ترى ، وكان من حقها ، بل من واجبها أن تصرف نظرها عن كل ما لا تريد ومالا يجب عليها أن تراه ، فارتعت بواسطة هذه الاعترافات في أسوأ حال ؛ إذ تمزق القناع الجليل بمنفـر أمامها ، ولاح لها أن كل ما تم حتى الآن فيما يتصل بالبيت وملحقاته ، والحديقة والبستان وما حوالها ، كل هذا كان عبثاً لا طائل تحته إطلاقاً ، لأن الشخص الذى ينتسب إليه هذا كله لا يتمتع به . وكانت حاله كحال الضيف الموجود آنذاك بالقصر (اللورد) إذ اضطر بواسطة أهله وأقاربه ، وأعرأ أصدقائه ، أن يحيا في العالم حياة جـوالة شاردة ، مليئة بالأخطار . لقد كان ديدنها أن تُصنِّى وتُسكت ، أما هذه المرة فقد استشعرت أبشع القلق وأشد الجزع ، مما زاد ضراوة وعمرامة كلما أوغل الغريب (اللورد) في أحاديثه بهجة مستطرفة متحفظة .

قال : « أحسبني الآن في الطريق السوى » ، وأراني رحالة يعزف عن كثير من الأشياء لينعم بأخرى كثيرة . لقد اعتدت التغيير . بل صار حاجة عندي ، ومثل هذا مثل ما يحدث في الأوبرا حينما ينتظر المرء تزييناً ومناظر جديدة باستمرار ، لا لشيء إلا لأنه ظهر قبلها الكثير . إنى أعرف ماذا على أن أتوقعه من أحسن النزل ومن أسوأها . وسواء أكان جيداً

أم كريهاً ، فلست أجد عاداتي : وعلى كل حال فالنتيجة واحدة سواء أكان المرء أسير عادة ضرورية أو عبداً للصدفة ذات النزوات والأهواء . وأقل ما في الأمر أنني لا أستشعر الآن الحزن لرؤية هذا أو ذاك مفقوداً ، أو رؤية غرفتي المعتادة قد صارت غير قابلة للإقامة فيها بسبب الإصلاحات الضرورية ، أو مشاهدة فنجاني المألوف مكسوراً ، إلى حد أني لا أجد لذة في غيره . لقد تخلصت من كل هذه المتاعب . فإن بدأ المسكن في الاحتراق من فوق رأسي ، حزم أتباعي حقائبي بهدوء ، وجعلونا عن المنزل والمدينة . وإلى جانب كل هذه الزايا ، فإنني إذا أجدت الحساب رأيتني في نهاية العام لم أنفق أكثر مما لو كنت أفعل في منزلي الخاص .

في هذه اللوحة التي رسمها اللورد لم ترأوتيلي غير صورة إدورد ماثلة أمامها ؛ تبدو لها وسط المتاعب وألوان الحرمان ، وهو يجتأبُ الطرقات التي لم يسلكها إنسان ، وينام فوق المشب في الريف المنبسط محوطاً بالأفكار والآلام ، وخلال هذه الأطوار والأقدار يعتاد العيش بدون مأوى ولا أصدقاء ، والحرمان من كل شيء ، من أجل ألا يفقد شيئاً . ولحسن الحظ أن الجمع الصغير قد انفض شمله حين : فوجدت الحرية لكي تبكي وحدها على انفراد . وما من ألم مستور أثر فيها بعنف كهذا الذي رأيته ، واستزادته إيضاحاً ، بحكم العادة التي تلازمنا وتقضي علينا بأن نزيد في تعذيب نفوسنا إذا ما سلكنا ذلك السبيل الرهيب . وتمثلت إدورد في حال بائسة جديرة بكل رثاء ، حتى إنها عقدت عزمها على أن تعمل كل شيء لإعادة إلى ثلوت مهما كلفها هذا من ثمن ، وأن تخفي ألماً وغرامها في أعماق كهف ما من الكهوف ، وأن تخدع هذه العواطف بواسطة حياة مليئة بالأعمال والأشغال .

بيد أن رفيق اللورد ، وهو رجل حكيم متزن جيد الملاحظة ، تنبه إلى غفلة صديقه ، وكشف له عن تشابه الموقفين . وكان اللورد يجهل الأسرة ؛ لكن صديقه الذى لم يكن يشوقه شيء قدر الأحداث الغريبة التى تنشأ عن العلاقات الطبيعية والصناعية ، والنزاع بين القانون والمصيان ، والروح والعقل ، والوجدان والأفكار السابقة المتواضع عملها — هذا الصديق قد استطلع الأمر من قبل ، وأحاط به خبراً بعد وصوله القصر ، فاستبطن كُنه كل ما حدث وما لا يزال جارياً .

فاغتم اللورد ، لكنه لم يضطرب ولم يَحْزَنْ . وإن من الواجب على المرء منّا أن يمتص بالصمت المطلق فى المجتمع أحياناً ، كيلا يمجّد نفسه مرةً فى هذه الحال ؛ ذلك أن الملاحظات والأفكار التافهة شأنها شأن الملاحظات الهامة يمكن أن تؤدى إلى نشاز وتنافر مع مصلحة الأشخاص الحاضرين . « سنصلح الأمر هذا المساء ، هكذا قال اللورد ، وسنتجنب المسائل العامة والأقوال السكلية . فارّو للجماعة بعضاً من النواذر العديدة والأقاصيص اللطيفة الشائقة ، التى أغنيت بها فى رحلاتك حافظة أوراقك وذاكرك . » ومع هذا ، وبالرغم من أطيب النوايا ، لم يفلح الضيفان هذه المرة أيضاً فى صرف عقول السيدات بواسطة حديث لا ينطوى على أية مكيدة . فبعد أن أثار رفيق السفر الانتباه والمطف إلى أبعد حدّ بواسطة الأخبار الغريبة والرائعة والمرحة والمؤثرة والرهيبية ، رأى من واجبه أن يختم قصّة بمغامرة غريبة فريدة حقاً ، لكنها ذات طابع أرق وأهدأ ، ولم يقدر إلى أى مدى تمس هذه الرواية سامعيه عن قُرب .

الجاران الصغيران العجيبان

(أقصرصة)

طفلان من عليّة القوم : غلام وفتاة ، كانا جارين ؛ وكان تقارب عمرهما يدعو إلى التفكير في الربط بينهما يوماً ما ، فَتَرَكا بنموان سويّاً في ظلال هذا الأمل الجليل ؛ ومن كلا الجانبين كان الأهل ناعمين بفكرة هذا الارتباط في المستقبل . بيد أنه لوحظ عما قليل أن هذا المشروع لا يحمل أى سيماء للنجاح ، لأنه حدث بين هاتين الطبيعتين المتنازعتين نفور غريب . ولعل هذا أن يعود إلى وجود تشابه كبير فيما بينهما . وكان كلاهما منطويّاً على نفسه ، يعرف جيداً ماذا يريد ، ثابتاً في نواياه ، مقدّراً معزّزاً من لدات طفولته ، وكانا يتنازعان دائماً حينما يجتمعان معاً ، كل يبني نفسه ، ويهدم للآخر ما بناء حينما يتلاقيان ؛ ولم يكونا يتنافسان في السير نحو غرض ما ، لكنهما كانا دائماً يتنازعان حول الفرض الواحد ؛ وكلاهما طبع على الخير والمعروف لا يحمل لأحد حقداً ولا يضمّر له شراً ، اللهم إلا بالنسبة إلى بعضهما البعض .

وهذا الطبع الغريب تبدى أولاً في ألماهما الطفولية ؛ ونما بتقدم السنين . ولما كان الأولاد يلعبون دائماً لعبة الحرب ، فينقسمون إلى معسكرات ويديرون المارك ، فقد قامت الفتاة الصغيرة الشّجاعة الأَنُوف على رأس جيش حارب ضد الآخر بعنف وعناد حتى إن الفريق الآخر كان لا بد له من الفرار مسربلاً بالعار ، لولا أن المدو الخاص بالفتاة الصغيرة قد قاوم بكل شجاعة وبسالة حتى استطاع أخيراً أن يجردها من سلاحها

وبأخذها أسيرة . بيد أنها دافعت عن نفسها بجرأة ورباطة جأش ، حتى إن الفتى الصغير اضطر — كما يحفظ عيونها ولا يجرح عدوته — إلى خلع رباط رقبته وربط يديها خلف ظهرها .

لم تغتفر له هذا أبداً ؛ بل دبرت له سراً أعمالاً ومحاولات ومكائد بلغت حدّاً جعل الأهل — وقد كانوا يلاحظون منذ زمان هذه المواقف الغريبة — يَشْتَبِرون ويقررون الفصل بين هاتين الطبيعتين غير المتوافقتين ، وأن يتخلوا عن أعذب أمانهم .

وسرعان ما برّز الفتى في موقفه الجديد . فقد وُفّق في كل دراساته ودعاه مُحمّاه وميوله إلى الانخراط في سلك الجندية . وأينما وجد ، شمل بالحب والتقدير ؛ ولاح أن طبيعته الممتازة ما كانت لتعمل إلا من أجل لذة الآخرين وسعادتهم ؛ ودون ما شعور واضح ، كان سميداً لأنه تخلص من الخصم الوحيد الذي وجهته الطبيعية ضده .

والفتاة من جانبها قد سلكت في الحياة سبيلاً جديدة . فتقدم السن والتربية — وأكثر من هذا ، عاطفة لا ندرى لها اسماً — كل هذا قد جعلها تتجنب الألعاب العنيفة التي كانت تمارسها حتى ذلك الحين في جماعة الفتيان . وبالجملّة لاح أن شيئاً ما يعوزها ؛ ولم يكن ثمت من حولها ما يستحق أن يستثير كراهيتها ؛ كما لم تجد أيضاً من يليق بغرامها .

ولكن فتى أكبر سنّاً من الجار — خصمها القديم — ، طيب الأعراق وافر الثراء ممتاز الصفات محبوب من الناس ، مرغوب من النساء — قد كرّس لها كل عواطفه . وكانت هذه أول مرة أحاطها فيها صديق عاشق بعواطفه واحترامه . فتملقها هذا التفضيل لها على كثير من الفتيات اللاتي يلقنهن في التنشئة والمظهر ولهن ادعاءات أعرض . وأثر

في نفسها ما أبداه نحوها من اهتمام متصل بغير إقبال عليها ، ومن معونة صادقة في ظروف سيئة مختلفة ، ومساعد لدى أهلها ، كانت على صراحتها هادئة لا تعبر إلا عن آمال ، لأن الفتاة كانت لا تزال في طرأة سنّها . ثم ساهمت العادة والصلوات الصريحة التي أصبح معترفاً بها من الناس في جعلها تعتقد عزمها . لقد كان يطلق عليها مراراً لقب الخطيبي حتى إنها انتهت بأن تعتقد في نفسها بأنها خطيبي حقاً ؛ ولم تفكر مطلقاً كما لم يفكر أحد في أنه كان لا بد من امتحان جديد ، حينما تبادلت خاتم الخطبة مع من عُدد منذ زمان طويل زوجها المقبل .

كذلك لم يُعجّل بالسير الهادي الذي اتبعته المسألة كلها بواسطة هذه الخطبة . بل أبقى الطرفان الأمور تسير على نفس المنوال ؛ وكانا سعيدين سوياً ، كما رغبا في التمتع بالفصل الجميل ، بوصفه ربيعاً سيستهل حياة أكثر جدّاً وهموماً .

وفي تلك الأثناء كان الغائب (الجار) قد نُشئ خير نشئة ؛ فقد تقدمت به مواهبه في الفن الذي اختاره ، وأتى في إجازة لزيارة أهله . فلما صار من جديد في حضرة جارتة الجميلة ، أصبحت ماملاته معها طبيعية جداً ، ومع هذا غريبة . إنها لم تُنم في نفسها إبان الأيام الأخيرة إلا العواطف الرقيقة ، عواطف البنت والخطيبي ؛ وكانت على وفاق مع كل ما حولها ؛ واعتقدت أنها سعيدة ، وهي كانت كذلك على نحو ما . لكنها وللمرة الأولى منذ عهد بعيد لقيت مقاومة من جديد . ولم يكن هذا شيئاً يستثير البُغض ، لأنها أصبحت غير قادرة على الكراهية ؛ بل إن تلك الكراهية الطفولية التي لم تكن في الواقع إلا اعترافاً بالفضل غامضاً ، قد تجلت منذ الآن على هيئة دهشة سارة ، وتأمل عطف ، وتسامح وُدّي ،

وتقابل وتوفيق نصفه إرادى والآخر غير إرادى ، وهو مع هذا ضرورى . وكل هذا بالتبادل . وأدى الفراق الطويل إلى حديث طويل . وها هما وقد صارا عاقلين يجدان موضوعاً للمزاح فى ذكرى حماقات الطفولة : ولاح أنهما يريدان على الأقل أن يتناسيا تلك العداوة الماكرة بواسطة حسن المعاملة وطبيها ؛ وكأنه قد صار من واجبهما أن يعترفا صراحة بفضل أنكراه من قبل بإصرار وعناد .

ومن جانب الشاب ، بقى كل شئ فى وضع مقبول معقول : فحاله وصلاته وآراؤه الطامحة كانت تشغله إلى حد أنه تلقى دون تأثر شواهد الصداقة من جانب الخطيبي الجميلة ، كأنها تسلية لذيدة كان عليه أن يتأثر لها دون عود على نفسه ودون أن يحسد الخطيب على خطيياه ، وقد كان وهذا الخطيب على أتم وفاق .

أما لديها ، فقد جرت الأمور على نحو آخر . لقد اعتقدت أنها تستيقظ من حلم . ولقد كان صراعها مع جارها الفتى وجدانها الأول ، ولم يكن هذا الصراع العنيف فى جوهره — على هيئة مقاومة — إلا ميلا إليه عنيفاً يمكن أن يقال إنه فطرى مغروز فى طبيعتها . ولم تقل لها ذكرياتها شيئاً آخر إلا أنها كانت تحبه دائماً . وتبسمت لتلك التحديات التى كانت توجهها إليه وسلاحها فى يدها ؛ وزعمت أنها تذكر أنها استشمرت أجمل عاطفة حينما جرّدها من سلاحها ؛ وخيّل إليها أنها أحست بأكبر متعة حينما قيدها بالوثاق ، وكل ما فعله لإغضابها وإيذاؤها لم يبذل لها إلا كوسيلة بريئة لجذب اهتمامها إليه . ولعنت تلك القطيعة التى وقعت بينهما ؛ وناحت شاكية من الرقاد الذى تردّت فيه ؛ وأبغضت المادة الرخيصة الخداعة التى استطاعت أن تفرض عليها خطيباً عارياً من الفضل والناقب . أجل ، لقد

وجدت نفسها قد تغيّرت ، تغيّراً مضاعفاً ، قد عادت إلى حالها القديم ، أو صارت خَلْقاً آخر ، على أى نحوه شاء المرء أن يسمي ما حدث لها .

ولو استطاع إنسان أن يكشف عن عواطفها ، التى أبقت عليها مستورة تماماً ، واشتور معها بشأنها ، لما لامها وعرض لها بالنكير : لأنه لو رأى الشاين الواحد بجوار الآخر لأدرك أن الخطيب ليس من أكفاء الجار ولا يُدرك للجار شأواً . فإن كان المرء يستطيع إلى حد ما أن يثق بالواحد (الخطيب) بمض الثقة ، فإن الآخر (الجار) يوحى إليه بكامل الثقة والاسترسال ؛ وإذا كانت محبة أحدهما مقبولة ، فالآخر يأمل الإنسان فى صداقته وملازمته ؛ وإذا أفكر المرء فى تماطف من طراز أعلى وعواطف خارقة ، فإن أحدهما لعله أن يثير بمض الشكوك ، أما الآخر فالمرء يسلم إليه كل زمام نفسه .

وإن للنساء لإحساساً مرهفاً طيباً بهذه الأمور ، ولديهن الفرص لممارستها . ولما كانت الخطيبي الجميلة تنذى هذه العواطف فى أعماق سرّها ، ولم يكن أحد يجد مجالاً ليصور لها ما يمكن أن يقال فى صالح الخطيب وما يبدو أن القواعد الموضوعية والواجب يشير به ويحتّمه ، وما يلوح أن الضرورة اللازمة تصرّح بأنه لا مفر منه — لما كانت الحال على هذا النحو ، فإن ذلك القلب النبيل كان يزداد مناغة لأهوائه ومشاعره . ثم لما كانت هى قد ارتبطت بروابط لا تنفصم من جانب الناس والأسرة والخطيب ومواقفتها هى الخاصة ، بينا الشاب من ناحية أخرى ، وقد حلق وتجل ، لم يكن عواطفه وآراءه ونواياه ؛ وتبدى للفتاة فى مظهر الأخ ، الأكثر إخلاصاً منه ورقة وحناناً ، وجرى الحديث حول رحيله الوشيك — فإن الروح التى شاعت فى الفتاة إبان طفولتها لاح أنها تستيقظ ، بكل حيلها ومكاندها وعنفها ، وتهاهب لى تحديث ، فى دائرة أعلى شأنًا ، آثاراً أشد خطراً

وأبلغ إبداء . فقرَّ عزمها على الموت ، كيما تعاقب بدمم أكثراتها ذلك الذى أبغضته من قبل ، وهى اليوم تحبُّه بكل جوارحها . إنها لا تستطيع الظفر به ، ولهذا أرادت على الأقل أن تشغل خياله وندَمَه أبداً . إذ لن يكون فى وسعه أبداً أن يتخلص من شبحها الرهيب ؛ وسينثنى على نفسه بأشنع الملام والتثريب الأبدى لأنه لم يعترف بمواطنها ولم يراعها ولم يقدرها حق قدرها .

وطاردها هذا الهذيانُ التريب فى كل مكان ؛ فكانت تخفيه تحت صور لانهاية لها ؛ وعلى الرغم من أن الناس قد استرعتهم غرابتُها ، فإنه لم يكن ثمت أحد له من الانتباه والحصافة ما يسمح له باكتشاف العلة الحقيقية . بيد أن الأصدقاء والأهل والمعارف استنفدوا كل ما فى وسهم لإقامة حفلات من كل نوع ، فلا يكاد يمرُّ يوم دون تنظيم مفاجأة جديدة ؛ ولم يكن ثمت مكان جميل فى الإقليم لم يُزيَّن ويُهيأ لاستقبال حفل من الأصدقاء الجذَّلان . وأراد ضابطنا الشاب أن يقيم حفلة قبل رحيله ، فدعا الخطيبين مع عدد صغير من الأهل والأقارب إلى زهرة فوق الماء ، فركبوا زورقاً كبيراً جميلاً رائع الزينة ، من هذه اليخات ذوات البهو الصغير المحوط بالفُرَف والى تهىء للراكبين على الماء مسرات البر .

ومضى الزورق فى النهر على صوت الأغاني ، والثانى ؛ وخلال القبط كان الجمع فى البهو يُسلى باللامى ، وبالأعيب حظوظ وذكاء . ولم يحتمل الداعى أن يظل متعطلاً فجلس ممسكاً مقبض الدفة ليحل محل الملاح المعجوز الرائد إلى جواره ؛ وسرعان ما كان فى حاجة إلى استجراح كل فطنته ، لأنه اقترب من مكان تضيق فيه جزيرتان مجرى النهر بما لهما من شيطان واطئة كثيرة الحصباء تتقدم فى النهر ، مما يجعل المرور خطراً . فلما

قَلِقَ الملاحُ بعينه الساهرة كان بسبيل إيقاظ الرُّبان ، لكنه تجاسر وقاد الزورق في الممر الضيق . في تلك اللحظة ظهرت عدوته الجميلة فوق سطح الزورق مزينة بتاج من الأزهار ، خلعتة وألقت به إلى الملاح الشاب (الجار) ، وصاحت :

« خذه تذكراً ! »

— لا تشوثنى على عملي ، هكذا قال لها وهو يأخذ التاج ؛ إننى فى حاجة إلى كل قواى وحشد كل انتباهى .

— لن أشوش عليك بعدُ ، هكذا أجابته ، فلن ترانى عوضُ .

وما تفوهت بهذه الكلمات حتى هُرِعَتْ إلى جَوْجُو الزورق ، ومن فوقه قذفت بنفسها فى الأمواج . فارتفعت بعض الأصوات بالصراخ :

« أنقذوها ! أنقذوها ! إنها تَغْرَق . »

فكان فى أبشع حيرة . واستيقظ الملاح المعجوز على هذه الجلبة ؛ وأراد أن يمسك بالدفة ، وأراد الشاب أن يُسَلِّمَهَا إليه ، لكن لم يكن لديهما وقت لهذا التبادل : ففرق الزورق ، وفى الحال خلع الضابط ملابسه المضايقة وألقى بنفسه فى النهر .

الماء عنصرٌ مؤاتٍ لمن يعرفه ويعلم كيف يسوسه . لقد حمل السباح الماهر الذى عرف كيف يُخَضِّعه ، وسرعان ما بلغ الجميلة المحمولة أمامه ، وأمسك بها ، واستطاع أن ينتشلها ويحملها . وفى البدء جرفهما التيار سويًا بعنفٍ ، وأخيراً تركا الجزر والرمال بعيدة من خلفهما ؛ وبدأ النهر فى مجراه الواسع يسير برفق وهدوء . هنالك استعاد الضابط الشاب ثقته وأفاق من اضطرابه الأول الذى كان فيه يعمل من غير تفكير ، بطريقة آلية خالصة . رفع رأسه ، ونظر حواليه وسبحَ بكل قواه نحو ساحل مستوٍ ظليل يفتى

برقة في النهر ويبدو سهل المدخل . وإلى هناك حمل غنيمته الثمينة إلى البر .
 لكن الفتاة لم نبدُ عليها أية علامة على الحياة . وكان قد استولى عليه القنوط
 حينما أبصر طريقاً يسير خلال الشجيرات . فاستأنف حمله العزيز ؛
 وتبين بعد قليل مسكنا وحيداً ، فهرع إليه . هناك كان يقطن أناس
 طيبون ، كانوا زوجاً وزوجة . وسرعان ما تبين الشقاء والمحنة
 أمامهما . وما طلبه ، بعد تفكير قليل ، أجيب إليه . فأشعلت نار واضحة ؛
 ومُدتْ أغطية من الصوف فوق الفراش ؛ وأحضرت سريعاً قطع من الجلد
 والفراء وكل ما يغطي حرارة ؛ لقد تغلبت الرغبة في إنقاذ الفتاة على كل
 اعتبار آخر . ولم يترك شيء لم يعمل من أجل إعادة الحياة إلى هذه الأعضاء
 الجميلة التي كادت أن تتجمد . وأفلحوا في هذا . ففتحت عينها ؛ ورأت
 صديقها ، وأحاطته بذراعيها الفاتنتين ، وظلت على تلك الحال طويلاً . وسال
 فيض من العبرات أتم شفاءها .

« أتريد تركي ، هكذا صاحت ، الآن وقد وجدتكَ ؟

— أبدأ ، أبدأ ، هكذا صاح دون أن يدري ماذا يقول وماذا يفعل .
 لكن خَفَضَ عن نفسك ، خَفَضَ عنها من أجلنا سوياً .
 هنالك استعادت نفسها وأدركت حالها . ولم يكن في سماعها أن تشعر
 بأي اضطراب أمام عيني عاشقها ومنجّيها ، بيد أنها عُنِيَتْ بإبعاده ، كيما
 يفرغ للعناية بنفسه : لأن ثيابه كانت تنضج بالماء .

واشتور الزوجان : فقدم الزوج إلى الشاب ، والزوجة إلى الفتاة ثياب
 المرس التي كانت معلقة كلها ، وقد كانت كافية للإلباس زوجين من أعلى
 الرأس حتى القدم . وفي قليل من اللحظات كان الفريقان لا مَكْسِيَيْنِ
 فحسب ، بل ومزَيَّنَيْنِ أيضاً . أجل لقد تسربلا بالفتنة والجمال ، ونظر كل

إلى الآخر في اندهاش حينما تاب كلاهما إلى كامل رشده ، ثم ارتقى في أحضان الآخر بحماسة وحرارة ، دون أن يكتما ضحكهما من هذا اللباس الذى يرتديانه . لقد شَفَّتْها قوة الشباب وعَرامة الحب في لحظات ؛ ولو كانت لديهما موسيقى ، كَرَقَصَا .

من الماء إلى الأرض ، ومن الموت إلى الحياة ، ومن أحضان الأسرة إلى صحراء ، ومن اليأس إلى أعلى وَجْد ، ومن عدم الاكتراث إلى الحب والوجدان ، أى انتقال سريع مفاجئ ! . . . وأية رأس تكنى لهذا دون أن تتحطم أو تضطرب ! إنه من شأن القلب وحده أن يجعل مثل هذه المفاجأة مقبولة محتملة .

ولما فنى كل منهما فى الآخر لم يستطعيا التفكير — إلا بعد مدة طويلة — فى قلق وجزع هؤلاء الذين خلفاهم وراءهما ، ولم يقدرأ أيضاً على التفكير — دون قلق ولا بلبال — فى الطريقة التى سيظهران عليها أمامهم .
« أيجب علينا الفرار ، أم يخلق بنا الاختفاء ؟ هكذا قال الشاب .
— « سنبقى معاً » ، هكذا قالت وهى ترتقى ممسكة بجيبه .

والفلاح الذى علم منهما بأمر الزورق الفارق هُرع إلى الماء دون أن يطلب مزيداً من سؤال . ونزل المركب وجرى باسم الله ، وكان من العسير تخليصه . وتقدم القوم على غير هدى ، أملاً فى افتقاد الشاينين المفقودين (الشاب والفتاة) . وحينما استطاع ضيفهم أن بَلِّغَتِ اهتمامهم بصيحاته هُرع إلى مكان سهل المدخل ، ولما كان لم يتوقف عن النداء والإشارة ، وإشاراته ، فقد أبحه الزورق ناحية الشاطئ . أى منظر كان حينما رَسَوْا ! اندفع أهل الزوجين المُقْبِلِينَ أول من اندفع إلى الشاطئ . وكاد الحِطِيب العاشق أن يفقد وعيه . ولم يكد القوم يعلمون أن

الولدين العزيزين قد نَجَّوَا حتى خرجا من الحيلة في ثيابهم الغريبة . ولم يمكن تبييضهما إلا حينما اقتربا كل القرب . « من زرى ؟ » ، هكذا صاحت الأمهات . « ماذا زرى » ، هكذا صاح الآباء . وارتعى الشاب والفتاة الناجيان من الموج تحت أقدامهم .

« أنتم ترون ولديكما ! هكذا صاحبا ؛ أنتم ترون زوجين !
 — غفرانا ! غفرانا ! هكذا صاحت الفتاة .
 — امنحونا بركتكم ، هكذا قال الشاب .
 — امنحونا بركتكم ، هكذا قال مماً ، بينما بقي الجمع صامتا من الدهشة والذهول .
 — بركتكم ! » هكذا صاحاً المرة الثالثة .
 ومن كان في وسعه أن يرفضها لهم ؟

الفصل الحادى عشر

وتوقف الراوى ، أو بالأحرى أتمَّ قصَّه ، حينما أدرك أن شرلوت قد غلبها التأثير الشديد . فتهضت وخرجت ، معتذرةً بتحية صامتة . ذلك أن القصة كانت معروفةً لها . لقد كانت قصة الكابتن وجارقه له . ولم يكن الحادث قد جرى تماماً على النحو الذى رواه عليه الإنجليزى ، لكنه كان صحيحاً فى مجموعه : وكل ما حدث من تغيير هو أنه رُتِّب وزُين فى تفاصيله كما يحدث لهذه الأقاصيص حينما تنتقل من فم إلى فم ، ثم فى خيال القاصِّ ذى الذوق والروح . فبقى كل شيء ولا يبق شيء .
 وتبعته أوتيلى شرلوت ، وكان هذا دور اللورد هذه المرة لكي ينبّه

إلى ارتكاب حماقة من جديد ، رواية حادث معروف للأسرة ، بل ويعنيها .
 « لَنَاخُذْ حِذْرَنَا — هَكَذَا تَابِعْ حَدِيثَهُ — خَوْفًا مِنْ إِحْدَاثِ شَرِّ
 أَكْبَرَ . فِي مَقَابِلِ كُلِّ الْمَزَايَا وَالْمَلَذَاتِ الَّتِي نَنعمُ بِهَا هُنَا ، يُلَوِّحُ لِي أَنَّنَا نَهَيُّ
 الْقَلِيلَ مِنَ السَّرُورِ لِسَيِّدَاتِ الْقَصْرِ . فَلْنَسْمَعْ لَوْدَاعِهِمْ بِطَرِيقَةٍ مُنَاسِبَةٍ .

فَأَجَابَ الرِّفِيقُ : يَجِبُ أَنْ أَعْتَرِفَ بِأَنْ لَدَيَّ سَبَبًا خَاصًّا لِلتَّوَقُّفِ هُنَا ،
 وَأَنْنِي سَأُكُونُ مُفَضَّلًا إِذَا فَارَقْتُ هَذَا الْبَيْتَ دُونَ أَنْ أُتْبِنَ جَلِيَّةِ الْأَمْرِ
 وَأَتَوْضَّحَ . بِالْأَمْسِ ، يَاسِيدِي اللُّورْدِ ، حِينَمَا تَجُولُنَا فِي الْبَسْتَانِ وَمَعَنَا
 الْغُرْفَةُ الْمَظْلَمَةُ ، كُنْتُ مَشْغُولًا بِالْحَصُولِ عَلَى وَجْهَةٍ نَظَرِ فَاتِنَةٍ ، لِلْمُلاحِظَةِ
 مَا يَجْرِي إِلَى جَوَارِكِ . لَقَدْ ابْتَعَدْتُ عَنِ الْمَخْزَنِ الْكَبِيرِ ، كَيْمَا تَقْتَرِبَ
 مِنَ الْبَحِيرَةِ عِنْدَ مَكَانٍ قَلِيلِ الْمَزَارِ ، مِنْهُ أَبْدَى لَكَ الشَّاطِئُ الْآخِرُ مِنْظَرًا
 بَدِيعًا . وَتَرَدَّدْتُ أَوْتَيْلِي — وَكَانَتْ تَتْبَعُنَا — فِي اقْتِفَائِنَا ، وَطَلَبْتُ أَنْ تَذْهَبَ
 إِلَيْهِ فِي زُورْقٍ . فَأُبْجِرْتُ مَعَهَا ، وَأُعْجِبْتُ بِمَهَارَةِ الْمَلَاخَةِ الْجَمِيلَةِ .
 وَأَكْثَرْتُ لَهَا أَنَّهُ مِنْذُ مَقَامِي بِسُوسِرَةِ ، حَيْثُ تَقُومُ أَجَلَ الْفَتَيَاتِ بِمَهْمَةِ
 الْمُسَعَّدِيَّاتِ ، لَمْ أَهْدُ هَدًى فِي حَيَاتِي عَلَى الْمَوْجِ بِمِثْلِ هَذِهِ اللَّذَّةِ ؛ لَكِنِّي لَمْ
 أَسْتَطِعْ أَنْ أَقَاوِمَ رَغْبَتِي فِي سُؤَالِهَا عَنِ السَّبَبِ فِي تَقَادِيهِهَا اجْتِيَازَ هَذَا
 الْمُنْعَطَفِ ؛ لِذَا كَانَ فِي رَفْضِهَا نَوْعَ مِنَ الْاضْطِرَابِ وَشَيْءٍ مِنَ الْجَزَعِ .
 فَأَجَابَتْ بِلُطْفٍ : « إِذَا لَمْ تُرِدْ أَنْ تَضْحَكَ مِنِّي ، فَإِنْ فِي وَسْمِي أَنْ أُسَوِّقَ
 لَكَ بِمِضِّ التَّفْسِيرِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ فِي الْأَمْرِ سِرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ أَنَا نَفْسِي .
 لَمْ أَمُرُّ بِهَذَا النُّعْطِ يَوْمًا إِلَّا وَاسْتَوَلَتْ عَلَيَّ قَشْعِرِيرَةٌ غَرِيبَةٌ ،
 لَا أَسْتَشْعِرُهَا فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ وَلَا أَسْتَطِيعُ لَهَا فَهْمًا وَلَا تَفْسِيرًا : لِهَذَا
 أَفْضَلُ إِلَّا أُعْرَضَ نَفْسِي لِمِثْلِ هَذَا التَّأثيرِ ؛ خُصُوصًا أَنِّي أَحْسَسُ بَعْدَهَا فِي
 الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ مِنَ الرَّأْسِ بِأَلَمْ يَنْتَابَنِي أَحْيَانًا » . وَبَلَّغْنَا شَاطِئَ الْبَحِيرَةِ ،

وتحدثت أوتيلي إليك ، وفي تلك الأثناء زرتُ المكان الذي أشارت إليه بوضوح من بعيد . وكَم كانت دهشتي حينما اكتشفت في هذا المكان علامات واضحة على وجود فحم الأرض ، مما اقنعني بأنه بشئ قليل من الحفر يمكن العثور - على مدى من العمق ضئيل - على منجم وفير !

« اعذرني ، سيدي اللورد ، إنى لأراك تبتسم ، وإنى لأعلم جيداً إنك تشاهد بروح العاقل الصديق وتسامح ظاهراً حباً استطلاعى الحاد لهذه الأشياء التي لا تؤمن أنت بها أى إيمان ؛ لكن يستحيل على مفادرة هذا المكان ، دون أن أجرب على هذه الفتاة الجميلة ذبذبات الخطار (البندول) » .

ولم يكده الحديث يتناول هذا الموضوع ، إلا وقد وجّه اللورد اعتراضاته التي كان رفيقه يستمع إليها بصبر وتواضع ، مع إصراره مع هذا على رآيه ورغباته . وقال بدوره إنه لا يخلق بالمرء أن ييأس بسبب عدم نجاح هذه المحاولات عند كل إنسان ؛ وإن هذا على العكس سبب لدراسة الأمر بطريقة أعمق وأكبر جيداً : لأنه من المقطوع به أن كثيراً من النسب والروابط بين الكائنات اللاعضوية بعضها وبعض ، وبينها وبين الكائنات العضوية ، وبين هذه وبين نفسها أيضاً ستُكتشف بعد أن ظلت مستورة عنا حتى الآن .

وما هو ذا قد بسط جهازه المكون من حلقات من الذهب ومن الرقشيثا وغيرهما من المواد المعدنية التي كان يحملها معه دائماً في صندوق لطيف ؛ ولإجراء التجربة ربط قطعاً من المعدن معلقةً بخيوط فوق معادن وضعت وضماً أفقياً .

وقال : « أتأذى لك يا سيدي اللورد عن السرور الماكر الذي أقرأه

مرتبها على وجهك بسبب عدم ظهور أية حركة لدى ومن أجل نفسى .
ولهذا فليست عمليتي هذه إلا نوعاً من الذريعة : وحينما تعود السيدتان ،
سيدتان لمعرفة ما يحضره هناك من غرائب .

وعادت السيدتان . وفهمت شرلوت من أول وهلة حقيقة الأمر .
وقالت : « لقد سمعت عن هذه الأشياء ، دون أن أرى بعينى أى أثر ينتج .
فما دمت قد أعددت كل شئ أحسن إعداد ، فدعنى أحاول لعل أنجح
فى هذا » .

وأمسكت الخيط بيدها ، ولما كانت قد أخلصت نيتها فى التنفيذ فقد
أمسكته بثبات دون أدنى انفعال : لكن لم يشاهد أقل تذبذب . فدُعيت
أوتيلى من بعد إلى القيام بمحاولة . فأمسكت الخِطار بهدوء أكبر ،
وبساطة وبراعة أظهر ، فوق الماعان : وفى الحال ، جُرِف الخِطار وكأنه
فى دوامة ، وتبعاً لتغيير الماعان الموضوعة أسفله ، كان يدور حيناً من هذه
الجهة ، وأخرى من الجهة الثانية ، وآناً على هيئة دائرة أو قطع ناقص ،
أو كان يتذبذب على شكل خط مستقيم ، كما توقع الغريب (الرفيق) ، بل
وأبعد مما كان يتوقع ويخال .

ودُهِش اللورد نفسه ؛ ولم يجد ما يعبر به عن سروره وحماسته
لصديقه ، وتوسل إلى أوتيلى باستمرار أن تُعيد التجارب وتُسَوِّعها . فأراغت
هذا منه أوتيلى باللين ، لكنها فى النهاية رجته برفق أن يعفيها ، لأن
مَنَصَّها انتابها . فأكد لها ، وقد أدهشه الأمر بل وسَحَره ، أكد لها
بكل حماسة أنه سيشفئها تماماً من هذه المِلة ، إذا رغبت فى الوثوق فى
علاجه . فترددت لحظة ؛ بيد أن شرلوت التى حدثت فى الحال حقيقة
الأمر ، رفضت هذا المرض المُحَسِّن ، لأنها لم تشأ أن تحتفل فى محيطها

شيئاً أثار في نفسها دائماً المخاوف والبلبال .

وارتحل الغريبان ؛ وعلى الرغم من الأثر الغريب الذى تركاه ، فقد خَلَفَا وراءهما ألواناً من الأسف والرغبة فى رؤيتهما مرة أخرى . وأفادت شرلوت من جمال الأيام والجو لإتمام زيارتها فى الجيرة . وشق عليها إتمامها ، لأن الأقليم المحيط قد شهد لها بكثير من العطف والمحبة حتى ذلك الحين ، إما عن عاطفة صادقة ، أو متابعة للعادة الجارية . وفى القصر كان الغرباء يمدون طرباً وانتشاءً حينما يرون الطفل ، وقد كان بالفعل خليقاً بأرق الحب وأجمل العناية . لقد كان الناس يرون فيه ولداً خليقاً بالإعجاب ، يرويه معجزة خارقة ؛ وكانوا يتآمرون مسحورين قوامه وجمال تناسبه وقوته وصحته ، ومما زاد فى إدهاشه تشابهه المزدوج الذى كان يتجلى يوماً بعد يوم . ففياً يتصل بقسمات الوجه ومجموع الشكل ، كان الطفل دائماً أقرب إلى صورة الكابتن ؛ بينما كانت عيونه تقل تمايزاً من عيون أوتيل يوماً بعد يوم .

وقاد أوتيل هذا التشابه الفريد ، وأكثر منه هذه الغريزة النبيلة التى توحى للنسوة بعاطفة رقيقة نحو ابن الرجل العزيز ، حتى لو كان هذا الولد ابناً لامرأة أخرى ، قادها هذا كله إلى أن تصبح بالنسبة إلى الوليد الناشئ أمّاً ، أو بالأحرى نوعاً من الأم . فإذا ابتعدت شرلوت ، كانت ابنة أختها وحدها مع الطفل والظئر . ونانت ، وقد غارت على المخلوق الصغير الذى لاح أن سيدتها كرسَتْ له كل عطفها وحنانها ، قد ابتعدت عنه مُحنقةً ، ومنذ زمان طويل عادت إلى أسرتها . فاستمرت أوتيل تحمّل الطفل إلى الهواء الطلق ، واعتادت أن تقوم وإياه بنزّهات تزداد كل يوم طُولاً . وكانت تحمّل معها زجاجة اللبن الصغيرة لتمطيه غذاءه عند الضرورة .

وما كانت تنسى إلا نادراً أن تأخذ معها كتاباً ، فكان منظرها وهي تقرأ وترىض ، والطفل على ذراعها ، منظر « المُنْكَرَة » الجميلة ^(١) .

الفصل الثاني عشر

تحقق الغرض الرئيسي من الحملة ؛ فأخذ إدورد إجازة ، وقد كُـلِّل بأوسمة الشرف . فقد في التوُّ إلى الضيعة الصغيرة حيث وجد أخباراً دقيقة عن أهله أمر باستطلاعها دون أن يعلموا . ولاح له مستكشفه الهادئ هذا في أبهى مظهر ، لأنه أُجْـرِـبَ في غيابه ووفقاً لأوامره عدة ترتيبات جديدة وإصلاحات وأعمال ، إلى حد أن الأغراس والمlichkeiten قد أعاضت بالزخارف الداخلية ويُسر المُتَمَتِّع عما كان يعوز من سمة وأبهة . وإدورد ، بعد أن عَوَّـدَته السالك الندفمة التي يسلكها الجندي على الأعمال الحاسمة ، اقترح أن ينفذ الآن ما أفكر فيه طويلاً من قبل . فبدأ بأن دعا الماچور إلى جواره . فكانت فرحة لقاء ما بعدها فرحة . فإن لصداقات الطفولة كما للقرابة هذه الزية وهي أن ألوان النزاع وسوء التفاهم لا يمكن مطلقاً أن تغير فيها تغييراً عميقاً ، وأن العلاقات القديمة تستأنف سيرها بعد قليل من الزمان .

أحسن البارون استقبال صديقه وسأله عن تفاصيل مركزه الجديد ، وعرف منه أن الحظ قد حقق كل أمانيه . ثم سأله ، في شيء من الود لا يخلو من المزاح ، عما إذا لم يكن على وشك الارتباط بزواج سعيد . فأكد له الماچور انتفاء هذا بلهجة شاع فيها الجِد .

(١) لوحة مشهورة .

فتابع إدورد حديثه قائلاً : « ليس في رسمى وما أريد أن أخفي شيئاً ، بل على أن أكشف لك بلا أدنى تأخير عن مشاعري ومشروعاتي . إنك لتعرف وجداني الملهب نحو أوتيلي ، وفهمت منذ زمان طويل أنه هو الذي دفعني إلى القيام بهذه الحلة . فإنا بمنكر أني أردت بهذا أن أخلص من حياة لم تكن لها بدونها أية قيمة في نظري ؛ لكن يجب على أن أعترف لك في الآن نفسه أنني لم أقو على الإقرار باليأس نهائياً . فإن السعادة معها كانت من الجمال والتشويق بحيث استحال على أن أزهد فيها زهداً كاملاً . وثبتت يقيني وإيماني الجذّاب ، بإمكان ظفري بأوتيلي ، كثير من المناسم والرواسم ، والمحاييل والدلائل . فقد قذف بزجاجة ، نقش عليها رقمانا ، في الهواء ، حينما وضعنا الحجر الأساسى ، فلم تنكسر ؛ وتلقاها أحدهم ، وعادت إلى يدي . فصِحتُ في هذا المكان المنعزل الذى أمضيتُ فيه الساعات الطوال فريسة للشك والقلق : « أريد أن آخذ من نفسى علامة ، بدل الزجاجة ، كيما أعرف ما إذا كان ارتباطنا ممكناً أو غير ممكن . فارتحلت ، وسميت إلى الموت ، لا كجنون ولكن كإنسان يُرجى أن يعيش . وستكون الغاية التى أحارب من أجلها ؛ ففى التى آمل فى كسبها والظفر بها وغزوها من خلف كل كتيبة معادية ، ووراء كل استحكام وسور ، وفى كل مكان مُحاصر . وسأعمل المعجزات ، مع الرغبة فى أن أظل سليماً معافى ، آملاً فى الظفر بأوتيلي ، لا فى فقدانها » . وجهتني تلك العواطف ؛ وآزرتني خلال كل المخاطر ؛ لكننى مع هذا أجد نفسى الآن فى مركز رجل بلغ هدفه وتغلب على كل العقبات ، ولم يبق شيء يعترضُ بعدُ طريقه . إن أوتيلي هى لى ، والفترة التى تفصل بين هذه الفكرة وبين تنفيذها أستطيع أن أعدّها لا أهمية لها .

فأجاب الكاتب : إنك تمحو بقليل من الخطوط كل الاعتراضات التي يمكن بل يجب أن توجه إليك ، ومع هذا فلا مناص من تكرارها .
إني أدعك لنفسك تذكر كل قيمة الروابط التي تجمع بينك وبين زوجك ، وإنك لتدين لها ، كما تدين لنفسك أيضاً ، بالأخذع نفسك عن واجبك في هذا الشأن . وكيف أقدر على التفكير في أنك وَهَبْتَ طفلاً ، دون أن أصرّح لك في الوقت نفسه بأنكما تنقسمان لبعضكما بعضاً إلى الأبد ، وأنكما ، حباً في هذا الوليد ، مضطران إلى العيش سوياً ، كيما تعملان معاً في وفاق على تنشئته وإعداد مستقبله ؟

فاستأنف إدورد الحديث قائلاً : هذا من مجرد غرور الأهل : ظنهم أن وجودهم ضروري كل هذه الضرورة لأولادهم . إن كل ما يحيا يجد الموت والغناء ؛ وإذا كان الابن ، بعد وفاة أبيه وفاة مبكرة ، يقضى شبابه أقل سهولة ومتمعة ، فإن هذا قد يفيد في ممارسة أساليب الحياة والاستعداد لها ، عالمًا من أول الأمر أنه يجب أن يتعلم كيف يعامل الآخرين ، وهو الشيء الذي يجب أن يتعلمه إن عاجلاً أو آجلاً . فضلاً عن هذا فتلك ليست المسألة : إذ نحن من الغنى بحيث يتيسر لنا تهيئة مستقبل عدة أبناء . وليس من الواجب ولا من الإحسان أن نكدر كل هذه الأموال على رأس واحدة .

ولما كان الماحور بسبيل أن يصور لصديقه ، بكلمات قصار ، مناقب ثلوت وصلتهما المخلصة الطويلة الأمد ، قاطعه إدورد صائحاً :

« لقد ارتكبنا حماقة ، هذا هو ما أتنبئه جيداً . إن من يُرد ، في سن ما ، أن يحقق رغبات شبابه الأول وآماله ، يخطيء دائماً . ففي حياة الإنسان يوجد لكل فترة مكونة من عشر سنوات سعادتها الخاصة بها ،

وأمانها ونواياها الخاصة وبُهرًا لمن ألزمتها الظروف أو الأوهام أن يستبق أو يستأخر ! لقد ارتكبنا حماقة : فهل يجب أن يظل هذا الإثم رابضاً على حياتنا كلها ؟ أفيلزمنا ، بدافع وسُراس لست أدريه ، أن نُحَرِّم على أنفسنا ما لا تحرمه أخلاق العصر علينا ؟ كم من المسائل يرجع فيها الإنسان عن كل ما اقترفه وما فعله ؟ وهلا يكون هذا مسموحاً به ، خصوصاً حينما يتعلق الأمر بالكلِّ ، لا بالتفاصيل ، حينما يتصل لا بهذه أو تلك من أحوال الوجود ، وإنما بالوجود كله وبأكملة ؟ »

ولم يتوان الماچور عن أن يصور لصديقه ، بكل براعة وقوة معاً ، مختلف الاعتبارات الخاصة بزوجه ، وبالأمرتين ، وبالناس ، وبثروته ؛ لكنه لم يفلح في إحداث أى تأثير عليه .

« أى صديقي ، هكذا استأنف إدورد حديثه ، كل هذه الخواطر والاعتبارات قد تمثلت لعقلي في غبار المعركة ، حينما كان إرعاد المدفعية يزلزل الأرض باستمرار ، والقذائف تدوى بين أذني ، وإخواني في السلاح يتهادون مجندلين عن يمين وشمال ، وحينما قتل جوادى من تحتى واخترقت الرصاصة قلنسوتى ؛ أجل ، لقد شغلتنى هذه الأفكار في الصمت بالقرب من نيران المعسكر ، وتحت قبة السماء المرصعة بالنجوم . هنالك استعرضت كل تمهيداتي والتزاماتي ؛ وتأملتها وأحسست بها أعمق الإحساس ؛ واستقر ذهنى عند رأى ، وأخذت أهبطى مرات عدة ، والآن استقر عزمى نهائياً . وفى تلك اللحظات (ولماذا أكتملك أمر هذا ؟) كنت أيضاً حاضراً في خاطرى ، وكنت جزءاً من أسرتى : أولسنا من عهد طويل كأخوين ؟ وإذا كنت يوماً مديناً لك بشيء ، فإننى الآن في مركز يسمح لى بالوفاء بدينى مع الربا ؛ وإذا كنت أنت مديناً لى بشيء ، فأنت في حال تهى لك

دفع دينك . أنا أعلم أنك تحب شرلوت : وهي خليفة بهذا الحب ؛ وأعلم أنها ليست غير مكترثة لك . ولماذا تنكر فضلك ومناقبك ؟ خذها من يدي ، وهات لي أوتيل ، هنالك نصبح أسعد الناس .

— فقال الماچور : إنه بسبب إغرائك لي بهذه الهبة البالغة النفاسة ، بسبب هذا عينه يجب عليّ أنا أن أزيد في الاحتياط والثبات والإصرار . إن هذا المرّض الذي أقبله بالصمت الموقر ، يزد الأمر تمقيدا وصعوبة بدلا من أن يذله . إن الأمر لم يمد يتعلق بك وحدك ، بل وبى أيضاً ، ولا يتصل بالمصير وحده ، بل وبُسمعة رجلين وشرفهما ، وقد بقيا سليمين حتى الآن ، وهما بهذا العمل الفريب — إن لم نشأ أن ننعته بنعت آخر — يتعرّضان لخطر الظهور أمام الناس بمظهر بالغ العجب والغرابة .

— ولهذا السبب عينه ، وهو أننا سلبان من كل لوم ، هكذا أجاب إدورد ، فإن لنا الحق في أن نمرّض أنفسنا للوم مرة ما . إن من تجلّ طوال حياته كرجل شريف ليشرق عملا يمكن أن يبدو عند الآخرين مشوباً بالآثام . أما فيما يتصل بى ، فإننى — وقد فرضت على نفسى ما فرضت من محسن وخطوب ، وقت من أجل الآخرين بأعمال تنطوى على الإيلام والمخاطرة — أقول إننى أشعر بأن لي الحق في أن أعمل شيئاً أيضاً من أجل نفسى . أما فيما يخصك ، أنت وشرلوت ، فالزمان سيقدر قراره ؛ لكن لا أنت ولا أى إنسان سيحملنى على العزوف عن مشروعى . فإن مد الناس إلى أيديهم ، كنت مستعداً لكل المساومات والتوفيقات ؛ وإن شاؤا أن يتخلوا عنى لقواى وحدها أو أن يقفوا في طريق تصميماتى ، فسيحملونى على السير إلى النهاية ، مهما كان الأمر » .

ورأى الماچور أن من واجبه أن يعارض أطول وقت ممكن في مشروع

صديقه ، وامتحان لهذا بحيلة بارعة ، متظاهراً بالتسليم ، غير معارض إلا من حيث الشكل والإجراءات المؤدية إلى الطلاق وما يتلوه من زواج . فأظهر ما في هذا من متاعب ومصاعب ومثالب حتى إن إدورد بلغ منه الحنق كل مبلغ .

وأخيراً صاح : « إننى لأرى جيداً أن الظفر قهراً بما يرغب فيه الإنسان لا يتم بالنسبة إلى الأعداء وحدهم ، بل والأصدقاء أيضاً . فما أريده ، وما لا غنى لى عنه ، لا أصرف نظرى عنه ، وأعرف كيف استولى عليه ، فى التو والحال . أجل ، أنا أعلم أن مثل هذه العُقْد لا تنحل ولا تنعقد دون أن يرى المرء الكثير من الأشياء القائمة اليوم تنهار غداً ، ويتحطم أحياناً ما يود البقاء . وليس فى استطاعة التفكير أن ينتهى عند حد فى مثل هذه المسائل : فأمام العقل كل الحقوق متكافئة ، وفى الميزان الكفة الشائلة يمكن دائماً أن تحتل ثقلاً موازياً . صديقى ! قرّرْ إذن أن تعمل من أجل نفسك ومن أجل أنا ، بأن تحمل هذه العُقْد لصالحك وصالح نفسى . فَلْتَحُلُّهَا ولتَعْقِدْها من جديد . ولا يقفن فى سبيلك أى اعتبار . لقد جعلنا الناس يتحدثون عنا ، وسيستمرون فى هذا الحديث حيناً ثم ينسوننا ، شأن كل شئ تزول جدته ؛ وأخيراً سيدعوننا نعمل ما نستطيع ، دون أن يحفلوا بنا » .

ولم تبق لدى الماچور اعتراضات بعدُ يوجهها إليه ؛ فكان عليه أن يقبل فى النهاية أن يعالج إدورد المسألة علاجاً نهائياً ، بحسبانها مفروغاً منها ، حينما ناقش بالتفصيل كل الإجراءات التى يجب اتخاذها وتحدث عن المستقبل بكل هدوء ، بل وبلهجة فيها دعابة ومزاح . بيد أن البارون اتخذ مظهر الجد والتفكير وتابع الحديث على هذا النحو :

لو رُئِنا أن نُسَلِّم أنفسنا للأمل ، والافتناع بأن كل شيء سيعتري من تلقاء ذاته ، وأن الصدفة ستقودنا وتكون في عوننا ، فسنكون عندئذ فريسة لوهم آثم . فإننا إن سلكنا هذا السبيل لم نستطع مطلقاً إقناذ أنفسنا ولا إعادة الطمانينة إلى كلِّ منا . وأأتى لى أنا أن أجد السلوى ، وأنا السبب — من غير قصد — فى كل هذا ؟ فتحت ضغط إلحاحى حملتُ شرلوت على استقبالك وقبولك فى البيت ، ولم تَعُدْ أوتيلى إلينا إلا كنتيجة لهذا التغير . وما لنا طاقة بتبديل ما حدث عنه ، لكنَّ فى وسعنا أن نجعله بريئاً وأن نجد فى هذه العلاقات ينبوعاً لسمادتنا . فإن شئت أن تصرف العيون عن الآمال العذبة الجميلة التى أفتحتها أمامنا ؛ وإن رُئِمت أن تفرض على ، وعلينا جميعاً ، زهداً حزيناً ، لأنك تعتقد أن هذا ممكن وسيكون مقبولا محتملا ، أفلن تكون لنا ، بتصميمنا على العود إلى موقفنا الأول ، كثير من المتاعب والمضايقات والآلام التى سنعانها ، دون أن تكون لهذا كله أية نتيجة حسنة ودون أن ينشأ عنه أى خير أولدة ؟ وهل يكون للمركز السعيد الذى أنت فيه أىُّ جمال فى نظرك ، إذا ما مُسِنعت من رؤيتى والعيش ممي ؟ وسيكون هذا ، بعد كل الذى جرى ، شيئاً أليماً . إن شرلوت وأنا ، بالرغم من كل ثروتنا ، سنكون دائماً فى أسوأ حال . وإذا لَدَّ لك أن تعتقد مع غيرك من الناس ، أن البِيعاد والسنوات والزمان تخفف من حدة هذه العواطف ، وتمحو أمثال هذه الآثار ، فتدَّبر أن الأمر يتعلق بهذه السنوات عينها التى نود أن نقضيها فى السرور والنعيم لا فى الحرمان والبؤس الأليم . وأخيراً ، ولكى أصل إلى النقطة الحاسمة ، حتى لو كان مركزنا وعواطفنا تسمح لنا بالاعتصام بالصبر ، فإذا استؤول إليه حال أوتيلى التى يجب عليها آنذاك أن تغادر بيتنا ، وتعزف عن عوننا فى المجتمع ، وأخيراً أن تحيا حياة

ضالة شريفة بائسة ، وسط عالم ينطوى على الخبيث والشر والبرود وعدم
الاكتراث ؟ صورّ لي مركزاً يمكن فيه أن تكون سميدة بدوني ، بدوننا ،
هنالك تقدّمٌ إلى حُجّة أقوى من كل دليل ؛ وحتى لو لم أقو على قبولها
والتسليم بها ، فإنني أريد أيضاً أن أزيها وأدخلها في اعتباري وتقديري .
لم تكن هذه المشكلة ميسورة الحل . والشئ المؤكّد هو أن الصديق
لم يجد أى جواب مُقنع ؛ ولم يبق أمامه بعدُ إلا أن يصور من جديد
ويقوّم كم أن المسألة كلها خطيرة شائكة ، مخوفة بالمخاطر من عدة نواحٍ
وأنه لا بد على الأقل من إطالة التفكير بكل جدّ في وسائل التنفيذ .
فرأفاه إدورد على رأيه ، لكن مع هذا التحفظ وهو ألا يفكر صديقه في
مفادته قبل أن يصل إلى اتفاق تام في هذا الموضوع ، وقبل أن يخطو
الخطوات الأولى فيه .

الفصل الثالث عشر

لا يلبث أى شخصين ، كل منهما أجنبي عن الآخر ، أن يتبادلا الاعتراف
والأمرار حينما يحيان سوياً بعضاً من الزمان : فن المتوقع إذاً ألا يكون
بين صديقنا — وهما يعيشان سوياً تحت سقف واحد ويتحدثان معاً في كل
وقت — أى سر يخفى عن أحدهما . لقد كانا يراجعان في مرات عدة حالتهما
السابقة ، ولم يكتم الماحورُ صديقه أن أوتيلي قد اقترحت أن تربط بين
أوتيلي وإدورد حينما يعود من أسفاره ؛ ومن بعد فكرت في أن تخطفها عليه هو
نفسه . فاستطار إدورد الفرح من هذا الاكتشاف ، وتحادثا بدون تحفظٍ
عن الميل المتبادّل بين شرلوت والماحور ، ولما كان قد وجد في هذا مصلحة

له وعزماً على تحقيق أغراضه فقد صور هذا الميل في أزهى ألوان وأنصمها .
ولم يستطيع الماچور أن ينكر كل شيء . ولا أن يعترف بكل شيء ، بينما
ازداد البارون اقتناعاً بوجهة نظره يوماً بعد يوم . كان يرى الأمر ليس فقط
ممكناً ، بل وواقعاً . ولم يبق إلا أن يوافق كل شيء على ما ترغب نفسه وسهوى .
وكان من المؤكد إمكان الظفر بالطلاق ؛ وسيتلوه الزواج ؛ وفكر في السفر
مع أوتيل . ولعل أجل اللوحات التي يمكن الخيال الحلم بها هي تلك التي
يرسمها عاشقان ، زوجان ، يأملان في أن ينمها بارتباطهما الجديد في عالم جديد ،
وأن يمتحنا ويثبتا أواصرهما الأبدية بين أحداث متنوعة متغيرة . وفي تلك
الأنفء سيكون للماچور وأوتيل المقدرة التي لا حد لها والسلطان المطلق لتنظيم
وترتيب الأملاك والثروة وفقاً لما هو مأمول وعلى نحو عادل خليف بإرضاء
كل طرف . لكن الاعتبار الذي اطمأن إليه إدورد أكبر اطمئنان وأمل
منه أكبر فائدة هو أن الطفل ما دام سيق للأم فإن في وسع الماچور أن
يشرف على تنشئته وتوجيهه وفقاً لآرائه وتنمية قواه وملكانه . ولم يكن
عبثاً أن أطلق عليه في التفتيس اسم أبيه والماچور .

كان هذا كله من النضوج في ذهن البارون بحيث لم يشأ أن ينتظر
يوماً آخر للانتقال إلى مرحلة التنفيذ . وبينما هما في طريقهما إلى القصر بلغا
مدينة صغيرة يملك فيها إدورد بيتاً . فاقترح التوقف بها وانتظار عودة
الماچور . لكنه لم يقو على تنفيذ هذا الاقتراح في الحال والزول بها ، بل
رافق صديقه حتى نهاية المدينة ، وكانا على جوادين منشغلين بحديث جاد .
فتابعا طريقهما .

وشاهداهما فجأة من بعيد البيت الجديد فوق الراية : لقد كانت أول
مرة يرف فيها قرميده الأحمر أمام عيونهما . فانتاب إدورد قلق ولهفة

لا يستطيع لها دفعا ولا مقاومة . بل يجب أن يتم كل شيء . هذا المساء نفسه . وهو سيستتر في قرية قريبة كل القرب . ولا بد للهاجور أن يعرض الأمر على شرلوت بطريقة مُلحّة ، ويقاكيّ تقديرها ، وبواسطة هذا الاقتراح غير المتوقع يحملها على التصريح بعواطفها بإخلاص . ذلك أن إدورد الذي أعاره رغبته الخاصة كان مقتنعا بأنه يحقق أمان شرلوت الحقيقية ، وأمل منها في موافقة سريعة ، لأنه لم يستطع هو نفسه أن يريد شيئا آخر .

واستطارته الشوة فتوقع نتيجة سميعة . ولكي يستطلع الخبر في الحال ، أمر بالترصّد وبإطلاق بعض طلقات من المدفع ، أو إذا كان الوقت ليلا ترسل بعض السهمان النارية . وعدا الهاجور إلى القصر . لكنه لم يجد شرلوت ، وعلم أنها تسكن البيت الجديد ، بيد أنها كانت في هذه اللحظة تقوم بزيارة في البحيرة ، ومن المحتمل ألا تعود مبكرا إلى المنزل . فماد إلى النزل حيث ترك جواده .

بيد أن إدورد ، مدفوعا بقلق استولى على كل نفسه ، خرج خفية من مكانه متخذاً طرقاً منعزلة لا يعرفها إلا الفناصون والصيدون ؛ وبلغ بستانه ، وعند المساء كان في الصفة قرب بحيرته ، التي رآها لأول مرة في كل سعتها وامتدادها المستوى الشفاف .

وفي ذلك اليوم كانت أوتيلي قد قامت بعد الظهر برحلة إلى البحيرة ، حاملةً الطفل ، تقرأ وهي سائرة ، كما هي عادت . ووصلت حتى أشجار الزان ، في المكان الذي يُعبر عنده الماء . وكان الطفل غافيا ؛ تجلس ، ووضعته إلى جوارها ، وتابعت قراءتها . وكان الكتاب من ذلك النوع الذي يجذب القلب الحساس ولا يستطيع أن ينفصل عنه . فتسيت

أوتيل الوقت والساعة ، ولم تفكر في أنه كان لا يزال أمامها سير طويل لبلوغ البيت الجديد ؛ وكانت جالسة ، غارقة في قراءتها وفي أفكارها ، فأنته المنظر إلى حد أن الأشجار والشجيرات والخلائل المجاورة كان لا بد أن تكون حية وتصبح ذات عيون ، من أجل أن تُعجب بها وتنعم بحضرتها . وفي تلك اللحظة عينها تسرب شمع من الشمس خلفها وأضفى على خدها وكتفها لوناً ذهبياً .

وكان إدورد في تلك الأثناء يتقدم في سيره باستمرار ، موقفاً في تقدمه هذا من غير أن يرى ، واجداً بستانه خاوياً والريف الممتد قفراً . وأخيراً نفذ من خلال الشجيرات إلى أشجار الزان ؛ ورأى أوتيل ورأته ، فطار إليها وسقط تحت قدميها . وبعد توقف صامت طويل ، في خلاله حاول كل منهما أن يستفيق من اضطرابه ، شرح لها في كلمات قصار كيف أتى ولماذا . لقد أرسل الماچور إلى شرلوت ؛ وربما يتقرر مصيرهما المشترك في هذه اللحظة . إنه لم يشك يوماً في حبه ؛ وهي بكل تأكيد لم تشك أيضاً في حبها إياه : فتلمس منها موافقتها . فترددت ، خفها وتوسل ؛ وأراد أن يستغل حقوقه القديمة ويضغط عليها بين ذراعيه : فأشارت إلى الطفل لافتة نظره إليه .

نظر إليه إدورد مشدوها ، وصاح : « إلهي ، لو استطعت أن أشك في زوجي ، وفي صديقي ، لكان هذا الوجه شاهداً رهيباً ضدها ! أفليست هذه القسّمات قسّمات الماچور ؟ لم أبصر يوماً مثل هذه المشابهة القوية . — كلا ، هكذا أجابت أوتيل ، كل الناس يؤكّدون أنه شبيه بي . — أهذا ممكن ؟ » هكذا قال إدورد ، وفي اللحظة عينها فتح الطفل عينيه ، هاتين العينين النجلاوين السوداوين المليئتين بالتمبير والعمق

والعذوبة . لقد كان الطفل ينظر إلى الدنيا بشئ ، من الفهم ؛ ولاح أنه يعرف الشخصين المائلين أمامه . جالس إدورد إلى جوار الطفل ؛ ثم ركم مرةً أخرى أمام أوتيلي .

وصاح : « إنهما عيناك . آه ! دعيني لا أنظر غير عينيك دعيني أُسبَل قناعاً على الساعة الرهيبة التي ولد فيها هذا الطفل . أفكان على نفسك الطاهرة أن تخيفني بهذه الفكرة المشؤمة ، فكرة أن الزوج والزوجة ، وقد صارا غريبين الواحد عن الآخر ، يمكنهما ، في عناقهما المتبادل ، أن يدنسا رغبات مشبوبة رباطاً شرعياً ؟ لكن مادمنّا قد بلغنا هذا الحد ، وما دامت علاقائى بشرلوت يجب أن تُقطع ، وستكونين لى ، فلماذا لا أقولها ، لماذا لا أفوه بها تلك الكلمة القاسية ؟ إن هذا الطفل ثمرة زنا مزدوج ؛ إنه يفصلنى عن زوجتى ، ويفصل زوجتى عني ، وقد كان يجب أن يربط بيننا . فإذا كان يشهد ضدى ، وإذا كانت هذه العيون الرائعة يمكن أن تقول لعينيك إنى ، بين ذراعى غيرك ، إنما أنتسب إليك ، فادركى يا أوتيلي واستشعرى تماماً أننى لا أملك أن أكفر عن هذه الغلطة ، هذه الخطيئة إلا بين ذراعىك .

« سماعاً ! » هكذا صاح ، وهو ينهض فجأة .

لقد خُيِّل إليه أنه يسمع طلقة المدفع ، تلك العلامة التي كان على الماحور أن يعلنها . لكن الأمر كان أن أحد القناصين قد أطلق عياراً فى الجبل المجاور . ولم تَسَلْ هذه الطلقة أية طلقة أخرى . فانتظر فى قلقٍ لهيف .

هنالك فقط شاهدت أوتيلي أن الشمس قد اختفت وراء الجبال وكانت أشعتها الأخيرة لا تزال ترفُّ على الرابية ، وعلى نوافذ المنزل .

فصاحت : « ابتمد يا إدورد ! لقد فُرقَ بيننا زماناً طويلاً ، وتألنا حيناً طويلاً . واعتبر ما ندين به سوياً لشرلوت : فلها وحدها أن تقرر أمر مصيرنا ؛ ولا تضغط عليها . فأنا لك ، لو سمحْتَ هي بهذا ؛ وإلا فيجب أن أتركك وأعترف عنك . وما دمتَ تظن أن القرار قريب كل القرب هكذا ، فلنتظر . عد إلى القرية التي يظن الماجور أنك فيها . كم من أشياء يمكن أن تحدث وتقتضى التفسير ؟ أمسين المحتمل أن تعلم لك طلبة مدفع خشنة نجاحَ وساطته ؟ لعله أن يكون بسبيل البحث عنك الآن . إنه لم يجد شرلوت ، أعلم هذا . ويمكن أن يكون قد ذهب للقائها ؛ فن المحتمل أن يكون قد دُلَّ على مكانها . كم من فروض ممكنة ! دعنى . يجب أن أعود إلى البيت . إنها تنتظرني هناك أنا والطفل » .

كانت أوتيلى تتحدث بسرعة ، وقد تمتل كل الاحتمالات الممكنة . لقد كانت سميدة بجوار إدورد وأحست بأنها يجب أن تُبشِّده . أتوسل إليك وأستحلفك ، يا حبيبي ، أن تعود ، هكذا قالت . عد من حيث أتيت ولتنتظر الماجور .

« أنا مطيع أوامر » ، بهذا أجاب ، ملقياً عليها نظرة ملتبئة بالمعاطفة ، ثم ضاماً إياها بجمرة بين ذراعيه . فأحاطته بذراعيها وضغطت عليه برفق على قلبها . وخلق الرجاء على رأسها ، كنجم هوى من السماء . واستسلما للأحلام ، وظننا أنهما لبعضهما بعضاً ؛ ولأول مرة تبادلا قبلاً من اللهب ، تبادلاها بفزارة ، وحرارة ، ثم افترقا قسراً وبألم ومرارة .

وكانت الشمس قد غابت ، وانتشرت ظلال المساء ؛ وارتفعت أبخرة رطبة حول البحيرة ؛ فبقيت أوتيلى ساكنة ، يغلبها التأثر ويستولى عليها الاضطراب . ومدّت بصرها إلى البيت القائم على الرابية ، وخيّل

إليها أنها ترى شرلوت في الشرفة لابسة فُسْتَانًا أبيض . ولو ساحلت شاطئ البحيرة ، لكانت الشُّقَّة طويلة . وهي تعرف قلق الأم حينما تنتظر طفلها . وهامى ذى تشاهد أمامها أشجار الدُّلْب ؛ ولم يكن يفصلها عن الطريق المؤدى مباشرة إلى البيت إلا صفحة الماء ؛ وَخَيْلٌ إليها ، بنظرها وفكرها ، أنها فوق العُدُوَّة الأخرى من البحيرة . وهي في قلقها هذا اختفى أمام عينها خطر المقامرة بالإبحار على الماء . فَهَرَعَتْ إلى الزورق ؛ ولم تشعر بأن قلبها يخفق ، وأن قدميها تترنحان ، وأنها على وشك السقوط من فرط الإعياء . فقفزت إلى الزورق ، وأمسكت بالمجذاف ، وأسندته إلى الساحل . إنها في حاجة إلى مجهود ، فضاعفت جهدها ، وترجَّح الزورق وانساب قليلا إلى الأمام . وكان الطفل على ذراعها اليُسْرَى ، والكتاب في يدها اليسرى ، والمجذاف في يدها اليمنى ، فترنحت هي أيضاً وسقطت في الزورق . فأفلت المجذاف من يدها ، ولما حاولت النهوض ، أفلت الكتاب والطفل ، وكل هذا سقط في الماء ! ... إنها لا تزال تمسك بـعلائس الطفل ، لكن وضعها العسير غير الملائم حال بينها وبين النهوض . ويدها اليمنى ، وقد صارت فارغة ، لم تكف لمساعدتها على العود والوقوف . وأخيراً استطاعت النهوض ، وجذبت الطفل من الماء ، لكن عينيه كانتا مغلقتين : لقد توقف عن التنفُّس .

في هذه اللحظة استمادت كل حضور ذهنها ، فكان ألماها كأبلغ ما يكون الألم . تقدم الزورق إلى منتصف البحيرة تقريباً ، بينما المجذاف يطفو بعيداً ؛ وهي لا ترى أحداً على الشاطئ ، بل ماذا يفيدها أن ترى أحداً ؟ فطففت ، مفصولة عن كل شيء . على هذا العنصر الخائن النيمع (الماء) .

تفقدت المونَ في نفسها . وكانت كثيراً ما سمعت عن وسائل إنقاذ الفرقى . بل هي قدرأت في مساء الاحتفال بعيد ميلادها حالة من هذا النوع . نخلت عن الطفل ملابسه . وجففته بشوبها الموصلى ؛ ومزقت الثياب التي تغطي صدره ، للمرة الأولى عرضته للهواء الطلق ؛ ولأول مرة نضم إلى صدرها الأبيض كائناً حياً ... كلا ، ويا حسرتاه ! إنه لم يكن حياً بعد ! إن أعضاء هذا المخلوق المسكين قد تجمّدت ، وجثتها هي الأخرى إلى أعماق قلبها . فانهمل من عينيها سيلٌ من الدموع ، أضفى على سطح هذا الجسد المتصلّب مظهر الحرارة والحياة . فلم تتراخ مطلقاً ، ولقت الطفل بشالها ، ودلكته ومسحت عليه ونفخت فيه بأنفاسها وهي تغطيه بقبلاها وعبراتها ، وخيّل إليها أنها تعوّض عن المساعدات التي حُرمت منها في هذه الوحدة والعزلة .

جهود لا غناء فيها ! رقد الطفل بلا حراك بين ذراعيها ، وبقي الزورق بلا حراك على سطح الماء . لكنها هنا أيضاً وجدت عوناً في نفسها الجميلة : أدارت نظراتها ناحية السماء ، وجثت على ركبتها في الزورق ، ورفعت الطفل المتجمّد بذراعيها من حلقه البريء الذي كان لونه ، وكذلك بروده ، ووا أسفاه ، كلون الرمر . فتوجهت بنظرها المتبليلة نحو السماء ، وسألت المون من ذلك الملاذ الذي ترجو النفوسُ الرقيقة منه الكثير ، حينما لا تجد لها مدداً في أى مكان آخر . ولم يكن عبثاً أن ولت وجهها قبّل النجوم التي كانت قد بدأت تلعب في السماء واحدة تلو أخرى : فهبّ نسيمٌ رقيق دفع الزورق إلى أشجار الدُّلب .

الفصل الرابع عشر

ما تريثت أن قصدت البيت الجديد ، ودعت الجراح وأعطته الطفل .
جرب هذا الرجل المحتك أنواع العلاج العادية واحداً بعد واحد في هذا
الجسم الرقيق . وعاونته أوتيلي في كل شيء ، وهيات له كل ما كان في حاجة
إليه ، وتمجلت وكأنها تحيا في عالم آخر ؛ لأن الشقاء الأكبر كالنعيم الأكبر
يبدل وجه كل الأشياء .

ولم تنادر غرفة ولادة شرلوت حيث جرى كل ما جرى إلا حينما
جرب هذا الرجل الحاذق كل شيء ثم هز رأسه ، وظل صامتا لا يجير
جوابا على أسئلتها المليئة بالأمل ، ثم أجاب أخيرا بكلمة « لا » خفيفة ؛
لكنها لم تكذب تدخل عرفة الاستقبال حتى خرت منهوكة قبل أن تستطيع
بلوغ الأريكة ، ووجهها منبطح فوق السجادة .

وفي اللحظة عينها سمع صوت عربة شرلوت وهي عائدة بها . فاستحلف
الجراح الحاضرين أن يبقوا . وأراد هو أن يذهب للقائها ، وأن يهيئها لسماع
النبا الفاجع ؛ لكنها كانت قد دخلت مخدعها ، فوجدت أوتيلي راقدة على
الأرض ؛ ومهرعت إحدى الوصيفات إلى سيدتها وهي تبكي ونصرخ .
وحضر الجراح : فعرفت كل شيء دفعة واحدة . لكن لماذا تتخلي عن
كل أمل فجأة ؟ إلا أن الرجل المحتك (الجراح) ، الماهر الحكيم ، توسل
إليها ألا ترى الطفل ؛ فابتعد ، ليومها بإعدادات وتحضيرات جديدة .
فألفت بنفسها على الأريكة ، وكانت أوتيلي لا تزال مجدلة على الأرض ،
مستندة إلى ركبتى خالتها ، وكانتا تمسكان رأسها الجميلة وهي مائلة ؛ وكان

الصديق العالم يندو ويحيى ؛ ويلوح عليه أنه يُعنى بأمر الطفل ، وهو في الواقع إنما يعنى بحال السيدتين . وقارب الوقتُ منتصفَ الليل ؛ وساد في البيت شيئاً فشيئاً صمتٌ كصمتِ الموت . ولم تعد شرلوت تخفى عن نفسها بعدُ أن الطفل لن يعود أبداً إلى الحياة . وسألت أن تراه ، وكان قد سُجِّسَ في لفائفِ ساخنة من الصوف ؛ وأُرْقِدَ في سَلَّةٍ وُضِعَتْ إلى جوارها على الأريكة ، وكان الوجه هو وحده المكشوف ، فبدا ساجياً بكلِّ جماله .

وما كادت القرية تسمع نبأ هذه المأساة حتى سرت فيها الحركة ، وفي الحال انتشرت الضجةُ حتى النُّزُل . فدار المايجور ، وقد ركب وسار في الطريق المعروفة ، حول البيت ، وأوقف أحد الخدم ، وكان ذاهباً لإحضار شيء من السكن المجاور ، وسأله عن التفاصيل وجعله يطلب من الجراح أن يخرج . ودُهِشَ الجراح حين رأى حاميه القديم ، وأنباء جلية الأمر ، وتكفَّلَ بتهيئة شرلوت لاستقباله . فماد الجراح وتَنَقَّلَ من موضوع إلى موضوع واقناده الخيال من مسألة إلى أخرى ، واستطاع بهذا أن يستحضر في فكر شرلوت هذا الصديقَ المَطُوفَ دائماً ، القريب إلى نفسها أبداً بالقلب والروح . وهيماتها هذه الخواطر والأفكار للعود إلى الواقع . وبالجملة عرفت أن صديقها على بابها وأنه عرف كلَّ شيء ويريد رؤيتها .

دخل المايجور ، فاستقبلته شرلوت بابتسامة أليمة . كان مانثلاً أمامها ، فرفمت الغطاء الحريري الأخضر الذي كان يغطي البدن ، وعلى ضوء شَمْعَةٍ خافت ، رأى — في شيء من الفزع المشعور — صورته هو نفسه وقد جَمَدَها الموت . فأشارت إليه شرلوت بالجلوس ؛ فصارا الواحدُ قبالَةَ الآخر ، وعلى هذا النحو أمضيا الليل في صمت . وكانت أوتيلي لا تزال راقدة بلا حراك على ركبتي خالتها ؛ تنفَسُ بهدوء ، ونامت أولاح أنها نائمة .

وتنفس الصبح ، وانطلقا النور ، وبدا الصديقان كأنهما يستيقظان من حلم رهيب . فنظرت شرلوت إلى الماچور وقالت له بلهجة هادئة .
« اشرح لى ، أيها الصديق ، بأية مشيئة للسماء أتيت هنا تشارك فى هذا المنظر الحزين ! » .

ألقت عليه هذا السؤال بصوت خفيض فأجابها بلهجة مماثلة ، وكأنهما خشيا أن يوقظا أوتيلى :

« ليس هذا زمان التحفظ والتلميح والمداراة ولا مكانها . وإن الموقف الذى أجده فى لمن الرهبة والترويع بحيث يجعل الموضوع الهام الذى أتيت من أجله إلى هنا يفقد أمامك كل فائدته » .

هنالك صرّح لها ، ببساطة وهدوء ، بالفرض من رسالته ، بوصف أن إدورد قد أوفده ، والفرض من وصوله ، بحسبانته قد جاء بمحض إرادته ولمصلحته هو . وعرض هذه النقطة وتلك الأخرى بكثير من اللباقة ، ومع هذا فبكل إخلاص . فأصفت إليه شرلوت بهدوء ، ولم يبدُ عليها دهشة ولا سخط .

ولما انتهى الماچور من حديثه أجاب بصوت هامس ، حتى اضطر لتقريب كرسيه :

« لم أوجد يوماً فى موقف كهذا ، لكننى فى مثل هذه الظروف الخطيرة كنت أقول دائماً لنفسى : وغداً ، ماذا سيكون الأمر ؟ وإنى لأشعر جيداً بأن مصير كثير من الأشخاص قد صار الآن بين يديّ ، ومايجب على أن أفعله لا بدع عندى أى شك ، وسأقوله فى التو . إننى أوافق على الطلاق ، وكان على أن أقدر هذا قبل الآن . ولقد قتلتُ طفلى بترددى ومقاومتى . إن تمت أشياء يحتفظ القدر بها لنفسه بإصرار وعناد . وعبثا يحاول العقل

والفضيلة ، والواجب وكل ما هو مقدس أن يعترض طريقه إذ لا بد أن يتم قضاؤه وتنفيذ مشيئته ، لا بد أن يقع ما هو عادل في نظره ، وما ليس عادلاً في نظرنا نحن ، وينتهي المصير بأن يتحكم وحده بكل سلطانه ، تاركاً إيانا ننطح الصخر برءوسنا في غير طائل .

« لكن ماذا أقول ! إن المصير لا يريد إلا تحقيق أمنيته أنا ، ورغبتى الخاصة ، اللتين عملت أنا ضدّها في غير حكمة ولا بعد نظر . أفلم يخطب فكري إدورد على أوتلي ، بحسبانهما زوجين خلق كل منهما للآخر ؟ أفلم أسمع أنا للتقريب بينهما ؟ وأنت ، يا صديقي ، أو لم أطلعك على سر نياتي ؟ لماذا لم أستطع أن أميز نزوة إنسان من الحب الحقيقي ؟ لماذا قبلتُ يده ، ولو كنت بقيت صديقه لكنت مصدراً لسعادته وسعادة زوجة أخرى ؟ انظر إلى هذه البائسة الناعمة ! إن فرائضي لترتد حينما أفكر في اللاحظة التي ستستيقظ فيها من هذا الرقاد المُخدر وتعود إلى صوابها . كيف يتسنى لها أن تعيش ، وكيف تسلي ، إذا لم تستطع أن تأمل في تمويض إدورد بحبها عما انتزعته منه ، كأداة لأغرب أنواع المقادير ؟ إنها تستطيع أن ترد إليه كل شيء ، إذا حكمت بما تحمل له من تعلق ووجدان . وإذا كان الحب يستطيع أن يحتمل كل شيء ، فهو يمكنه أيضاً بالأحرى أن يموّض عن أي شيء . أما فيما يتصل بي أنا ، فلا يجب أن تفكر في هذا الآن .

« فارق بلا ضجة ، عزيزي الماچور . قل لإدورد إنني أوافق على الطلاق ، وإنني أدع له ولك ولتلك العناية بالمسألة كلها ، وإنني خالية من القلق على مركزى في المستقبل ، وأستطيع أن أكون كذلك من كل وجه . سأوقع كل الأوراق التي تعرضونها عليّ ؛ لكن لا يطلبن أحدٌ

مساعدتى ولا رأى ولا نصائحى» .

فنهض الماجور . ومكّدت إليه شرلوت يدها من فوق أوتيلى ، فضم إلى شفقيته هذه اليد العزيزة .

« وفيما يتصل بى أنا ، ماذا أستطيع أن أسأل ؟ هكذا قال هامسا .

— اسمح لى بأن أدعك تنتظر جوابى ، هكذا قالت له شرلوت ؛ لم نستحق الشفاء بخطأ اقترفناه ؛ لكننا أيضاً لم نستحق أن نكون سعداء معا » .

فضى الماجور ، مشفقاً على حال شرلوت فى أعماق فؤاده ، دون أن يستطيع الرثاء لحال الطفل الميت المسكين . فإن هذه الضحية بدت له ضرورية لسعادتهما المتبادلة . وتمثل أوتيلى وهى تحمل بين ذراعيها طفلاً لها ، بحسبانه أحسن عوض كامل عن ذلك الذى سلبته إدورد ؛ وتصوّر على ركبتيه هو نفسه ابناً سيكون صورة له صادقة أكثر بكثير من ذلك الآخر .

تلك كانت التصاوير والآمال المعسولة التى شغلت باله حينما عاد إلى المنزل فالتقى بإدورد ، وكان ينتظر الماجور طول الليل فى العراء ، دون أن يعلم سهم نارى أو طلقة عن نجاح موفق . لقد كان يعرف الكارثة التى حلت ، لكنه بدلاً من أن يأسف على هذا المخلوق المنكود عدّ هذا الحادث منحة من السماء أزاحت فى الحال كل عقبة فى سبيل سعادته ، وإن لم يشأ أن يصرح بهذا لنفسه . لهذا لم يبذل الماجور ، حينما أعلن له فى التو قرار زوجته ، أى جهد فى حمله على العود إلى القرية الأخرى ، ومن هناك إلى المدينة الصغيرة حيث اقترحا أن يتناقشا ويحضرا الإجراءات التمهيدية التى كان يجب اتخاذها .

ولما غادر الماجور البارونة لم تستغرق فى تأملاتها أكثر من لحظة ،

لأن أوتيلي نهضت بعد برهة وحلقت في وجه صديقتها . بدأت بأن تركت ركبتى شرلوت ، ثم نهضت على قدميها ووقفت أمامها .

« هذه هي المرة الثانية — هكذا قالت الطفلة النبيلة ، في لهجة من الجد مليئة بسحر لا يقاوم — التي أستشعر فيها مثل هذه الأزمة . لقد قُلْتُ لى يوماً إنه يحدث غالباً في الحياة أن الشيء الواحد يجرى على الناس بطريقة واحدة ، وفي لحظات حاسمة دائماً . وإنى لأعترف اليوم بصدق هذه الملاحظة وأشعر بأنى مضطرة إلى الإدلاء إليك باعتراف . بعد أن ماتت أمى بقليل — وكنت طفلة غصّة الحداثة — قَرَبْتُ منك كرسيّ ؛ وكنت جالسة على الأريكة مثلك الآن ، وكانت رأسى ترقد على ركبتيك ؛ لم أكن نائمة ولا ساهرة : بل كنت أَنَهُوَم . فسمعت كل ما دار من حولي ، وخصوصاً سمعت بوضوح كل ما قيل . ومع هذا فلم أقوع على التحرك ولا التعبير عما في نفسي ، وحتى لو شئتُ هذا لما استطعتُ أن أسمع أنى أشعر بنفسى . كنت أنت تتحدثين عني مع إحدى صديقاتك ؛ وكنت ترين لحالي لبقائي في الدنيا طفلة يتيمة مسكينة ؛ واستعرضت مركزى التابع غير المستقل بنفسه ، وهو مركز كان يمكن أن يكون حرجاً لو لم يجُودُ على الطالع بما يخفف مصيرى . وأدركت جيداً وبدقة ، دقة لعلها قاسية ، كل ما بدا أنك تطلبينه من أجلي ، وما تقتضينه منى . هنالك رسمتُ لنفسى قواعد توافق فكري الحدود ، تحمكت في حياتى وقتاً طويلاً ، ووجهت كل سلوكى ، في الوقت الذى كنت تحبيننى فيه ، وتُعنين بشائى وتقبليننى في بيتك ، ووقتاً آخر تلاح .

« لكننى حِدْتُ عن طريقي ، وانتهكت قواعدى ، بل فقدت شعورى بها ، وبعد كارثة رهيبه ، أراك تنيرين لى من جديد حالتى وهى اليوم أسوأ

من الأولى . كنت مُسْنَدَةً إلى ركبتيك ، غارقة في نوعٍ من التخدير ، وسمعتُ للمرة الثانية ، وكأني أسمع من عالم غريب ، صوتك العذب قرب أذني ، ورأيت إلى أي مآل صرتُ ، فأصابني قشعريرةٌ من حال نفسي ، لكنني هذه المرة أيضاً كما في السابقة رسمتُ لنفسِي خطتي الجديدة ، وأنا غارقة في نصف سُباتٍ وتخدير .

« قرّ عزمي على ما قررته من قبل ؛ وعلى أن أنبئك بقراري أولاً : لن أكون أبداً لإدورد . لقد فتح الله عينيّ بهذا الحادث الرهيب على الجريمة التي كنتُ متردّية فيها . أريد أن أكفر عنها . ولا يفكرن أحدٌ في صرفي عن تصميمي هذا ! صديقتي الممتازة العزيزة ، رتبي أمرك على هذا الأساس . مُصرى بعودة الملاجور ؛ اكتبني له قائلة إنه لم يتقرر شيء . كم استولى على الجزع والقلق لأنني لم أستطع التحرك حينما غادر هذا المكان ! لقد أردتُ أن أنهض واثبة ، وأن استصرخك ألا تدعيه يذهب ومعه هذه الأمانى الآثمة المجرمة » .

أدركت شرلوتُ مركزَ أوتيلي ، وأحست به ؛ ومع هذا فقد أمّلت — مع الزمان والنصح والإيزاع — أن تكسب شيئاً ؛ لكنها حينما أرسلت بضع كلمات فيها إشارة إلى المستقبل ، وإلى تخفيف آلامها ، وإلى الرجاء ، صاحت أوتيلي بكل حِدّةٍ وحماسة :

« كلا ! لا تحاولي أن ترعزي من عزمي وتُسَهِّلِي من قراري وتفاجئيني . وفي اللحظة التي أعلم فيها أنك وافقتِ على الطلاق ، سأكفر في هذه البحيرة نفسها عن خطأي وجريمتي » .

الفصل الخامس عشر

إذا كان الأهل والأصدقاء الذين يحيون معاً حياة سعيدة هادئة يتحدثون ، أكثر مما يجب ويليق ، عما يحدث لهم أو مالا سيحدث ؛ وإذا كانوا يتبادلون مراراً مشروعاتهم وأعمالهم ومشاعلهم ، وبدون أن يقبلوا النصائح التي يقدمها كلٌّ للآخر يقضون حياتهم على نحو ما في التدبير والتقدير — فإنه يحدث في الأحوال الخطيرة التي يلوح فيها أن الإنسان في حاجة إلى عون الآخرين وإلى موافقتهم خصوصاً ، أن ينطوى كلٌّ على نفسه ، ويعمل لنفسه ، ويسلك سبيله وفقاً لهواه ؛ ويخفى كلٌّ عن الآخر الوسائل الخاصة التي يستعين بها ، والنجاح والآثار والنتيجة تدخل وحدها في المجال المشترك .

بعد كل هذه الأحداث الغريبة الرهيبة ، نشأ أيضاً بين الصديقين نوع من التحفظ الصامت تجلى على صورة مداريات لطيفة . وكانت شرلوت قد حملت الطفل إلى الكابلية سراً دون أن يعلم أحد . وهناك رقد كضحية أولى لصير متوعد .

ولما استعادت الأمُّ كلَّ قواها ، آبت إلى الحياة ، وفي هذا الطريق لقيت أول من لقيت أوتيلي التي لاح أنها في حاجة إلى معونتها . فجملت من هذا الأمر شاغلها الأول ، دون أن تظهر كذلك . وكانت تعرف إلى أي حد تحب هذه الفتاة السماوية إدورد ؛ وتسقط نبال المنظر الذي سبق الكارثة ، وعرفت كل ظروفها إما من أوتيلي نفسها أو من رسائل الماچور . وأوتيلي من ناحيتها قد أشاعت الكثير من الرقة والعذوبة في حياة

شرلوت كل آن . وكانت صريحة مفتحة النفس بما في مكنونها ؛ لكنها في أحاديثها لم تتناول مطلقاً الحاضر ولا الآونة الأخيرة . لقد كانت دائماً رصينة اللب واعية الفؤاد ، وقد لاحظت الكثير وعرفت الكثير : هنالك تجلّى كل هذا بوضوح . فكانت تسلي شرلوت وترّفه عنها ، وكانت شرلوت تأمل دائماً في سرّها أن ترى هذين الزوجين الأثيرين عندها مرتبطين . وعلى نحو مخالف تماماً كانت تجرى مشاعر أوتيلي . فقد كشفت لصديقتها عن سر مسلكتها ؛ وقد تخلصت من قيودها القديمة وأسرها : وبثوبتها وقرارها ، أحست أيضاً بأنها تخففت من عبء خطيئتها وعنتها . ولم تعد في حاجة بعد إلى أن تكون عنيفة على نفسها . لقد غفرت لنفسها في أعماق قلبها ، لكن بشرط العزوف الكامل ، والزهد الخالص ، وكان هذا الشرط دقيقاً يسرى على كل حياتها .

على هذا النحو مرت أوقات ، وشعرت البارونة إلى أى حد صار البيت والبستان والصخور والبحيرة والظلال تترك يوماً عندها وعند صديقتها آثاراً حزينة . أما أنهما كانا في حاجة إلى تغيير الهواء ، فقد كان أمراً بارزاً للعيان ؛ لكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الفكرة ؟ لم يكن من الميسور الانتهاء عند رأى في هذا الأمر .

أفكان يخلق بالصديقتين أن تظلا سويا ؟ لقد كانت إرادة إدورد التي أبداهما من قبل جديرة بالتوصية بهذا ، وكانت تصرّيحاته وتهديداته من شأنها أن تجعل منه ضرورة لا مفر منها : لكن كيف السبيل لإنكار أن هاتين السيدتين — بكل مألديهما من حسن نية وعقل وحكمة ومجهود — كانا في موقف أليم الواحدة بالنسبة إلى الأخرى ؟ لقد كانت أحاديثهما يخالطها التهرّب ؛ وأحياناً كان يشغل على إحداها أن تسمع حديث

الأخرى ، وغالباً ما كانت التعبيرات يساء فهمها ، إن لم يكن بالذهن فبالعاطفة . لقد كانت كلماتها تحشى إيداء الأخرى ، وهذا الخشيان نفسه كان أول شيء يجرح ويؤذى .

ولو شاء ما مغادرة القصر والفراق الواحدة عن الأخرى - لوقت قصير على الأقل - لبرز في الحال السؤال القديم : أين تذهب أوتيلي ؟ وإن الأسرة الثرية الكبيرة قد بذلت جهوداً في غير طائل لكي تهيب للوارثة الفتاة رفيقه طيبة قادرة على إثارة روح التنافس فيها ، والبارونة في زيارتها الأخيرة ، وحديثاً في رسائلها ، قد حثت شرلوت على إرسال اليتيمة . وهما هي ذى تعاود الاقتراح مرة أخرى . لكن أوتيلي رفضت بصراحة أن تدخل بيتاً ستجد فيه ما اعتاد الناس أن يطلقوا عليه اسم المجتمع الراقى ، قائلة : « دعيني يا خالتي العزيزة أفسر لك - كيلاً أبداً ضيقة الأفق عنيدة - ما كان عليّ أن أكتمه وأخفيه في ظروف أخرى غير هذه . إن الشخص الذي عانى مصائب غريبة ، حتى لو كان بريئاً ، تنتشر له بين الناس قالة سيئة ، ويشير عند من يرونه ويقابلونه نوعاً من الفزع . وكلّ يريد أن يتبين لديه الوصمة التي قرف بها ؛ وكلّ يستشعر نحوه حب الاستطلاع والفزع معا . على هذا النحو يصير البيت أو المدينة التي جرى فيها فصل مربع دهييين في نفس كل من يزورها . ويبدو ضوء النهار فيهما أقل لمعاً ووضوحاً ؛ ويروح أن النجوم تفقد فيها من لآلئها .

« وما أكبر عدم لياقة الناس - ويمكن مع هذا اغتفارها - نحو هؤلاء البائسين ، وما أشنع قتلهم الأحمق وعطفهم الأعرج الأهوج ! اسمحي لي أن أعبر على هذا النحو ، لكنني عانيت ما لا يصدق العقل مع هذه الفتاة المسكينة التي انتزعها لوسيانه من مخدعها السرّي المنزل ، لكي

تعنى بها بإحسان ، وحاولت بكل نية طيبة أن تحملها على اللعب والرقص .
ولما انتهى الأمر بالفتاة المسكينة — وقد زاد اضطرابها — أن هربت
وأصابها الإغماء ، وأخذتها بين ذراعيّ ، وسرت رعدة تأثير في الجماعة
الحاضرة ، وتأمل كلُّ هذه البائسة تحذوه رغبة استطلاع قاسية ، لم أكن
أتوقع أن مثل هذا المصير ينتظرني . إن حنانى المخلص الحار لا يزال حياً :
والآن في وسمى أن أردّه إلى نفسى ، وأن أحفظ نفسى من أن أكون
موضوعاً لمثل تلك المناظر الأليمة .

— فقالت شرلوت : طفلى العزيرة ، لن تستطيعين فى أى مكان أن
تتجنبى نظرات الناس . لم تعد توجد بعدُ هذه الأديرة التى كان الناس
يحدون فيها قبلُ ملاذاً لمثل تلك الآلام .

— ليست الوحدة هى التى تصنع الملاذ ، خالى العزيرة . إن الملاذ
الأكبر يجب أن يُبحث عنه فى الأماكن التى نجد فيها موضوعاً لنشاطنا .
ولن نستطيع كل أنواع الكفارة والزهد أن تنقذنا من المصير المحتوم ، إذا
قرر أن يطاردنا . إنه فقط فى الحالة التى أُسليم نفسى فيها للبطالة وأصبح
منظراً يتلهى به الناس يصير العالم فى نظرى بغيضاً لا يطاق . لكن إذا
رأى الناس هنيئة بالعمل ، لا أكل ولا أمل من أداء واجبي ، هنالك
أستطيع أن أواجه نظرات الجميع ، لأننى لم يعد لي بعد أن أخاف
نظرات الله .

— فقالت شرلوت : إما أن أكون على خطأ بّين ، وإما أن يكون
مَيْلُكَ يدعوك إلى المدرسة الداخلية .

— أجل ، إن لأعترف وأتخيل أنه من سعادة العمل أن يقود المرءُ
الآخرين بالطريق العادى ، حينما يكون هو نفسه قد اقتنيد بأغرب

الطرق . أو لسنا نرى في التاريخ أن نفرأ من الناس الذين اعتزلوا ولجأوا إلى الخلوة بعد أخطاء فادحة ارتكبوها ، لم يظلوا فيها مستورين مدفونين ، كما أمَلوا ؟ لقد دُعُوا إلى الدنيا ليسلكوا بالضالين السبيل القويم والصراط المستقيم . ومن أقدر على هذا من هؤلاء الذين خبروا السُّبُل الخداعة ؟ لقد دُعُوا ليعاونوا البائسين . ومن أقدر من هؤلاء الذين لم يعد في وسع أى شر من شرور الأرض أن يبلغهم بعد ؟

— إنك لتختارين مهنة غريبة ، هكذا قالت شرلوت . ولا أريد أن أقف في طريقك . فليكن ، وإن كان ، فيما أرجو ، لمدة قليلة .

— فأجابت أوتيل : أنا عاجزة عن شكرى لك تركك لىأى أقوم بهذه المحاولة ، هذه التجربة ! إذا لم أكن واهمة ، فستنجح . فى ذلك المأوى سأذكر كل المحن التى رآنى أحتملها منذ ذلك الحين ! وبأية نصاعة وهدوء سأشاهد متاعب التلميذات الصغار ، وأبتسم لآلامهم الطفولية ، ويدهم خفيفة أعود بهم من حيث حادوا وضآلوا ! الرجل السميد لم يخلق لقيادة السعداء ؛ ومن طبيعة الإنسان أن يتطلب من نفسه ومن الآخرين بمقدار ما يتلقى . والبائسون الذين نهضوا من كبوتهم يعرفون وحدهم كيف ينموا ، لأنفسهم ولغيرهم ، الشعور بأن المرء يجب عليه أن ينعم رافها حتى بأقل نعمة وأدناها .

— دعينى ، هكذا قالت شرلوت بعد قليل من التفكير ، دعينى أقيم ضد مشروعك هذا اعتراضاً آخر يبدو لى أنه الأهم . ليس الأمر يتعلق بك وحدك ، بل أيضاً بشخص آخر . إن نوايا المعلم الطيب الوریع العاقل مجهولة لك ؛ وفى المهنة التى ستنتخرطين فى سلكها ستكونين يوماً بعد يوم أعز وأكبر ضرورة ؛ والمواطن التى تشيع فى نفسه لا تسمح له

مطلقاً بالحياة بدونك ، وفي المستقبل حينما بعتاد معاونتك ، لن يكون في وسعه القيام بعمله من دونك : وستبدأين بتسهيله عليه ، كيما يسأم منه بمد قليل .

— لم يعاملنى القدر برفق ولا حنان ، هكذا قالت أوتيلي ، ومن يحببى يجب عليه ، فيما أظن ، ألا ينتظر منى خيراً من هذا . إن هذا الصديق طيب ، وعاقِل ؛ وسيشعر نحوى ، فيما آمُل ، بمطف خالص برىء من كل غاية وغرض ؛ سيزى فى شخصاً مقدساً ، لا يستطيع أن يكفر لنفسه ولغيره عن خطيئة رهيبية ، إلا بأن يكرس نفسه للكائن الأقدس الكامل الذى يحيطنا بجوهره الخفى* ويستطيع وحده أن يجمعنا من القوى المتية التى نحاصرنا وتضيّق علينا الخناق » .

ونقلت شرلوت كل ما قالته الطفلة العزيزة بلهجة بالغة التأثير ، كيما تُفكر فيه وحدها سرّاً . وكم من مرة حاولت بكثير من الملاحظات أن تكشف ما إذا كان من الممكن التفكير فى إيجاد تقارب بين إدورد وأوتيلي ! لكن أقل ذكر ، وأقل أمل ، وأقل أظن لاح أنه يَهْزُ الفتاة حتى أعماق قلبها . بل إنها اضطرت ذات يوم إلى الإجابة فأوضحت الأمر بكل جلاء .

فأجابت شرلوت : إذا كنت قد عقدت العزم على العزوف عن إدورد ، فاحذرى أن تربه مرة أخرى أبداً . فنحن حينما نكون بعيدين عن موضوع غرامنا يبدو لنا أنه كلما ازداد وجداننا عنفاً ، ازدادت سيطرتنا على أنفسنا ، لأن كل قوة الوجدان كما تظهر فى الخارج نديرها فى الداخل ؛ لكن ما نلبث أن تُتَسَرَّع من هذا الخطأ ، حينما يتبدى الموضوع الذى خيل إلينا أننا نستطيع الاستغناء عنه ، فجأةً أمام نواظرنا كشيء لا غنى لنا

عنه ! فاعمل الآن ما تقدرين أنه ملائم لمركزك ؛ امتحنى نفسك ، وغَيِّرِي بالأحرى عزمك الحالى ، لكن ليكن ذلك التغيير صادراً عن نفسك بقلب حرم ثابت الإيمان ولا تدعى نفسك تنساق وراء الصدفة والاتفاق وال مفاجأة وتجرك إلى صلاتك القديمة : لأنك ستشعرين هنالك بمركة لا تطلق يستعير أوارها فى قلبك . وكما قلت لك ، قبل أن تخطى هذه الخطوة وقبل أن تغادربنى وتبدأى حياة جديدة تفضى بك يعلم الله إلى أين ، فكرى طويلاً فيما إذا كنت تستطيعين أن تعمزى نهائياً عن إدورد . إذا كان هذا عزمك ، فعاهدينى القول على أن لا تكون لك به بعد أية صلة ، بل ولا أى حديث ، حتى لو زارك ، ونفذ إلى مكانك » .

لم تتردد أوتيل لحظة ، بل أعطت كلمتها لصديقتها ، تلك الكلمة التى آلتها على نفسها من قبل .

ومع هذا فإن تهديد إدورد كان يعاود دائماً نفس زوجته . لقد قال إنه لا يستطيع المزوف عن أوتيل إلا طالما ظلت مع شرلوت غير منفصلة عنها . أجل ، إن الظروف قد تبدلت منذ ذلك الحين ، وجرى من الأحداث ما يمكن أن يجعل هذه الكلمة التى نادت فى ساعة نشوة وحمية طارئة ، منسوخة بالأحداث التالية . ومع هذا فإنها لم تشأ أن تخاطر وتفاصر بأى شئ مهما قل يمكن أن يؤذى إدورد ، وكُلِّفَ مثله بأن يسبر غور عواطف إدورد من هذه الناحية .

منذ موت الطفل قام مثله بمدة زيارات ، وإن كانت قليلة فهى كبيرة الأثر ، لشرلوت . فهذا الحادث الذى جعله يحكم بأنه من غير المحتمل أبداً أن يعود الرباط بين الزوجين ، قد أحدث فى نفسه حزناً عنيفاً بالفا . ومع هذا فإنه وقد هُيئَ بطبعه للعمل والأمل فرح سراً بقرار أوتيل . وحسب حساباً

للزمان ، وإن من شأن الزمان أن يهدى من كل شيء ؛ وكان الأمل لا يزال يداعبه في الإبقاء على هذا الرباط المقدس ، وعدت هذه الحركات الوجدانية أنواعاً من المحن يشعر بها الحب والإخلاص بين الأزواج .

وأعلنت رسالة من شرلوت إلى الماچور قرار أوتيلي الأول ، وسألته ، بكل إلحاح ، أن يحصل من إدورد على موافقته بالألا يقوم بأى إجراء آخر ، وأن يبقى كل شيء هادئاً ، وأن يُلاحظ بصبر ما إذا كانت الفتاة ابن تعود إلى عواطفها الأولى . وأنبأته أيضاً - بقدر ما يجب - عن كل ما جرى وما عاناه كل منهما منذ ذلك الحين ، وأمامه الآن مهمة شاقة هي أن يهيئ إدورد لتعديل الموقف . أما متلر ، وقد كان يعرف جيداً أن التسليم بما تم كان أيسر من الموافقة على ما لم يتم بعد ، فقد أقنع البارونة بأن خير ما يمكن عمله هو أن ترسل أوتيلي في الحال إلى المدرسة .

وتبعاً لهذا فإنه لم يكدر رحل حتى أُعدت مُعدات السفر . فخرمت أوتيلي أمتعتها ، لكن شرلوت لاحظت أنها لم تكن مهيئة لأن تأخذ معها الصندوق الجميل ولا أى شيء مما يحتويه . فآثرت أن تترك الفتاة الصامتة تعمل ما يبدو لها . ووافى يوم الرحيل . وكان المقدّر أن تغود العربية الفتاة المسافرة إلى محطة معروفة في اليوم الأول ؛ وفي اليوم التالى تغدوها إلى المدرسة ؛ وكان على نانت أن ترافقها وتظل في خدمتها . ولقد عادت هذه الفتاة المشبوبة العاطفة إلى صاحبة الفضل عليها بعد موت الطفل مباشرة وظلت متعلقة بها كما كانت من قبل ، بالميل والطبع . بل بدا أيضاً أنها أرادت ، بثررتها المحبوبة ، أن تصلح الزمان المفقود الضائع ، وأن تكرر نفسها تماماً لخدمة سيدتها العزيزة . فاستطارتها النشوة لفكرة السفر معها ، ومشاهدة أشياء جديدة ، وهي التي لم تخرج مطلقاً من مسقط

رأسها . فنهزت إلى القرية عند أهلها وأصدقائها ، كما تنبئهم بنبا جدها السعيد ولتوديعهم . لكنها لسوء الحظ دخلت عند أناس مصابين بالحصبة ، وسرعان ما أصابها العدوى . ولم يشاءوا تأجيل الرحيل ، فقد ألحَّت أوتيلي وأصررت . وهي كانت قد قامت من قبل بهذه الرحلة ، وكانت تعرف أصحاب النزل الذى كان عليها أن تبيت فيه فى الليل ، وكان حوزى القصر هو الذى يسوق عربتها . فلم يكن ثمت ما يدعو إذاً إلى الخوف والقلق .

لذا لم تمارض البارونة ؟ فهي نفسها قد تأخرت فى الرحيل عن هذه الأماكن . بيد أنها أرادت أن تهيب لإدورد جناح أوتيلي ، وأن تعيده إلى الحال الذى كان عليها قبل مجيء الكابتن . إن الأمل فى إحياء السعادة الماضية يشتمل من جديد مرة أخرى فى قلب الإنسان ؟ وشروط كان لها الحق ، بل كان عليها أن تعود من جديد إلى تلك الأمانى والآمال .

الفصل السادس عشر

حينما وصل متلر إلى إدورد ليحدثه فى الأمر ، وجده وحيداً ، قد أسند رأسه إلى يده اليمنى ، ومرافقه إلى المنضدة . ولاح عليه أنه فى غمرة من الأسى والألم .

فقال متلر : ألا يزال الصداع يعذبك ؟

فأجاب : « إنه يعذبني ، ومع هذا لا أستطيع أن ألعنه ، لأنه يذكرني بأوتيلي . وأقول لنفسى : لعلها هى الأخرى تتألم ، مستندة إلى ذراعها اليسرى ، ولعلها أن تكون فى ألم أبلغ من ألى . ولماذا لا أحتمله كما

تحتمله هي ؟ إن آلامها مصدر لسلامتي ؛ وفي وسعي أن أقول إن آلامها مطلوبة لأنها ترسم أمام عيني صورة صبرها وما يصحبه من فضائلها الأخرى ، صورة أوضح وأوقع أثراً . في الألم وحده نشمر تماماً بكل المناقب العالمة الضرورية لاحتماله .

فلما رأى متلر صديقه على هذه الحال من الصبر والتسليم ، لم يتحسس أن أبلغه مهمته ، لكنه عرضها عليه في خطوات ، راوياً له كيف نشأت الفكرة عند هاتين السيدتين ، وكيف نضجت شيئاً فشيئاً واستحالت إلى مشروع . ولم يكذب إدورد يبدى إلا بضعة اعتراضات ضئيلة . والقليل الذي تقوه به ، بدا منه أنه يريد أن يترك المسألة كلها بين أيدي أصدقائه . فإب آلامه الحاضرة لاح أنها جعلته غير آبه ولا مكترث لشيء من الأشياء ولا الحيرة من الأحياء .

لكنه لم يكذب يصبح وحيداً ، حتى نهض فجأة وتجهل في الغرفة يذرعا طولاً وعرضاً . لم يعد يشعر بألمه ؛ وفي في الأشياء الخارجية . وخلال رواية متلر كان خيال إدورد العاشق قد حلق في أعلى الآفاق : أوتيل وحيدة أو في شبه وحدة ، على طريق معلوم ، وفي نزل مألوف ، كثيراً ما نزل في غرفاته . أفكر ثم قدر ، أو بالأحرى ما أفكر وما قدر ، بل نزع به الشوق واستطار أنفاسه وسهـر ، وصار به إليها صوّر . لقد كان عليه أن يراها ويتحدث إليها وينظر . لأي غاية يظهر ؟ ولماذا هذا الموقف والنظر ؟ وماذا ينشأ عن هذا ويصدر ؟ ما كان هذا ما دار عليه الأمر واستعبر . فلم يقاوم ولم يتقهقر . لقد كان واجبه المقدّر !

وأفضى بالسر إلى خادم غرفته ، فعلم ميماد سفرها . فما كان الصبح يتنفس إلا وأسرع إدورد إلى امتطاء الجواد دون رفيق له ، وغدا إلى النزل الذي

كان مقدراً أن تنزل هي فيه لتبيت ليلتها ، فوصل إليه قبلها بوقت طويل . فتلقته صاحبة النزل بكل لذة ورحاب ، وهي مدهوشة . فقد كانت تدين له بمرور عظيم كسرور ما بين الأحبة والأهل . فهو قد جعل ابنها ، وقد كان جندياً شجاعاً ، يظفر بوسام تقدير وجدارة ، بأن أشاد بحماسة أمام الجنرال نفسه ، بالعمل المشرف الذي قام به هذا الابن — وكان إدورد شاهده الوحيد — حتى استطاع أن يتغلب على معارضة بعض أهل السوء . فلم تعرف الأم كيف تعبر له عن شكراتها وتشهده له بجميل عرفانها . فهيأت ، بقدر ما وسعها ، غرفتها الأنيقة التي لم تكن في الواقع في الوقت نفسه إلا مستودع الملابس ومخزن التموين . ثم أعلن لها وصول سيدة ستنزل عندها ، فطلب إليها أن تهيب له — بدون كلفة — غرفة خلفية تطل على الممر . فبدت المسألة لصاحبة النزل محوطة بالأسرار ؛ وسرّها أن تنزل عند رغبة هذا السيد المحسن الذي أظهر الكثير من الحماسة والنشاط . أما هو ، فإذا كانت عواطفه خلال الساعات الطوال التي مرّت حتى أتى المساء ؟ لاحظاظ بعناية الغرفة التي سيقدر له أن يراها فيها ؛ فبدت له ، ببساطتها الريفية ، مقاماً علوياً . وكم تساءل عما إذا كان عليه أن يفاجئ أوتيلي أو أن تهيباً للملاقاة ؟ وأخيراً تغلب الرأي الأخير ، وأنشأ يكتب . وها هي ذى الرسالة التي كان مقدراً أن تتلقاها منه :

من إدورد إلى أوتيلي

« أثناء ما تقرأين هذه الرسالة ، أي حبيبتى العزيزة ، سأكون بالقرب منك . لا تخافى ولا تجزعى ؛ فليس لدى ما يثير مخاوفك . فلن أدخل عليك قسراً وقهراً ؛ ولن تربى أبداً قبل أن تسمحى لى بالظهور أمامك .

« فكرى أولاً فى مركزك ، وفى مركزى ! كم أنا شاكر لك عدم اتخاذ أية خطوة حاسمة ! لكن هذه مهمة شاقة إلى حد كبير : فلا تقوى بها ! هنا ، حيث ينتهى طريقان ويتلاقيان ، فكرى مرة أخرى وتدبرى . أيمكن أن تكونى لى ؟ أتريدن أن تكونى لى ؟ أوه ! إذن ستسدين إلينا جميعاً خيراً كبيراً ، وإلى أنا خيراً لا يبلغ مداه التعبير .

« دعينى أراك مرة أخرى ، أراك بسرور وحبور ! دعينى أوجه إليك من فى هذا الرجا الرقيق ، دعى حضرتك العزيرة تجيب على ! على قلبى ! أى أوتيل ، حيث رقدت أحياناً ، وحيث تحيين أبداً ... »

وبينا كان يكتب ، استولت عليه فكرة أن هذه الفتاة المعبودة تقترب وعما قليل ستظهر . « ستدخل من هذا الباب ، وستقرأ هذا الكتاب ، وستكون أمام عيني كما كانت من قبل ، تلك التى طالما تمنيت أن أراها . أستكون كما كانت دائماً أم هل تغير وجهها وتبدلت عواطفها ؟ » وكان لا يزال يحمل القلم فى يده ، وأراد أن يستمر فى الكتابة كما عليه عليه فكره ... لكن العربة كانت تتدحرج فى الفناء ، فأضاف بيد مسرعة لهقى : « إني أسمع ... أنت وصلت ... وداعاً الآن ! »

وطوى الرسالة ، ووضع العنوان ؛ ولم يكن ثمت وقت لختمه بالشَّمْع . ومُهرِع إلى المكتب المؤدى فيما بعد إلى المر ، وفى اللحظة عينها تذكر أنه ترك على المنضدة ساعته وخاتم . وكان من الواجب ألا تقع عينها من فورها على هذه الأشياء . فعاد أدراجه مسرعاً وأفلح فى أخذها . وهاهوذا يسمع فى الدهليز صاحبة النزل وهى تتقدم نحو الغرفة لتفتحها للسافرة . فهرع إلى باب غرفته ، لكنه كان مُنفلقاً . وكان قد ترك المفتاح يسقط فى الداخل حينما اندفع للدخول ؛ وكان القفل منفلقاً باللواب ؛ أما هو فقد كان واقفاً أمام

الباب . دفعه بعنف : فلم يفتح . أوه ! كم ودَّ أن يكون آئذ روحاً فيسأب من خلال الشُّفَرَات ! ولما لم يستطع الهروب ، أخفى وجهه في صدغ الباب . ودخلت أوتيلي : وعند ما رأت صاحبة النزل إدورَدَ ، تراجعت ، أما هو فلم يستطع أن يَخْتَفِيَ عن نظرات أوتيلي : فاستدارت من حوله ، وتلاقى العاشقان على أغرب حالٍ وصارا كلاهما في حضرة الآخر . نظرت إليه بهدوء ورجد ، دون أن تتقدم أو تتقهقر ؛ ولما تحرك ليقرب منها ، تراجعت خطوات إلى الوراء حتى بلغت المنضدة . وهو أيضاً رُدَّ إلى الخلف قليلاً .

صاح : « أوتيلي ، دعيني أقطع هذا الصمت الرهيب ! أو كسنا إلا ظلالا الواحد منا في حضرة الآخر ؛ لكن قبل كل شيء ، اسمي لي : بالصدفة تجديني هنا عند وصولك . بالقرب منك رسالة كان مقدراً لها أن تهينك لهذا اللقاء ؛ فاقريها ، أستخفك بالله ، اقرئي هذه الرسالة ، ثم قرري ما تستطيعين » .

أَلْقَتْ بنظرها على الرسالة ، وبعد قليل من التفكير ، أخذتها وفتحتها وقرأتها . ثم نَحَّسَتْ جابياً برفق دون أن يتغير وجهها . ثم رفعت إلى السماء يديها المفتوحتين ، مستندة كل منهما إلى الأخرى ؛ وعادت بهما إلى صدرها ، بانحناءة من الجسم رشيقة ، موجهة إلى من توسل إليها بحرارة نظرة أرغمته على العزوف عن كل ما يمكنه طلبه وتمنيه . مزقت هذه الحركة قلبه ، ولم يقو على تحمُّل نظرة أوتيلي وحركتها . ولاح أنها على بنات الركوع على ركبتيهما ، لو أصرَّ هو . نفرج يائساً ، وأرسل إليها صاحبة النزل .

كان يندو ويروح على مسطح السَّلم . وكان الليل قد أرخى سدوله ، وفي الغرفة لم تكن ثمة نائمة . وأخيراً خرجت صاحبة النزل وخلعت المفتاح .

لقد استولى التأثر والاضطراب على هذه السيدة الطيبة الساذجة ، ولم تعرف ماذا تعمل ، وأخيراً حينما انصرفت قدمت المفتاح إلى البارون ، لكنه رفضه . فتركت النور وانصرفت .

وفي أعماق أحزانه نام على العتبة وغمرها بعبراته . ولعله لم يحدث مطلقاً من قبل أن كان عاشقان ، ما أقرب كلاً منهما من الآخر ، يقضيان ليلة قاسية كذلك الليلة .

- وانبليج الصبح ، وقدم الحوذى العربية ؛ وفتحت صاحبة النزل ودخلت الغرفة ، فوجدت الفتاة نائمة بملابسها كلها ؛ فتراجعت ، وبايتسامة حنون ، أشارت إلى إدورد . فتقدما سوياً نحو الفتاة الغافية : لكنه لم يستطع احتمال هذا المنظر ، وصاحبة النزل لم تجرؤ على إيقاظ الطفلة الهادئة ، فجلست قبالتها . وأخيراً فتحت أوتيلي عينيها ونهضت . ورفضت الإفطار . هنالك مثل إدورد أمامها ورجاها بالحاح أن تتفوه له بكلمة واحدة تعبر فيها عن إرادتها ، فهو ان يفعل إلا ما تشاء ، وأقسم بهذا لكنها التزمت الصمت . فسألها مرة أخرى بحب والحاح عما إذا كانت تريد أن تكون له . بأى لطف خففت عينيها ، وأنفخت رأسها معبرة عن رفض رقيق ! فسألها ما إذا كانت تريد الذهاب إلى المدرسة الداخلية . فرفضت بعدم اكتراث . وأخيراً حينما سألها عما إذا كان يمكنه أن يردها إلى شربلوت ، أجابت بلا تردد بالإيجاب ، بواسطة إشارتها برأسها . فهرع إلى النافذة يعطى الأمر إلى الحوذى ؛ لكنها فرت من الغرفة كالبرق الخاطف من خلفه وهبطت السلم وصعدت العربية . واستأنف الحوذى الطريق إلى القصر . وتابع إدورد الموكب راكباً على مسافة قليلة .

الفصل السابع عشر

كم تولت شرلوت الدهشة ، حينما رأت عربتها تعيد إليها أوتيلي ، وترى في الوقت نفسه إدورد عائداً على جواده في فناء القصر ! أسرعت حتى لفت عتبة الباب . ونزلت أوتيلي من العربة وتقدمت هي وإدورد ، وضغطت بحرارة على يد الزوج وزوجته ، وعانقت يد الواحد مع الآخر وهرعت إلى غرفتها . فقذف إدورد بنفسه إلى جيد شرلوت وأسبل فيضاً من الدموع . إنه لا يستطيع أن يفسر ما حدث ؟ فتوسل إليها أن تصبر عليه ، وأن تغدو لمعونة أوتيلي . فطارت شرلوت إلى صديقتهما الصغيرة ، وارتعدت حينما دخلت : رأت الغرفة خاوية من كل أثاث ، ولم يُعد فيها غير الجدران الأربعة ، ولاحت واسعة بقدر ما هي حزينة . لقد أخذ كل شيء ، فيما عدا الصندوق الصغير الذي تُترك وسط الأرضية ، لأنه لم يتقرر أين يجب أن يوضع . وكانت البائسة راقدة على الأرض ، ورأسها وذراعها مستندتان إلى الصندوق فأسرعت شرلوت إلى العناية بها ، وسألتهما عما جرى ، لكنها لم تظفر بأى جواب .

تركت عند أوتيلي وصيفتها التي أحضرت معها مقويات للقلب ، وهرعت إلى إدورد ؛ فوجدته في غرفة الاستقبال ، لكنه لم يكن في حاجة إلى أن يعلم منها شيئاً . فارتقى على قدميها ، وبلل يديها بالدموع ، وفر إلى مخدعه ، ولما رغبت في متابعته ، التقت بمخادم الغرفة الذي أعطاها كل ما وسعه من إيضاحات . وحدّست هي الباقي ، ثم فكرت في الحال بكل عزم فيما يقتضيه الأمر توجاً . فائتت غرفة أوتيلي بأسرع ما يمكن ؛ واستعاد إدورد جناحه ، وكل أوراقه كما تركها .

ولاح أن ثلاثهم قد عادوا إلى نفوسهم وثابوا إلى رشدهم ، حينما صار كلٌّ في حضرة الآخر . لكن أوتيلي أصرت على التزام الصمت ، ولم يكن في وسع البارون إلا أن يتوسل إلى زوجته أن تعتصم بالصبر الذي لاح أنه يعوزه هو الآخر أيضاً . وبعث برسائل إلى متلر وإلى الماچور . لكن لم يجدوا متلر في بيته . وجاء الماچور ، وتحدث إليه إدورد بكل صراحة ؛ فاعترف له بكل ما حدث بتفاصيله الدقيقة ، وهكذا عرفت شرلوت ما جرى مما بدّل الموقف على هذا النحو الغريب وأشاع الاضطراب في القلوب .

تحدثت إلى زوجها بلهجة بالغة الحنان والعطف ؛ ولم تدر ماذا تقول له إلا أن تتوسل إليه ألا يضايق أحدٌ الآن هذه الفتاة المسكينة . فقدرد إدورد فضيلة امرأته وحبها وعقدها ، بيد أن هواء قد استولى عليه بطريقة مطلقة . فلوحّت له بالآمال ، ووعدته بالموافقة على الطلاق . لكنه لم يستطع الثقة بمحدثها وكلامها ؛ لقد كان على حال من المرض جعلته يهجر الأمل والثقة الواحد بعد الآخر فحملها على أن تعيد بيدها للماچور . واستولى عليه نوع من الهياج والجنون ولكيما تهدى من ثأرته وتسكن فورته فعلت ما سألها ، ووعدت بيدها للماچور ، في الحالة التي توافق فيها انسة أختها على الاقتران بإدورد ؛ لكنها أضافت هذا الشرط الصريح وهو أن يقوم الصديقان أولاً برحلة سوياً ، اتقد كُلف الماچور من قبل أميرة بمهمة في الخارج : فوعد البارون بمصاحبته . وهيئت الإعدادات ، وشاع نوع من الهدوء قليل ، على الأقل لرؤية أن تمت شيئاً يُعْمَل .

وكان السهر على أوتيلي قائماً ، فشوهدها أنها لا تكاد تتناول طعاماً . وأنها تصر على التزام الصمت . فوُجّه إليها النصح ؛ فصارت قلقية ؛ فتركت شأنها ، إذ يحدث كثيراً أن يتملكنا الضعف فلا نحب أن نعذب أحداً

حتى من أجل فائدته وصالحه . فكثرت أوتيلي في كل الوسائل ؛ وأخيراً أنها فكرة أن تدعو من المدرسة المعلم وقد كان له سلطان كبير على تلميذته هذه ، وكان قد عبر ، بطريقة ودية خالصة ، عن دهشته امدم وصول أوتيلي ، ولكنه لم يظفر بجواب .

ولسكيلا نفاجاً أوتيلي ، تحدثوا عن هذا الاقتراح في حضورها . فلاح أنها لا توافق عليه . وأفكرت وقدرت ؛ وأخيراً بدا أنها اتخذت قرارها . هُيرت إلى غرفتها ، وقبل المساء بعثت بهذه الرسالة إلى أصدقائها مجتمعين .

من أوتيلي إلى أصدقائها

« لماذا يجب عليّ ، أي أعزائي ، أن أصرح بما هو مفهوم بنفسه ؟ لقد خرجت عن طريقي ، وليس عليّ أن أرتد إليه . إن جنسياً معاديا استولى عليّ ويلوح أنه يواجهني بقوة الغريسة ، حتى لو صرتُ من جديد في وفاق مع نفسي .

« لقد طويتُ كَشْحِي بصراحة على العزوف عن إدورد ، والفرار منه والزهد فيه ؛ وداعبني أمل في ألا ألتقي به أبداً . لكن ما حدث كان على خلاف هذا . لقد ظهر أُمَامِي ، على غير إرادة منه . ولعلّي قد تقيدت في تفسيرى الوعد الذى قطعته على نفسي بألا أدخل معه في حديث . لقد ألهمنى ضميرى فجأة أن ألزم الصمت في حضرة صديقى هذا ، وايس لدى الآن ما أقوله . تمهدت عَرَضاً تحت تأثير سلطان العاطفة تعهداً قاسياً لعله أن يكون عبثاً ثقيلاً على من يقوم به بعد تفكير . فدعوني أستمرفيه طالما جعل قلبى منه قانوناً . ولا تهيبوا بأية شفاعاة ولا وساطة ؛ ولا تعجلوني بالكلام ، وزيادة الغذاء أكثر مما تقتضيه الضرورة القصوى . أعينوني برحمتكم وصبركم على قضاء

زمان محنتي هاتيك . إلى شابة ، والشباب يبرأ خطوة خطوة . واحتملوا حضوري بينكم ؛ وليكن في حبكم ما يسحرنى ، وفي حديثكم ما يعلمنى ، لكن دعونى سيدة عواطفى » .

أجل سفر الصديقين وقد كان مُعداً منذ زمان طويل ، لأن المهمة التي كُلِّف بها الماچور قد عانت بعضاً من التأخير . وكم جاء هذا التأجيل موافقاً لهوى إدورد ! ثم لما أنعشته رسالة أوتيل وشجعتة كلماتها الموسمية المليئة بالأمل ، وحق له أن يثابر بإصرار ، قرر فى التو أن لا يتحمل .

صاح : « أى جنون أن يلقى الإنسان مندفعاً بما هو ضرورى له كل الضرورة ويضرب به عُرض الحائط ، مع أنه يجب الاحتفاظُ به ، حتى لو كنا مهتدين بفقدانه ! ولماذا نعزف عنه ونزهد فيه ؟ لا لشيء إلا ليظهر الإنسان قادراً على الاختيار والإرادة . وتحت تأثير هذا الغرور الأحمق ، كثيراً ما تخلت عن أصدقائى وتركتهن ساعات طوالاً وأياماً عديدة ، فى وقت أكثر بكوراً مما يجب ، لا لشيء إلا لكيلا أكون مضطراً وملزماً أمام الأجل المحدود . أما هذه المرة ، فأنى أريد البقاء . فلماذا أرتحل ؟ أفلم تصبر بعيدة عنى الآن ؟ لا يخطر ببالى اليوم أن أطلب يدها ، وأضمتها إلى قلبى ؛ بل لا أستطيع أن أخاطر بذهنى شيئاً من هذا ؛ إنها تجمعانى أقشعر وأرتعد ؛ إنها لم تبتعد عنى ، لكنها ارتفعت فوق مستواى » .

بقى إذاً ، إما طائعاً وإما كارهاً ؛ لكن لم يكن لرضاء حدثٍ حينما كان فى حضرة أوتيل ؛ وهى أيضاً كانت تستشعر نفس الإحساس ؛ وهى أيضاً لم يكن لها قبل بتجنب هذا الانجذاب الرقيق العذب . لقد كان كلاهما يحدث فى الآخر حينئذ ما كانا يحدثانه من قبل من جاذبية لا توصف ، أشبه ما تكون بالسحر . كانا بعيشان تحت سقف واحد ؛ ومع هذا ، فحتى من دون أن

يفكر أحدهما في الآخر ، وحينما يكون كلاهما مشغولاً بأشياء أخرى ، مجذوبا
 عن مجتمع بهم ، فقد كانا يتقاربان بالتبادل . والاقتراب الكامل كان وحده
 القادر على تسكينهما ، وكان يسكنهما تسكيناً كاملاً فعلاً ، فكان ذلك
 كافياً . ولم يكونا يطلبان نظرة ولا كلمة ولا حركة ولا اتصالاً ، لا شيء
 أكثر من أن يوجد معاً . هنالك لم يكونا بعد كائنين من بنى الإنسان ،
 بل كائناً واحداً يحيا في سلام غريزي كامل ، راضياً عن نفسه وعن الدنيا
 بأسرها . ولو أودع أحدهما في نهاية البيت ، لانهذب الآخر إليه ، من غير
 شعور ومن تلقاء نفسه ، بدون قصد . أجل ! لقد كانت الحياة بالنسبة إليهما
 لغزاً ، لا يجدان كلمته إلا إذا اجتمعا معاً .

وكانت أوتيلي على حال من الهدوء والسكون السكاملين بحيث أمكن
 الاطمئنان إليها تماماً من هذه الناحية . وكانت قليلاً ما تفارق الجماعة ، لكنها
 طلبت أن تأكل وحدها ، ونانت كانت وحدها التي تخدم عليها .
 ما يحدث عادة للناس يتكرر أكثر مما يُظن ، لأن طبيعتهم أقرب
 الأسباب إليه . فالخلق والشخصية واليول والنزوع والسكان الذي
 يقام به والبيئة المحيطة والعادات تكون كُلاً يسبح فيه كل أمرئ وسط
 عنصر وجوٍّ فيه وحده يشعر بالرضا والطمأنينة . ومن هنا فإن الناس —
 والشكوى عامة من عدم ثباتهم على حال — ، يبدون لنا — وهذا مما
 يدهشنا كل الدهشة — ، دائماً هم الناس بعد كثير من السنين ، دون
 أن يكون في وسع الدوافع الجديدة ، خارجية أو داخلية ، أن تغير منهم .
 على هذا النحو تابع كل شيء ، في حياة أصدقائنا هؤلاء اليومية ، نفس
 المجرى الذي كان عليه من قبل ، أو أقل قليلاً . وكانت أوتيلي ، مع
 اعتصامها بالصمت ، تبدى دائماً باحتفائها الجميل دماً خلقها ؛ وكل فعل

هذا على أسلوبه في الحياة . وهكذا كانت الحياة المنزلية صورة للحالة القديمة ، وكان مقبولاً أن يتخيل المرء كل شيء كما كان قبلاً .

وذكرت أيام الخريف ، وكانت طويلة طول أيام هذا الربيع الأول ، الجماعة في المنزل بنفس الساعة . فزينة الأزهار والثمار ، الخاصة بهذا الفصل ، جعلها تنظر إلى الربيع الفائت كأنه الخريف الذي تلاه ؛ وضاع الزمان المتوسط بينهما في غمرة النسيان ؛ وشوهدت الأزهار تتفتح وكانت أمثالها قد بُذرت في تلك الأيام البعيدة ، ونضجت الثمار على الأشجار التي رؤيت آنذاك مجللة بالأزهار .

وكان الماچور يسافر ثم يعود ؛ ومثلر يكثر من تروده . وغالباً ما كانت اجتماعات المساء دورية منتظمة . وفي العادة كان إدورد يقرأ بحماسة أوفر ، وعاطفة أكبر ، وقريحة ، بل وسرور وبهجة أغزر مما كان قبلُ يفعل . ولاح أنه أراد بهذه التسلية والحساسية أن ينزع أوتيلي من تخديرها ، ويقطع عليها صمتها . وكان على عادته القديمة يجلس بحيث يتيسر لها أن تقرأ في الكتاب ؛ بل لقد كان قليلاً مورع البال حينما لا تنظر في الكتاب ، وحينما لا يكون متأكداً من أنها تتابع بعينها كل كلمة يفوه بها .

وُنُسيت العواطف الحزينة والمشاعر الأليمة التي جرت في العهد المتوسط بين الماضي والحاضر ؛ وما من حقد صار في النفس بعدُ كامناً ؛ واختفى كل نوع من الحدة والنفور . وكان الماچور يصاحب بكانه بيان شلوت ؛ وانسجم ناي إدورد كما كان من قبل مع عزف أوتيلي وتمثيلها . واقترب يوم ميلاد إدورد وهم لم يكونوا قد احتفلوا به في العام الماضي . وكان لا بد أن يمضي هذه المرة في غير حلية ولا أبهة ، يمضي في بهجة الصداقة وسرورها الساجي . واتفق أمرهم على هذا ، اتفاقاً نصفه سر ونصفه صريح . لكن كلما

اقترب ذلك الوقت ، نما في مزاج أوتيلي ذلك الطابع الجاد الذي كان الناس يشعرون به حتى الآن أكثر مما يشاهدونه بعيونهم . وفي الحديقة ، كانت تلوح كثيرا وهي تستعرض الأزهار — وهي قد أوصت البستاني بأن يُسقى على كل أزهار الخريف — وتتوقف خصوصاً عند الأسطير ، وكان مزدهراً بفرارة في ذلك العام .

الفصل التاسع عشر

لكن أكثر شيء استرعى نظر الأصدقاء الذين كانوا يلاحظون أحوال أوتيلي صامتين هو أنهم رأوها تفتح الصندوق لأول مرة ؛ وأنها اختارت وفصلت ، من بين الأقمشة ، ما يكفي لفستان ، واحد ولكنه كامل . ولما أرادت أن تعيد الباقي إلى الصندوق ، بمساعدة نانت ، شق عليها هذا العمل : إذ كان مزدهراً إلى أبعد حد ، على الرغم من أن جزءاً من الأقمشة قد نَقَصه . ولم تنفك الوصيفة الشابة عن الإعجاب ، خصوصاً حين رأت أنه جُسَّز بكل شيء حتى أبسط تفاصيل الزينة . وبقيت أيضاً ، خارج الصندوق ، أحذية وجوارب وأربطة ساق مزينة بالشرائط ، وقفازات وأشياء أخرى . فالتفت من أوتيلي أن تنفجها بشيء منها . فرفضت أوتيلي ، لكنها فتحت في الحال درجاً في خزانة ذات جوارب (كومودينو) وتركت الفتاة تختار . فاختارت نانت بسرعة وبلا تمييز ، وفترت بغنيمتها في الثوب ، لكي تعلن لأهل المنزل عن ثروتها هذه وتعرضها لهم .

وأخيراً استطاعت أوتيلي أن تعيد كل شيء إلى مكانه ، ثم فتحت قسماً سرياً موجوداً في غطاء الصندوق ، فيه أخفت رسائل إدورد وبطاقاته ،

وأزهاراً جافة ، هي ذكريات لنزهاتها القديمة ، وخصلة من شعر عاشقها العزيز ، وأشياء أخرى . وأضافت إليها شيئاً آخر ... هو صورة أبيها ... وأغلقت السكّ ، ووضعت على صدرها من جديد المفتاح الثمين ، معلقة بسلسلة ذهبية تحملها حول جيدها .

بيد أن آمالاً عديدة استيقظت في قلب أصدقائها . فقد كانت شرلوت واثقة من أن أوتيل ستستأنف الكلام في يوم العيد ؛ لأنها أظهرت ، عند اقتراب ذلك اليوم ، نوعاً من النشاط ، وكان عليها سيما الرضا الهادئ والابتسام ، مما يبدو مثله على وجه شخص يهيئ لأصدقائه مفاجأة سارة . ولم يكن أحد يعرف أن الفتاة تقضى الساعات الطوال في ضعف بالغ ، لم تكن تهض منه إلا بمجهود هائل ، في اللحظات التي تتبدى لهم فيها .

ومند بعض من الزمان ازدادت زيارات متلر وطالت مدتها على غير العادة . فإن هذا الرجل العنيد كان يعلم أنه لا توجد إلا لحظة واحدة لطرق الحديد . وفُسر على نحوه حسن صمت أوتيل ورفضها . ولم يكن قد بُذل أى إجراء بعد للطلاق . وكان يأمل في أن يهيئ بطريقة أخرى مستقبلاً سعيداً للفتاة الطيبة ؛ أرعى سمعه ، وسكّم ، وفهم ، وسلّم مسلياً -- على طريقته -- ينطوى على كثير من الحكمة . لكنه كان يساق وراء الغضب حينما كان يجد الفرصة للتفكير في موضوعات يضيف عليها أهمية كبيرة . وكان يحيا كثيراً في نفسه ، وإذا وُجد مع غيره من الناس ، لم يكن ذلك إلا من أجل أن يبذل من أجلهم نشاطاً . وإذا تكلم مرة وهو بين أصدقائه ، كما رأيناه من قبل مراراً ، فإنه يهدر في غير رحمة ؛ يجرح أو يشقى ، ويؤذى أو يفيد ، حسبما يتفق .

وفي عشية العيد ، كانت شرلوت والماجور جالسين في غرفة الاستقبال

انتظاراً لإدورد الذى خرج ممتطياً صهوة جواده . وكان متلر يتجول فى الغرفة ؛ وبقيت أوتبلى ملازمة لغرفتها ، كما تهى زينة الغد ، وتلقى بعض التعليمات على وصيفتها التى كانت تفهمها جيداً ، وتعرف تماماً كيف تنفذ أوامرها الصامتة .

ونناول متلر واحداً من موضوعاته الأثيرة لديه . وقد كان يلذ له أن يقول إنه - سواء فى تربية الأطفال وفى حكم الشعوب وسياستها - لاشئ أفسد وأقسى من النواهي ، والقوانين والقرارات المصوغة فى قالب التحريم . قال : « الإنسان فعّال بطبعه ؛ ولو عرف المرء كيف يسوس أمر نفسه ، تتبع أولاً الاتجاه الذى يشاره عليه ؛ فيعمل ويؤدى واجبه . أما فيما يتصل بى ، فإنى أفضل ، فى محيطى ، أن أتحمل الأخطاء والزائل انتظاراً للفضيلة المضادة ، أولى من أن أخلص من النقص ، دون أن أرى مكانه أى خير . وإن الإنسان ليعمل بارتياح وسرور كل ما هو خير وحكيم ، بشرط أن يستطيع بلوغه ؛ إنه يعمل ، لكما يكون لديه ما يعمل به ، ودون أن يفكر فى الحماقات التى يُسلم نفسه لها إما بظالةٍ وإما مَلاّلا .

« وكَم يؤلنى أن أسمع المعلمين يلقنون الأطفال فى دروسهم الأوامر العشرة ! والأمر الرابع هو الحكم الإيجابى البديع الحكيم : « أَحْسِن إلى أبيك وأُمِّك » . لو نقش الأطفال هذا القول جيداً فى عقولهم وروحهم ، لاستطاعوا التمرن كلَّ يوم على ممارسته . لكن الأمر الخامس ، ماذا يجب أن يقال عنه : « لن تقتل أبداً ! » كما لو كان ثمت إنسان عنده أقل رغبة فى قتل أخيه ! إن المرء ليبغض آخر ، ويبغض ، وينفعل ، ويمكن أن يحدث ، كنتيجة لهذا كله ، أن يقتل إنساناً عَمَراً . لكن ، أفليس من الوحشية فى التحذير أن يلقن الأطفالُ تحريم القتل والسفك ؟ لو قيل : « اسهر

على حياة جارك ، وإبعد ما يؤذيه ، وأنسِقه ، حتى لو كان في هذا خطر على حياتك ؛ وإذا أسأت إليه ، فاعرف أنك تسيء إلى نفسك » - كانت أمثال هذه الأوامر أنسب لشعوب متمدينة عاقلة ، ومع هذا فهي لا تكاد تظفر بأى مكان بين أسئلة كتاب التعاليم الدينية (السكاتيشيزم) .

« والأمر السادس ! إنى لأراه مريعا قبيحا . ماذا ؟ أتوقظ في الأطفال حب الاستطلاع والمعرفة بأمرار خطيرة ! ونقدم خيالهم موضوعات وأفكاراً غريبة ، ليس من شأنها إلا أن تمجّل في عنفٍ بالشّر الذي يراد إبعاده وتجنبه ! كان الأولى حقاً أن يماقّب على هذه الأخطاء بطريقة تحكيمية بواسطة محكمة سرية ، أخرى من أن يسمح بالتحدث عنها أمام الكنيسة والأبروشية » .

في هذه اللحظة دخلت أوتيلي ، واستأنف مثل حديثه :
« لن ترتكب الزنا أبداً ! » أى سفاهة وآية وقاحة ! أفان يكون المعنى مختلفاً تماماً لو قيل : « ستحترم رِباط الزواج ؛ وإذا رأيت زوجاً وزوجة يحب كلاهما الآخر ، فستسعد ، وستشارك في سعادتهما كأنك في يوم جميل ؟ وإذا ظهرت سحابة في جو رباطهما ، فستعمل جهدك لتبديدها ؛ وستسمى لهدئة خواطرها وإيجاد الوفاق بينهما ، وتُسعرهما بمصلحتها المتبادلة ، وبزاهة نبيلة ستعمل على سعادة الآخرين ، بأن تفهمهم أية سعادة تصدر عن كل واجب يؤدّى ، خصوصاً عن ذلك الذى يربط بين الرجل والمرأة بروابط لا تنفصم عراها » .

كانت شرلوت على آخر من الجمر ، وزاد من قلقها وخاوفها أنها كانت مقتنعة أن مثل لم يكن يفكر في مدى كلامه ولا في المكان الذى يتحدث فيه ، وقبل أن يكون في وسعها مقاطعته ، رأت أوتيلي يتبدل

وجهها وتنصرف .

« ستعفيننا على الأقل من الأمر السابع ، هكذا قالت شرلوت بابتسامة مقتضبة .

فأجاب متلر : من الباقي كله ، بشرط أن أنفذ ذلك الأمر الذى يتوقف عليه باقى الأوامر » .

فى تلك اللحظة أقبلت نانتٌ مسرعة وهى تصرخ صرخات مرعبة :
« إنها تموت ! الأنسة تموت ! تمالوا ! هلموا ! » .

عادت أوتيلى إلى غرفتها وهى تترنح ؛ وكانت زينة الغد مبسوطة على كراسى عديدة ، وكانت الوصيفة وهى تتأملها بإعجاب تغدو وتروح مرسله سيحاحات السرور .

« انظرى ، آنستى المزيزة ، ها هى ذى زينة خطيبى جديرة بك كل الجدارة ! »

سمعت أوتيلى هذه الكلمات نفرت على الأريكة . ورأت نانتٌ سيدتها يملوها الشحوب وتفقد الحركة : فهيرعت إلى شرلوت . فجاء الكل . وهرع الطبيب . فلم ير فى هذا إلا أثر خور وانحلال فى القوى . فأمر بإحضار مرآة ، فمافتها أوتيلى بفزع . وكانت على بتات أن تقع فى انقباضات ، حينما قُرب الفنجان من فمها . فسأل بالحاح وإسراع كما اقتضى الظرف عن الغذاء الذى تناولته فى ذلك اليوم . فترددت الوصيفة ؛ فأعاد السؤال : فاعترفت بأن الأنسة لم تتناول شيئاً .

وبدا الاضطراب على نانتٍ أكثر مما يجب . فجرها الطبيب إلى غرفة مجاورة ، وتبعتهما شرلوت . فجنّت نانت على ركبتها ؛ وصرحت بأن أوتيلى قد رفضت منذ زمان طويلاً كل طعام تقريباً . وتحت ضغط سيدتها ، كانت

هى التى تأكل الغذاء . ولم تقل هذا من قبل بسبب رجوات سيدتها وتهديداتها ، وأيضاً — هكذا أضافت بسداجة — لأنها وجدت الأطعمة شهية !

ودخل الماجور ومتلر ووجدوا شرلوت مشغولة مع الطبيب . وكانت الطفلة المعبودة جالسة فى ركن من الأريكة . كانت شاحبة ، لكن لاح عليها أنها لا تزال تحتفظ بكل وعيها . فسؤلت أن ترقد ؛ فرفضت ، لكنها طلبت بالإشارة أن يُخَضَّرَ لها الصندوق . ووضعت تحت قدميها ، وصارت راقدة نصف رقدة فى وضع ملائم مريح . ولاح أنها تريد توديعهم ؛ وكانت حركاتها وإشاراتها تعبر للحاضرين عن التعلق الحار ، والحب وعرفان الجليل ، وسؤال المغفرة والوداع المخلص الصادر من أعماق الفؤاد .

ولما نزل إدورد عن جواده ، عرف حال أوتيل . فطار إلى غرفتها ، وارتقى تحت قدميها ، وأخذ يدها وغطاها بدموع صامته غزار . وظل هكذا زمناً ، وفى النهاية صاح :

« أفلى بقدرى بعدُ أن أسمع صوتك ؟ أولن تعودى إلى الحياة ، كما تقولين لى كلمة واحدة ؟ كفى ! كفى ! سأتابعك فى الموت . هناك سنتحدث بلغة أخرى » .

وضغطت على يده بقوة ؛ ووجهت إليه نظرة مليئة بالحب والحياة ، وزفرت زفرة عميقة ، وحرّكت حركة شفقتها مليئة بسحر سماوى ، ثم صاحت : « عدنى بأن تعيش ! » صاحت فى جهد رقيق لطيف ، ثم ارتدت إلى الخلف مرتجئة فى الحال .

« أعدك بهذا ! » هكذا صاح إدورد بدوره ؛ لكن جوابه تبعها دون أن يبلغها . لقد فارقت أوتيل الحياة .

وبعد ليلة أمضتها شرلوت في العبرات والزفريات ، كان عليها أن تعني
 بدفن هذه البقايا العزيرة . وعاونها المايجور ومثلر . أما إدورد فقد تقطعت
 أنفاسه حزنًا وكهفًا ؛ ولما عاد شيئًا إلى رشده وأفاق قليلا من بأسه ، ألح
 في عدم نقل أوتيلي خارج القصر ؛ لقد أراد أن يُعنى بها وتعامل كأنها
 شخص لا يزال على قيد الحياة ، لأنها لم تمت ، ولا يمكن أن تكون قد
 ماتت ، فزولوا عند إرادته ، بهذا المعنى على الأقل . وهو أنهم تجنبوا عمل
 ما منعه . ولم يسأل أن يراها .

وجاء فرع آخر وقلق ثان شغل أصدقاءنا : فإن نانت ، وقد أنبها
 الطبيب أعنف تأليب ، واضطرها إلى الاعتراف بواسطة التهديد ، وبعد
 الاعتراف أنحى عليها بأقصى اللائمة ، قد ولت فراراً . وبعد بحث طويل
 عُثِرَ عليها : وقد بدا عليها أنها خرجت عن طورها . فأخذها أهلها لديهم ؛
 ولم يفلح أى علاج فيها ؛ وكان لابد من حبسها في غرفة ، لأنها كانت
 تهدد بالفرار مرة أخرى .

وأفلح القوم في أن يخرجوا إدورد شيئًا فشيئًا من بأسه القتال ؛ لكن
 هذا كان من أجل شقائه ، لأنه رأى بوضوح وأيقن أنه فقد نعيم حياته إلى
 غير رجعة ، وحاولوا أن بصّروا له أن أوتيلي وقد وضعت في الكابسة
 لا تزال في عداد الأحياء ، وتنعم بثنوى هادى وديع . وكان من العسير
 الظفر بمواقفته ، على شرط أن يحمل إلى هناك في تابوت مفتوح ، وأن
 توضع في الحفرة تحت غطاء من الزجاج ، ويوضع إلى جوارها مصباح يوقد
 باستمرار : هنالك لاح أنه موافق ومستسلم لكل شيء .

وألبس هذا الجسم الجميل نفس الزينة التي هيأتها لنفسها ؛ ووضع على
 رأسها تاج من زهرة اللؤلؤ (المرجريت) كان يرف كالنجوم الحزينة . ولترين

التابوت والكنيسة والكابلة خربت كل الحقائق ، وكان الشتاء قد حصد كل الكنوز الباسمة في المياض والمزاهر . وفي الصباح الباكر نقلت من القصر في تابوت مفتوح ، وأضاءت الشمس المشرقة هذا الوجه الملائكي مرة أخرى . وتدافع الموكب حول حاملي النعش : إذ لم يشأ أحد أن يسبقه ولا أن يتبعه ، بل أراد الجميع أن يحيطوا به ، ورغب الكل في أن ينعموا بحضرتها للمرة الأخيرة . وكان الجميع من رجال ونساء وأطفال متأثرين إلى عمائق قلوبهم . والفتيات خصوصاً ، وهن اللاتي أحسن أكثر من غيرهن بالحسرة التي أصيبن بها ، كنَّ فوق متناول كل تعزية وسلوى .

ولم تكن نانت حاضرة . فقد مُسِنَت ، أو بالأحرى أُخِصِي عنها يوم الدفن وساعته ؛ فأبقوا عليها عند أهلها في غرفة تطل على الحديقة . لكنها حينما سمعت أصوات النواقيس ، أدركت تماماً ما يجري ؛ ولما كانت حارسها — وقد شغفها أن ترى الموكب — قد غادرتها ، فقد تسربت من نافذة في المر ، ولما وجدت كل الأبواب موصدة ، صعدت إلى الطابق الأعلى .

وتقدم الموكب بخطوات موزونة ، خلال القرية ، في طريق كنس جيداً ونثرت فيه الأوراق . ورأت نانت بكل وضوح تحت عينيها سيدتها أجهل وآثق من كل الفتيات اللاتي كن يشيطن الجنازة . ولاحظت أنها تشير إلى خادماتها كأنها مخلوق سماوي محمول على أجنحة السحاب أو تهبج الأمواج ، فاضطربت الفتاة وترنحت وطاش عقلها فاندفعت وألقت بنفسها وهوت .

فتباعد الجمع من كل ناحية وهم يصرخون صرخات مريضة . واضطر التدافع والصخب الحاملين إلى وضع التابوت . وكانت الطفلة راقدة إلى جواره ؛ وكان يلوح أن أعضاءها قد تحطمت كلها . فأنهضت ، ومصادفة أو بهبة خاصة ، أسندت إلى جسم أوتلي ؛ ولاحظ أنها أرادت ، بما بقي فيها من حياة ،

أن تصل حتى سيدتها العزيزة . لكن ما كادت أعضاؤها المحلقة تحس الثياب ، وأناملها الواهنة تلمس يدي أوتيلي المنضممتين حتى نهضت الفتاة فجأة : فرفعت يديها إلى السماء ، ثم ركعت أمام التابوت ، وفي نشوة ورعة تأملت سيدتها .

وأخيراً نهضت ، وكأنما أصابها الوحى ، وصاحت بسرور مقدس : « أجل ، لقد غفرت لى ! إن ما لم يغفره لى الناس ، وما لم أستطع أنا أن أغفره لنفسى ، يغفره الله لى بواسطة نظرة سيدتى وحركتها وبفعمها . وها هى ذى تعود إلى مثواها الوداع العذب ، لكنكم رأيتم كيف نهضت وكيف باركتنى بيديها البسوطتين ، وكيف نظرت إلى نظرة صداقة وود ! وسمعتم جميعاً ، وأنتم على هذا شهود ، أنها قالت لى : « لقد غفرت لك ! » . لم أعد بينكم بعد الآن مجرمة آثمة : لقد صفحت عني وغفر الله لى ذنبي ، وليس فى وسع أحد بعد أن يلومنى » .

وتكالب الجميع عليها : ودَّهشوا ، وأرَّعوها أسماعهم ، وتلفتوا عن عينيَّ وشمال ، ولم يعرف أحد ماذا يفعل .

« احملوها إلى مشوى الراحة والسكون ، هكذا قالت الفتاة ؛ لقد أدَّت واجبها ، وكان لها نصيبها من الألم ؛ وليس لها بعد أن تقيم بيننا » .

فاستأنف الوكب سيره ، تتقدمه نانت . وبلغوا الكنيسة والكالبة . وهناك وضعوا تابوت أوتيلي ، عند رأسها تابوت الطفل ، وعند قدميها الصندوق الصغير وقد وضع فى خزانة متينة من البلوط . ووضع حارس للسهر فى الأيام الأولى بالقرب من الجسم الذى لاح أنه كان لا يزال مليئاً باللفظ ، وهو راقد تحت غطاء من البسَّور ؛ بيد أن نانت لم تشأ أن يسلبها أحد هذه المهمة ؛ بل شامت أن تظل وحدها بلا رفيقة ساهرة بعناية على الصباح الذى

أضئ. لأول مرة. وألحقت في الرجاء للظفر بهذا المطف وأصرت حتى أُجيبَت إلى طلبها، حتى لا تنتابها آلام ممنوية أبشع، كان يخشى عليها منها.

لكنها لم تبق وحيدة طويلاً. لأنه عندما أقبل المساء ونشر النور المُرفِيف ضوءاً ساطعاً ناشراً كل تأثيره، فُتِحَ الباب ودخل المهندس في الكابله وقد بدت له جدرانها بزخرفتها الطاهرة تحت هذا الضوء الهادئ أكثرِ قدماً وأمعن في الأسرار مما كان في وسعه أن يتخيل.

وكانت نانت جالسة إلى جوار التابوت. فتعرفت الشاب في الحال: لكن، دون أن تنفوه بكلمة، لوحت بإصبعها إلى سيدتها الشاحبة. وكان هو واقفاً في الناحية الأخرى عليه حمياً الشباب وجماله، منطوياً على نفسه، ثابتاً لا يتحرك، مُفكراً، قد أنزل ذراعيه وضم يديه، تميراً عن الشفقة والحنان، ورأسه مائلة محنية ونظرته مثبتة على جسم الميتة.

وهو من قبل قد وقف هذه الوقفة نفسها في حضرة بليساريوس. فعاد إليها الآن دون أن يمي. وكم كانت هنا أيضاً طبيعية! في هذه المرة أيضاً هبط فضل لا تصاب له قيمة من ذروته السامية. وإذا كنا نندُب في المحارب الشجاعة والحكمة والقوة والمكانة والحظ كأشياء ذهبت إلى غير عود؛ وإذا كانت فضائل لا غنى عنها للأمة والحاكم، في اللحظات الحاسمة، قد أسيء تقديرها، بل رُفِضت ومُنِعت: فهنا نظيرها من الفضائل التي أخرجتها الطبيعة من جوفها الخصب قد قُضِيَ عليها بيدها غير المابثة ولا المكترثة؛ فضائل عزيزة، نادرة جميلة، يستشعر العالم الفقير إليها في كل وقت، أثرها الهادئ بمتعة وسرور، ويُحسُّ بفقدانها بألم وحزن مقيم. في الشاب والفتاة حيناً صامتين: لكنها حيناً رأته وقد تبللت عيناه

بالدموع ، ولاح أنه غارق في هوة الألم ، تحدثت إليه بقوة وصدق ، وإحسان واقتناع إلى حد أنه وقد أدهشته فصاحتها استماد ثباته ورباطة جأشه ، ولاح له أن صديقه الجميلة نحيا وتعمل في دائرة علوية . خفت عبراته ، وهذأت آلامه ، وجثا على قدميه ، وودّع أوتيلي ؛ ثم ودع نانت ، وهو يضغط برفق على يديها ، وقبل نهاية الليل ، رحل راكبا جواده ، دون أن يرى أحداً من الناس .

وكان الجراح قد قضى الليلة في الكنيسة ، على غير علم من الفتاة ، وحينما زارها في الصباح ، وجدها مليئة بالشجاعة والرزانة والهدوء . وتوقع منها كثيرا من الأوهام والتخيلات ؛ وخيل إليه أنه سيسمها تحدّثه عن أحاديث ليلية مع أوتيلي ورؤى أخرى مشابهة ؛ لكنها كانت طبيعية ، هادئة ، مألوفة لزام نفسها تماما . وكانت تذكر الماضي تماما ، وكل الظروف بكل دقة ، ولم يكن في حديثها شيء نَدَّ عن الواقع وانحرف عن جادة الصواب اللهم إلا حادث الجنّازة ، الذي لَدَّ لها أن تكرر لنفسها كثيرا ، مُرَدِّدة كيف نهضت أوتيلي وباركت عليها وغفرت لها وأعادت بهذا إليها الطمأنينة أبدا . واجتذبت حالة المتوفاة — وقد ظلت على حالها من الجمال ، ولاح أنها نائمة أولى من أن تكون ميتة — الكثير من الناس . ورغب سكان المنطقة وما جاورها أن يروها مرة أخرى ؛ وود كلُّ أن يسمع من فم نانت الحادث الخارق الذي لا يمكن تصديقه : البمض للسخرية منها ، والكثيرون للشك فيه ، وقليلون للإيمان به .

كل حاجة يعوزها الإشباع الحقيقي تدعو إلى الإيمان . إن نانت ، التي اقتحمتها كلُّ العيوب ، قد شفيت بلهسة من الرُّفَات المقدّس : فلماذا لا ينعم بهذه المنحة آخرون أيضا على هذه الأرض ! أتى كثير من الأمهات

الخنونات - سرّاً في أول الأمر - بأبنائهن المصابين ببعض العلل ، واعتقدن
أنهن لاحظن شفاءً مفاجئاً . زادت الثقة ؛ وأخيراً جاء أكثر الناس
عاهات ونقائص وأبعدهم في السن ، جاءوا جميعاً ينشدون عند أوتيل الصحة
والقوة والعزاء . وازداد جمع الوافدين ، حتى اضطر أولو الأمر إلى إغلاق
الكلية ، بل والكنيسة في غير ساعات الخدمة الربانية .

أما إدورد فإنه لم يعد يجرؤ على الاقتراب من الميتة . فعاش منطوياً
على نفسه ؛ ولاح أنه استنفد كل دمع وعسبرة ، ولم يعد قادراً على التألم .
وكلّ يوم قلّت مشاركته في الحديث ، وقلّ تناوله الطعام . لكن لاح
أنه لا يزال يستمد شيئاً من العزاء من الزجاجة التي لم تكن مع ذلك نبيّاً
صادقاً . ولذ له دائماً أن يتأمل الأرقام المتعاقبة ، وبدا أن عينه الرزينة
الجادة تنبئ أنه لا يزال يأمل في أن ينضم إلى صديقه . وكما أن كل حادث
يبدو أنه يشجع السعداء ، وتزيد في عونهم كل مصادفة ، كذلك فإن أقل
الأحداث ينقذ عند البائسين الخور واليأس والقنوط . وذات يوم قرّب
إدورد من شفّيته الزجاجة العزيرة ، بيد أنه أبمدها جازعاً في الحال ؛ لقد
كانت هي نفسها ، ولم تكن هي نفسها . وعبثاً حاول أن يجد فيها علامة
صغيرة . فسأل خادم غرفته حقيقة أمرها : فاضطر للاعتراف بأن الزجاجة
الحقيقية قد كُسرت أخيراً ، واستميض عنها بأخرى ممثلة تعود هي
الأخرى إلى أيام شباب سيده . لم يستطع إدورد أن يظهر الغضب ؛ لقد
تقرر مصيره بهذا الحادث ، ولماذا تحدث الشارة أترأ في نفسه ؟ مع هذا
تأثر بهذا أعمق تأثر . ومنذ تلك اللحظة ، عاف كل شراب ؛ ولاح أنه
عقد نيته على الامتناع عن الطعام والكلام .

بيد أن نوعاً من القلق كان يستولى عليه من حين إلى حين ؛ فكان

يسأل بعضاً من الطعام ، ويستأنف الكلام .
 « آه ! هكذا قال يوماً للماجور الذي كان دائماً تقريباً إلى جواره ،
 كم أنا بائس ! كل مجهوداتي لم تُفَضِّ إلا إلى محاكاة ، وإلى عمل لا غناء
 فيه . وما كان هناء لها صار عندي عذاباً وشقاء . ومع هذا فإني مضطر إلى
 تحمل هذا المذاب كيأصل إلى ذلك الهناء . يجب أن أتابعه ، أتابعه من
 هذا الطريق . لكن طبيعتي ووعدي يمنعانني . ياله من عمل خفيف أن
 يحاول المرء محاكاة ما لا يمكن محاكاته ! إنني لأشعر جيداً ، أيها الصديق ،
 بأن المرء لا يستطيع أن يظفر بشيء من دون عبقرية وموهبة ، بل ولا أن
 يظفر بالاستشهاد . »

وفي هذا الموقف الملى بالقنوط ، ماذا يجدي أن نرعى كل ما فعلته
 شرلوت والماجور والطبيب لإدورد حيناً من الزمان ؟ لقد وجد أخيراً ميتاً .
 وكان متل هو الذي قدر له أن يكتشف هذا الاكتشاف الحزين . فدعا
 الطبيب ، وبنياته الممهود ، لاحظ بدقة كل الظروف التي وجد فيها المتوفي .
 وهرعت شرلوت وقد خرجت عن صوابها : وخيل إليها أنه انتحر . واهتمت
 نفسها ومن حولها بإهمال لا يفتقر . لكن الطبيب ، بأدلة مادية ، ومثل
 يبراهين معنوية ، أقنعاها بأنها مخطئة . فن الواضح أن إدورد قد فاجأه
 الموت في لحظة هادئة . وقد انتزع من صندوق صغير حافظة أوراق ونشر
 أمام عينيه ما اعتاد حتى ذلك الحين أن يخفيه بعناية ، ونعى ما بقي له من
 أوتيل : خُصلة من الشعر ، وأزهار اقتطفت في أوقات هائلة ، وكل
 البطاقات التي كتبها إليها ، من الأولى التي ردتها إليه شرلوت بصدقة
 منبئة ، حتى الأخيرة : كل هذه الأشياء لم يكن في رسمه أن يرمضها باختياره
 لاكتشاف عمرَضى طارىء .

وهذا القلب الذى ظل حيناً طويلاً فريسةً لاضطراب لا حدَّ له ولا نهاية ، قد صار الآن غارقاً فى سُبات أبدي ؛ ولما كان قد رقد وهو يفكر فى الفتاة المقدسة ، فيمكن أن يقال من غير شك إنه مات ممموراً بالسعادة . ولقد أعطته شرلوتُ السكان الذى كان ينتظره إلى جوار أوتبلى ، ومنعت من أن يدفن أحدٌ بالقرب منهما فى هذه الحفرة . وتحت هذا الشرط وهبت الكنيسة والمدرسة والراعى والعلم أوقافاً طائلة .

وهكذا رقد العاشقان كلاهما بجوار الآخر ؛ والسلام يسود فى مثواهما الأخير ؛ والملائكة ، إخوانهما ، يلقون عليهما من أعلى قبة السماء نظرات ساجية وأدعة . آه ! ما أسعد اللحظة التى سيبعثان فيها معا !